روايات مصرية للجيب

أوراق بطل

د. نبيل فاروق

كوكتيل ٢٠٠٠

ثقافة الغد .. لشباب اليوم

25

Looloo
www.dvd4arab.com

عدد خاص

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٣٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

- مع بدء العـــد التنـــازلى ، نحو القـــرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيـل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضـارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليوم

د. نبيل فاروق

اللّص ..

(قصة قصيرة)

كـل شـىء كـان يوحـــى بالهـدوء ، فـى تلك الليلة ..

الطقس معتدل دافئ ، على نحو محبَّب ، بالنسبة لمنتصف الشتاء ، والبدر يتوسَّط السماء ، التـى خلت تمامًا من الغيوم ، فتألَّقت فيها ملايين النجوم ، كحبَّات من اللؤلؤ ، وسط مخمل أسود رقيق .. حتى التلفاز ، كان يبث برنامجًا جيِّدًا للغاية ، شدَّ انتباه الجميع ، حتى إن الشوارع خلت ـ أو كادت ـ من المارة ، على الرغم من أن عقارب الساعة لم تكن قد تجاوزت العاشرة والنصف مساء ، و ...

وفجأة ، انطلقت تلك الصرخة ..

« لص .. لص .. أمسكوا اللص .. »

كانت أوّل مرة يحدث فيها هذا فى المنطقة ، منذ انتقلت وأسرتى للسكنى فيها على الأقل ، لذا فقد أسرعت مع زوجتى إلى الشرفة ؛ لنستطلع الأمر ، ونقف على أمر ذلك اللص ..

كانت الصيحات تنطلق من البناية المقابلة لنا تمامًا ، وبالتحديد من نافذة فى الطابق الرابع ، يطلّ منها رجل فى حدود الستين من عمره ، يشير إلى الحديقة الصغيرة فى اتفعال ، هاتفًا :

ـ لقد رأيته .. كان يتسلّق المواسير المطلة على الحديقة .. لقد رأيته .. أمسكوا اللص .

وانتقل انفعاله إلى الجميع بسرعة مدهشة ..

أنا ، وزوجتى ، وفتاة شابة ، تقف مذعورة ، فى شرفة الطابق الثانى ، المطلّة على الحديقة ، وعدد من شباب المنطقة ، اعتادوا قضاء أمسياتهم على ناصية الشارع ..

الجميع راحوا يتحركون فى اتفعال جارف ، والرجل يواصل صرخاته :

ـ ابحثوا فى الحديقة .. لقد رأيته بنفسى .

وهتفت زوجتى :

ـ ألن يفعل أحد شيئًا ؟!

أطلقت هتافها ، وأنا أتطلّع إلى الشباب ، الذين راحوا

يتحدثون فى اتفعال ملحوظ ، وبصوت غير مسموع ، قبل أن يهتف أحدهم ، مشيرًا إلى الرجل :

ـ اطمئن يا عم (محمود) .. سنبحث عنه .

لم أكن أميل كثيرًا إلى هؤلاء الشبان ، وأوقاتهم التى يهدرونها مع طاقاتهم ، على ناصية الطريق ، إلا أننى ، والحق يقال ، شعرت بالفخر والتقدير لهم ، عندما اندفع خمسة منهم فى جسارة إلى الحديقة ، واختفوا فى ظلمتها ، وعم (محمود) يتابع ، وهو يلوّح بذراعيه :

ـ أضيئوا أنوار الحديقة .. ستجدونه مختبئًا هناك حتمًا .

جاوبه الصمت لبضع دقائق ، انفتحت خلالها كل النوافذ ؛ ليطلّ سكان البنايات المطلّة على الحديقة ، قبل أن يُشعل أحد الشبان أضواءها ، على نحو جعلها مكشوفة للجميع ، فى نفس اللحظة التى ارتفع فيها صوت شاب آخر يهتف :

ـ لا يوجد أحد هنا يا عم (محمود) .

تراجع عم (محمود) بحركة عنيفة ، كما لو أنه قد تلقّى صدمة قوية ، وحدّق بضع لحظات فى الحديقة المضاءة ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ ولكننى رأيته .. رأيته يتسلّق المواسير فى الحديقة .

شعرت بالكثير من الشفقة على الرجل ، الذى بدا شديد الارتباك ، وهو يواجه نظرات السخط والضيق والاستنكار ، من

- أولئك الذين انتزعتهم صيحاته من أمام التلفاز ، وحرمتهم من متابعة البرنامج الجيد ، وراح الكل يتراجعون إلى داخل منازلهم ، فى حين عدّل عم (محمود) منظاره الطبى ، وهو يقول مرتبكًا :

ـ لقد رأيته :

ثم لم يلبث أن انسحب إلى شقته فى هدوء وخجل ، فى نفس اللحظة التى أطفأ فيها الشبان أضواء الحديقة ، وبلغت همهماتهم غير المفهومة مسامعى ، وزوجتى تغمغم فى أسى :

ـ مسكين عم (محمود) .. يبدو أن منظاره يحتاج إلى تغيير ..

وعادت تتابع البرنامج ، فى حين بقيت أنا قليلاً فى الشرفة ، أتابع خروج الشبان الستة من الحديقة ، وهم يتضاحكون ، و ...

ولكن مهلاً ..

إنهم بالفعل ستة شبان !!

لقد أحصيتهم مرتين ..

وأنا واثق من أنهم كانوا خمسة فحسب ، عندما اندفعوا إلى الحديقة ..

وبسرعة ، قفزت فكرة ما إلى ذهنى ، فرفعت عينىَّ إلى تلك الفتاة ، فى شرفة الطابق الثانى ، ولمحت ابتسامة الارتياح

على شفتيها ، وهى تتراجع بدورها إلى المنزل ، مغلقة الشرفة خلفها ..

وعندئذ فهمت ..

فهمت سر شجاعة الشبان الخمسة ، وبسالتهم وهم يقتحمون الحديقة ، بحثًا عن اللص المزعوم ..

ودون أن أملك نفسى ، انطلقت من حلقى ضحكة مجلجلة ..

ضحكة أدهشت الشبان ، وأغضبت حتمًا عم (محمود) ، الذى سيتصوَّر أنها موجَّهة إليه ..

والذى لن يتصوَّر ابدًا أنه ، وعلى الرغم مما رآه ، لم يفهم الحقيقة ..

حقيقة اللص ..

★ ★ ★

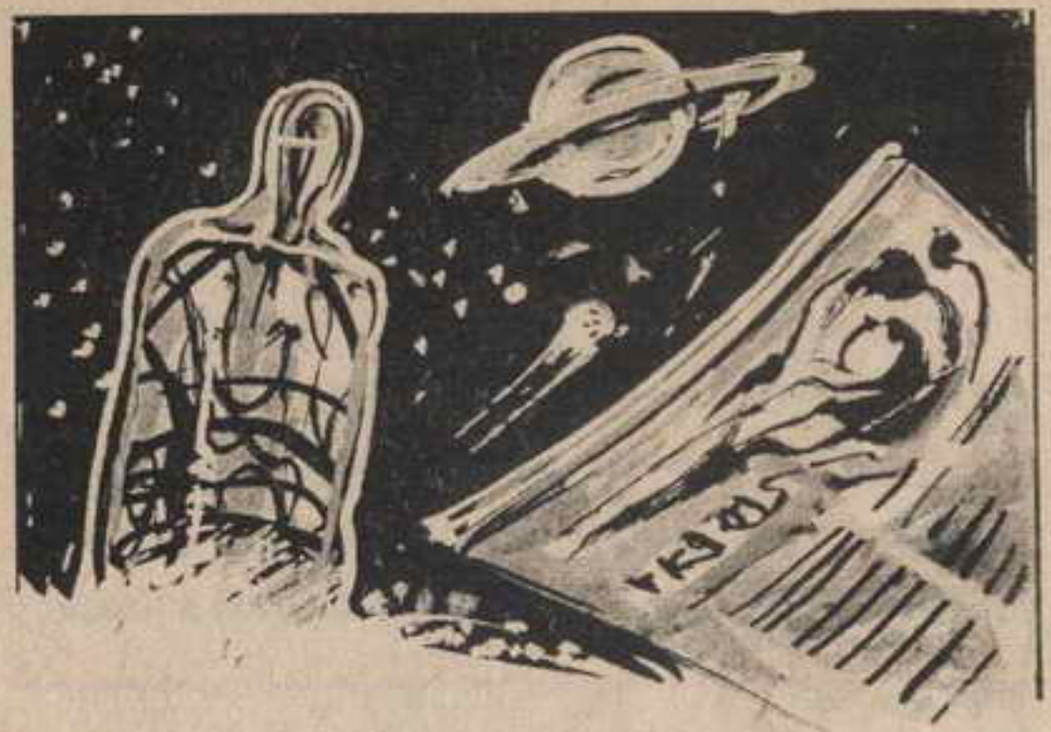

الكواكب الأخرى ..

(قصة قصيرة)

نهض الكاتب الصحفى (سليم عبد القادر) من خلف مكتبه ، ليستقبل ذلك الضيف الشاحب النحيل ، صاحب النظرات الحادة الثاقبة ، الذى يصرّ على طلب مقابلته ، منذ أسبوع كامل ، وحاول أن يرسم على شفتيه ابتسامة ترحاب ، وهو يقول :

ـ دكتور (فاضل) .. أليس كذلك ؟!

أومأ الضيف برأسه إيجابًا ، وهو يتطلّع إليه فى صمت ، بنظرة خُيِّل إليه أنها قد اخترقت كيانه ، ونفذت مباشرة إلى أعماقه ، فتابع فى توتر ، وقد عجزت تلك الابتسامة الزائفة عن القفز إلى شفتيه المرتجفتين :

ـ أخبرونى أنك تصرّ على مقابلتى شخصيًا .

رمقه الضيف بنفس النظرة ، وهو يجيب فى اقتضاب :

ـ هذا صحيح .

شعر (سليم) بتوتر بالغ ، تمنى معه أن يطرد الرجل من مكتبه ، ولكن رغبته فى الظهور بمظهر الأديب المفكر ، الواسع الصدر ، جعلته يدعوه إلى الجلوس ، ثم يسأله فى اهتمام مصطنع :

ـ خيرًا .. لماذا أردت رؤيتى شخصيًا ؟

تقارب حاجبا الرجل ، وهو يجيب فى شىء من الصرامة :

ـ بسبب ذلك المقال ، الذى نشرته منذ ثمانية أيام بالتحديد .

تراجع (سليم) فى مقعده ، وسأله فى حذر ، لم يدر له سببًا :

ـ أى مقال ؟!

أشار الرجل بيده ، مجيبًا :

ـ ذلك المقال ، الذى سخرت فيه من إصرار (نادر فهيم) ، على حتمية وجود كائنات عاقلة فى كواكب أخرى .

صمت (سليم) بعض الوقت ، وهو يتطلّع إلى الرجل ، ثم لم يلبث أن ابتسم فى سخرية ، وقال بلهجة تحمل كل الاستهتار :

ـ آه .. فهمت .

ثم مال نحو الضيف ، قائلاً :

ـ أنت صديق لـ (نادر فهيم) .. أليس كذلك ؟!

هزَّ الرجل رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

ـ ليس بصفة شخصية .. إننى أتابع كتبه ومقالاته منذ فترة ماَ .

لوَّح (سليم) بيده ، وهو يقول :

ـ إذن فأنت أحد معجبيه ، وأتيت لتهاجم مقالى ، و ...

قاطعه الرجل فى حزم شديد :

ـ الهجوم المجرَّد أمر غير علمى أو عملى على الإطلاق .. إننى هنا لمناقشتك فيما كتبته فحسب .

لم يقتنع (سليم) بالجواب ، وراوده شعور بأن هذا الرجل الجالس أمامه ، قد أتى لمجرَّد الهجوم عليه بالفعل ، مهما أحاط هذا بمبررات أنيقة ، أو منطق مدروس ..

ومن أعماقه ، تصاعدت رغبة عارمة فى استفزازه ..

رغبة منعه جزء من شعور الطفولة داخله من كبحها ، فاعتدل بحركة حادة ، وهو يفرغها على لساته ، قائلاً :

ـ (نادر فهيم) هذا مجرَّد أفَّاق .

تراجع الضيف بحركة حادة ، هاتفًا فى استنكار :

ـ أفَّاق ؟!

أجابه (سليم) فى عنف شامت :

ـ نعم .. أفَّاق ومدَّع أيضًا .. إنه لا يفقه شيئًا فى فن الكتابة الحقَّة ، وإنما يعزف على مشاعر القرَّاء ، وعدم معرفتهم بما يكتبه ، مما يمنحه فرصة إبهارهم بقصص وروايات وهمية ، يدَّعى كونها حقائق مجرَّدة .. عملية نصب أدبية مدروسة .

صمت الضيف طويلاً ، وهو يتطلَّع إليه فى عتاب ، جعله يواصل بلهجة أكثر استفزازية وهجومية :

ـ وفى موضوع مخلوقات الكواكب الأخرى هذا ، بلغ خداعه مبلغه .. إنه يدَّعى وجود كائنات من كوكب آخر على الأرض ، لها نفس ملامحنا وسماتنا الخارجية ، بحيث يمكنها الاندماج بيننا لفترة طويلة ، دون أن نعلم أو نشعر بوجودها .. هل سمعت مثل هذا الهراء من قبل ؟!

غمغم الضيف :

ـ الواقع أننى ..

ولكن (سليم) قاطعه ، متابعًا فى صوت مرتفع ، يتقاطر سخرية وشماتة :

ـ ليس هذا فحسب ، ولكنه يدَّعى أن هذه الكائنات باردة كالثلج ، ولها قوة الثيران ، كما يمكنها اختراق الجدران والأبواب المغلقة .. يا للسخافة ! إنه حتى لم يستطع إتقان خدعته .

انعقد حاجبا الضيف مرة أخرى ، وقال :

ـ هل تعلم من أين أتى (نادر فهيم) هذا ؟!

لوَّح (سليم) بيده ، قائلاً :

ـ ومن يعنيه أمر (نادر فهيم) هذا ؟! فليأت من مدينة ، أو قرية ، أو حتى من الجحيم نفسه .. إنه مجرَّد أفَّاق محتال ، لن أشغل نفسى بأمره قط .

تطلّع الرجل إلى عينيه مباشرة ، وقال :

ـ ولكنك فعلت .. ألم تهاجمه بمقال كامل ؟!

قال (سليم) فى حدة :

ـ لقد هاجمت خزعبلاته السخيفة ، ولم أهتمّ بمهاجمته شخصيًا .

صمت الرجل بضع لحظات ، ثم مال نحوه ، يسأله فى اهتمام :

ـ فليكن .. ما تصوّرك للكائنات الموجودة فى الكواكب الأخرى ؟!

عاد (سليم) يبتسم فى سخرية ، ويتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ أية كائنات ؟ وأية كواكب أخرى ؟! كل هذا مجرّد هراء يا رجل .. لست أومن بوجود أية كائنات ، خارج كوكب الأرض .

بدا الاهتمام على الرجل ، وهو يسأله :

ـ حقًا ؟!

أجابه (سليم) فى حماس :

ـ بالطبع يا رجل .. لا توجد مخلوقات حية سوى فى كوكب الأرض وحده .. هذه هى الحقيقة ، وكل ما عداها هراء .

أومأ الرجل برأسه متفهمًا ، وقال فى تردّد :

ـ ولكن (نادر فهيم) يؤكّد أن لديه أدلة ، و...

قاطعه (سليم) بضحكة عصبية مجلجلة ، قبل أن يقول :

ـ أدلة ؟! دعه يبلّل أدلته هذه ويشربها مع خيبته وغبائه ..

تلك الأدلة المزعومة لا يمكن أن تقنع سوى البلهاء والحمقى وحدهم ، أما أنا فلا :

ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتى الرجل ، وهو يقول :

ـ ألن تطالع تلك الأدلّة أوّلاً ؟!

لوّح (سليم) بذراعه كلها ، قائلاً فى إصرار حازم :

ـ كلاّ .. لن ألقى عليها نظرة واحدة ، ولن أومن بوجود أية مخلوقات حية خارج كوكب الأرض ، حتى ولو امتلأت الأرض كلها بهم .

مطّ الضيف شفتيه ، مغمغمًا :

ـ إذن فلا فائدة من النقاش .

ثم نهض ، وابتسامته تتسع ، ومدّ يده إلى (سليم) ، قائلاً :

ـ إلى اللقاء يا أستاذ (سليم) .. لقد أفادتنى مقابلتك كثيرًا .

مدّ (سليم) يده ؛ ليصافحه ، وهو يقول :

ـ لا بأس .. لا بأس .. صحيح أننا لم نتفق ، ولكن ..

بتر عبارته بغتة ، عندما أصبحت يده بين أصابع باردة كالثلج ، قوية كالفولاذ ، أطبقت على اليد فى عنف ، حتى كادت تعتصرها ، ورأى عينىّ الضيف تتسعان وتبرقان بلون فيروزى مخيف ، وهو يقول بصوته القوى الساخر :

ـ ماذا حدث يا سيّد (سليم) .. هل شعرت بالدهشة ؟!

ارتجف جسد (سليم) فى عنف ، وحاول أن يجذب يده من الأصابع الفولاذية ، وهو يهتف :

ـ من أنت ؟! من أنت بالله عليك ؟!

مال الضيف نحوه ، وبدت عيناه أشبه بجمرتين متقدتين ، وهو يتطلّع بهما إلى عينى (سليم) ، الذى كاد يفقد الوعى من فرط الرعب ، والضيف يقول :

ـ اسمى ليس الدكتور (فاضل) ، كما أخبرتك سكرتيرتك .. اسمى ، الذى أستخدمه فى كوكبكم هو (نـادر) .. (نـادر فهيم) .

قالها ، وأطلق ضحكة عجيبة ، ثم أفلت يد (سليم) ، الذى سقط على مقعده ، يرتجف كريشة فى مهب الريح ، وعيناه تحدقان فى ضيفه ، الذى واصل ضحكاته ، وهو يتجه إلى الجدار ، ويخترقه ، ويختفى داخله تمامًا ..

لحظتها فقط ، قفز إلى رأس (سليم) سؤال واحد ..

ترى هل توجد كائنات عاقلة ، فى الكواكب الأخرى ؟!

هل ؟!

★ ★ ★

اختبر معلوماتك

هذا العدد ، من كوكتيل ٢٠٠٠ ، ليس مجرّد عدد عادى ..

إنه عدد خاص ..

خاص جدًا ..

لذا ، فمن الطبيعى أن يكون لهذا الباب طابع خاص أيضًا ، فى هذه المرة ..

ولأوّل مرة ، منذ صدرت السلسلة ، لن نطرح عليك فى هذا الباب سؤالنا التقليدى ..

هل أنت مثقف ؟!

بل سنسألك ، وبصفة استثنائية بحتة ..

هل تتابع سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ ؟!

ولو أن جوابك بالإيجاب ، فهذا يعنى أنك تستطيع الإجابة عن كل الأسئلة هذه المرة .

فكلها أسئلة تتعلّق بالسلسلة ..

وبمتابعتك لها ..

اقرإ الأسئلة كلها جيدًا ، واختر الأجوبة الصحيحة ، من وجهة نظرك ، ثم ارجع إلى الحلول الصحيحة فى نهاية الكتاب ، وأخبرنا ..

هل تتابع بالفعل كوكتيل ٢٠٠٠ ؟!

* * *

١ ـ أوّل قصة عدد ، فى سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ ، هى :

□ ضد مجهول □ التحقيق . □ النبوءة .

٢ ـ (ريان يا فجل) .. قصة قصيرة ، ظهرت فى عدد كوكتيل ٢٠٠٠ :

□ السابع . □ السادس عشر . □ الحادى والعشرين .

٣ ـ ظهر اسم (جيلان شوكت) ، فى أحد الأعمال المنشورة فى السلسلة ، واسم هذا العمل هو :

□ الإمبراطورة . □ سر القصر . □ الزهرة الماسية .

٤ ـ « ومن العجيب أن تلك الظاهرة تذهب بالعلماء دائمًا إلى طرفى نقيض ، فإما أن يؤيّدها البعض فى حماس ، أو يرفضها البعض الآخر ، فى عناد وإصرار » .

عبارة وردت فى دراسة خاصة ، ظهرت فى كوكتيل ٢٠٠٠ ، تحت اسم :

□ الانفجار الغامض . □ خلف أسوار العقل .

□ من وراء النجوم .

٥ ـ ظهرت أوّل قصة من سلسلة (العقرب) فى كوكتيل ٢٠٠٠ ، تحت اسم :

□ العصابة . □ الإمبراطورة . □ سيف العدالة .

٦ ـ أوّل شخصية كاريكاتورية ظهرت فى كوكتيل ٢٠٠٠ ، هى :

□ كابتن غريق . □ زوومى . □ شلاطة .

٧ ـ « بلغ طول شارب (جون رونر) مترًا وثلاثة وتسعين سنتيمترًا ، بعد تسع وأربعين سنة من إطلاقه .. »

وردت هذه المعلومة فى عدد كوكتيل ٢٠٠٠ :

□ التاسع . □ العشرون . □ الثانى .

٨ ـ (نورا رشدى) ، بطلة قصة من قصص كوكتيل ٢٠٠٠ ، تحمل اسم :

□ التجربة الرهيبة . □ جزيرة القدر . □ الزائر الغامض .

٩ ـ (الكذّاب) ، قصة كاملة ، صدرت فى عدد كوكتيل ٢٠٠٠ :

□ الأوّل . □ الحادى عشر . □ الرابع عشر .

١٠ ـ (عملية النسر المنفرد) ، قصة فى كوكتيل ٢٠٠٠ ، ضمن سلسلة :

□ العقرب . □ فاى . □ عملية صقر .

١١ ـ فى قصة لعبة الجواسيس ، كان اسم البطل هو :

□ رشدى . □ رفعت . □ رءوف .

١٢ ـ الفصل الثالث والثلاثون ، من الرواية الاجتماعية (أرزاق) ، صدر فى عدد كوكتيل ٢٠٠٠ :

□ العاشر . □ الرابع . □ الثامن .

١٣ ـ (مذكرات مخرج إعلانات) ، قصة ساخرة ، ظهرت فى العدد الرابع عشر من سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ ، ولقد بدأت أحداثها يوم :

□ الخميس ١٢ يناير . □ السبت ٢٦ ديسمبر .

□ الأحد أوّل مارس .

١٤ ـ فى العدد الخامس عشر من السلسلة ، ظهرت دراسة حول الزمن ، تحت عنوان :

□ عقارب الساعة . □ ويمضى الزمن .

□ أمس ، اليوم ، وغدًا .

١٥ ـ القصة الوحيدة ، من قصص كوكتيل ٢٠٠٠ ، التى حملت إهداءً من الناشر إلى المؤلف ، هى :

□ الفارس . □ ثمن الصداقة . □ نداء الأعماق .

١٦ ـ أوّل مدرّب لشخصية (فاى) ، هو :

□ نسيم . □ رفعت . □ هاشم .

١٧ ـ فى قصة (الكوكب العاشر) ، بدأت الأحداث فى زمن :

□ رمسيس الثانى . □ إخناتون . □ أحمس .

١٨ ـ (نظمى سيف الدين) ، هو اسم بطل قصة من قصص السلسلة ، تحمل اسم :

□ صانع اللعب . □ آلة الزمن . □ البعث .

١٩ ـ بدأ الفصل الأوّل من دراسة بعنوان (المرأة مشكلة .. صنعها الرجل) ، فى عدد كوكتيل ٢٠٠٠ :

□ الحادى والعشرين . □ الثانى والعشرين .

□ الثالث والعشرين .

٢٠ ـ بين قصص العدد ، فى سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ ، قصة تبدأ أحداثها فى عصر (صلاح الدين الأيوبى) ، واسم هذه القصة هو :

□ الشىء . □ المهمة . □ العنقاء .

★ ★ ★

إلى هنا تنتهى الأسئلة ..

ولا ينتهى اللقاء ..

ولأن هذا العدد خاص جدًا ، فأنا أرسل إليكم تحية خاصة جدًا .

تحية من صديق ، إلى كل الأصدقاء ..

ومع التحية أطلب منكم أن ترسلوا رأيكم فى سلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

ما أفضل قصة عدد قرأتموها على صفحاتها ، حتى العدد الخامس والعشرين ؟!

من أفضل شخصية ؟!

ماذا يعجبكم ، ولا يعجبكم فيها ؟!

ما الذى تفتقدونه بين صفحاتها ؟!

أرسلوا رأيكم ، وآراءكم ، ومقترحاتكم ، و ...

وإلى لقاء قريب بإذن الله

د . نبيل فاروق

* * *

١ ـ اعتراف ..

لست أدرى كيف أبدأ معكم قصتى هذه !

كيف أرويها على الورق !

إننى لم أتصوَّر أبدًا أن يأتى يوم ، أحتاج فيه إلى نقل مشاعرى ، بأية صورة من الصور ..

حتى الكتابة ..

وحتى لو كنت أنقل هذه المشاعر لنفسى فقط ..

ولكن شيئًا ما فى أعماقى تغيَّر بالتأكيد ..

وهذا يدهشنى ..

ويقلقنى ..

ولكن مهلاً .. قبل أن أروى لكم قصتى ، دعونى أقدِّم لكم نفسى ..

اسمى (نجوى) .. (نجوى حلمى) .. عمرى ثمانية وعشرون عامًا .. تخرَّجت منذ أربعة أعوام فحسب فى كلية التجارة ، التى قضيت فيها حوالى ست سنوات كاملة ، لم أبال خلالها بالنجاح أو الرسوب ، كما لو أننى قد التحقت بها فقط لاستكمال الشكل الاجتماعى ، والحصول على لقب (جامعية) ، الذى يرفعنى إلى درجة محترمة فى المجتمع ..

ولكننى ، ومنذ كنت فى الثامنة عشرة من عمرى ، أعمل فى مجال يختلف تمامًا عن عالم التجارة والاقتصاد ، وإدارة الأعمال ..

فى مجال السياحة ..

زملائى وزميلاتى كانوا ينظرون إلىَّ بإعجاب وانبهار ؛ لأننى تعلَّقت بالحياة العملية مبكرًا ، وأصبحت أحصل على راتب جيِّد ، وخبرة لا بأس بها فى هذا المجال ..

هذا ، لأن أحدًا منهم لم يفهم أو يدرك لماذا اخترت العمل ، فى هذه السن المبكِّرة ..

الواقع أننى ابنة متوسِّطة فى أسرتى ، لى شقيقة تكبرنى ، وشقيق يصغرنى ، وهذا يضعنى فى موقف سخيف ، فشقيقتى الكبرى هى البكرية المدلَّلة ، وشقيقى الأصغر هو الولد ، الذى كاد أبى يطير فرحًا لمولده ، وهو آخر العنقود ، الذى يحظى بكل الحب والدلال ..

أما أنا ، فلا أحد يشعر بى مطلقًا ..

لا أحد يهتمّ بمشاعرى ، أو أحاسيسى ، أو يبالى باهتماماتى وميولى ..

لا أحد ..

حتى عندما أصاب بالمرض ، وأرقد فى فراشى محمومة ، يكتفون بالبحث عن بقايا المضاد الحيوى ، الذى ابتاعوه بسرعة البرق ، عندما سعلت شقيقتى الكبرى مرة ، أو مخفض الحرارة ، الذى خرج والدى لشرائه بعد منتصف الليل ، عندما ارتفعت درجة شقيقى الأصغر نصف درجة ، بعد ثلاث ساعات من اللهو فى الشارع تحت شمس الصيف ..

وبعدها لا أحد يسأل أو يهتمّ ..

كنت أتناول الدواء بنفسى ، وأغمر رأسى بالماء البارد مرات ومرات ، حتى أشفى تمامًا ، ويستعيد جسدى صحته ، وتعاتى أعماقى من جرح غائر فى المشاعر ..

ثم اعتدت عدم اهتمامهم بى ، وألفته ، وبدأت أرفض بنفسى أن يبدى أحدهم ولو لمحة واحدة من الاهتمام تجاهى ، حتى لو كانت مجرّد السؤال عن صحتى ..

وفى أعماقى ، تولّدت رغبة قوية فى أن أثبت لهم جميعًا أننى الأفضل ، وأنهم أخطئوا كثيرًا بتجاهلى ..

ولم أعد ألجأ لأحد منهم قط ، حتى أبى ، لم أعد أطالبه بمصروفى ، وهو لم يسألنى يومًا عما إذا كنت أحتاج إليه أم لا ، وكأنما ارتاح لعدم مطالبتى به ..

وهكذا التحقت بالعمل ، فى أوّل فرصة لاحت لى لذلك ..

وتفانيت فيه بكيانى كله .

كنت أريد أن أثبت للجميع أننى ناجحة ، قوية .. وأننى أفضلهم ..

ونجحت فى عملى ، فى هذه السن المبكّرة ، واكتسبت فيه خبرة لا بأس بها ، وحصلت منه على دخل جيّد ، كنت أبتاع منه كل ما أحتاج إليه من ثياب ، وأحذية ، وحقائب ، وأدوات زينة ..

وحتى الكتب والمراجع الجامعية ..

ولم يتحمّل والدى قرشًا واحدًا بشأنى ، منذ ذلك الحين ، ولم يحاول إخفاء هذا ، وإنما راح يعلنه للجميع فى فخر ، مؤكدًا أننى أفضل أبنائه ، وأنجحهم ..

وعلى الرغم من هذا ، فإن شيئًا لم يتغيّر ..

إلا إلى الأسوأ ..

صحيح أن الجميع اعترفوا بنجاحى فى مجال السياحة ، إلا أن هذا لم يدفعهم إلى الاهتمام بى ، بل على العكس ، زاد من لا مبالاتهم بوجودى ، متصورين أن (نجوى) أصبحت أقوى وأصلب من أن يشغلوا أنفسهم بأمرها ..

والعجيب أننى تقمّصت نفس الشخصية ، التى أضفوها علىّ ، مع مرور الوقت ..

أصبحت أكسو نفسى بغلاف من القوة والصلابة .. وربما الصرامة أيضًا ، وخصوصًا فى عملى ، حيث تتعرّض الأنثى - فى المعتاد - إلى كثير من المضايقات ، التى تحتاج منها إلى الحزم والصرامة واللباقة معًا ، حتى لا تفقد جديتها فى العمل ، أو احترام الزملاء والعملاء لها ..

وبعد تخرّجى فى كلية التجارة ، التى تعثّرت فيها طويلاً ، ازداد تعلّقى بالعمل ، وازددت انغماسًا فيه ، وكأننى أجد فيه السلوى والاهتمام ، اللذين أفتقر إليهما فى منزلى ..

كنت أعمل طوال الوقت ، وأبذل أضعاف أضعاف ما يبذله الزملاء فى العمل ، على الرغم من حصولى على الأجر

نفسه ، الذى يحصل عليه الآخرون ، وتصدّيتُ فى صرامة للكثيرين ، الذين حاولوا إلقاء شباكهم حولى ، والعزف على أوتار مشاعرى ..

والعجيب أننى ، وطوال سنوات العمل والدراسة ، لم أشعر بالانجذاب تجاه أى رجل التقيت به .. بل على العكس ، كنت أشعر وكأننى أكثر قوة وحزمًا منهم جميعًا ، وأن قلبى لايمكن أن يخفق لأيٍّهم ، مهما كانت الظروف ..

ولم يرق هذا لأمى أبدًا ..

كانت كأى أم مصرية ، تريد أن تفرح بابنتها ، وتطمئن إلى أنها قد استقرَّت فى منزل زوجها ، وصارت زوجة ، وربة أسرة ، وأم ..

وكان هذا أكثر شىء أرفضه وأتحاشاه ، فى العالم كله ..

فكرة الزواج كانت تصيبنى بالذعر والفزع ، وأنا أتخيَّل نفسى داخل منزل ، يجهدنى تنظيفه وتنسيقه ، من الصباح إلى المساء ، وبه طفل أو طفلان ، لابد من رعايتهما والاعتناء بهما وبمتطلباتهما ، وبعدها يعود زوجى إلى المنزل ، مطالبًا بمن يعتنى به ، ويتزيَّن له ، ويعدّ طعامه وشرابه ، وثيابه ، و ...

لا .. مستحيل ! لا يمكننى أن أتخيَّل نفسى فى هذا الموقف قط ، على الرغم من أن أمى تستحثنى عليه طوال الوقت ، وخاصة بعد زواج شقيقتى الكبرى ، وسفرها مع زوجها إلى مقرّ عمله ، فى إحدى دول النفط ..

ولم تتوقَّف أمى عن محاولات تزويجى أبدًا ، ولم أتوقَّف أنا عن الرفض بكل إصرار وعناد ، بل ومكابرة فى بعض الأحيان ، وتحوَّلت ـ عمدًا ـ إلى آلة فرز دقيقة ، أرفض هذا لأنه أصلع ، وذاك لأنه لا يحسن انتقاء ثيابه ، وثالث لأن أمه لم تحصل على شهادة جامعية ، ورابع لأن شقته فى منطقة غير ملائمة ، و .. ، و .. ، و ...

كل هذا وأمى تشدّ شعرها غيظًا ، وتحاول إقناعى بأن كل هذه الأسباب لا تعيب الرجل ، الذى لا ينقص من قدره سوى جيبه ، ومقدار ما يحويه من أموال ، على حد قولها ، دون أن تدرك أن الذى أرفضه فعليًا ليس هذا أو ذاك ..

إنها فكرة الزواج نفسها ..

بل لقد كنت أرفض مجرَّد فكرة الارتباط بأى رجل كان ، لأننى لم أومن بوجود رجال حقيقيين فى زمننا هنا ..

حتى قابلت (رأفت) ..

وهنا بدأت قصتى ..

قصتى الحقيقية .

* * *

٢ ـ رأفت ..

منذ تخرّجت فى كلية التجارة ، وابتلعتنى دوّامة العمل فى مجال السياحة ، اتكمشت دائرة معارفى إلى حد كبير ، وأصبحت تقتصر على ثلاث من الصديقات فحسب .. (سمية) ، و (ليلى) ، و (نيفين) ، وثلاثتهن لم يعملن أبدًا فى مجال السياحة ، وإنما كانت الأولى صديقتى منذ سنوات الدراسة ، والثانية جارتى ، والثالثة زميلة لشقيقتى الكبرى ، شعرت بالارتياح والصفاء معى ، بأكثر مما شعرت بهما مع شقيقتى ، فارتبطنا بصداقة وثيقة ، لم تنفصم عراها قط ، طوال سنوات تعارفنا الطويلة ..

وفى ذلك اليوم ، كنت مدعوّة إلى حفل عشاء بسيط ، أقامه خطيب (نيفين) لصديقاتها وأصدقائه ، احتفالاً بعقد قرانهما ، الذى اقتصر على حفل بسيط محدود ، لم يحضره سوى أقاربهما المقربين ..

وكالمعتاد ، كنت محط أنظار الجميع ، على نحو يثير حسد الأخريات ، فقد نسيت أن أخبركم أننى أتمتع بجمال يتجاوز الحدود الطبيعية ، وبقوام جميل ، أبذل جهدًا خرافيًا للحفاظ عليه والعناية به ، وببشرة بيضاء صافية ، أستحم ثلاث مرات يوميًا ؛ لأحافظ على نقائها ..

وأنا أشعر دائمًا بالزهو والسعادة ، فى مثل هذه المواقف ،

وبأننى نجحت فى أن أصبح الأفضل ، حتى فى مضمار الأنوثة ، الذى أرفض خوض السباق الطبيعى فيه ..

ثم وصل (رأفت) ..

لم أشعر بقدومه فى البداية ، إلا أننى لاحظت نظرات الجميع إلىّ بقعة ما خلف ظهرى ، ولمحت فى عيون صديقاتى نظرة مبهورة ، نفهمها نحن بنات حواء ، وقبل أن ألتفت إلى حيث ينظرون ، سمعت من خلفى صوتًا مفعمًا بالرجولة ، يقول :

ـ معذرة لتأخرى ، كنت أنهى بعض الأعمال المهمة .

نهض الجميع لمصافحته ، حتى صديقاتى الثلاث ، فى حين تعمّدت أنا أن أظل جالسة ، حتى يصافحنى دون أن أنهض ، كما تقتضى قواعد اللياقة و(الإتيكيت) ، و ...

ودار (رأفت) حول المائدة ليصافحهم ، ودخل مجال رؤيتى ..

وانتفض قلبى بين ضلوعى فى عنف ، كما لو أصابته صاعقة قوية ، أطلقتها السحب فى ليل عاصف ..

مستحيل ! لا يمكن أن يكون هناك رجل كهذا ، فى زمننا المحدود ..

رجل تشف كل لمحة من لمحاته عن الرجولة ، وتنطق بها .. بل تصرخ بها ..

رجولة من ذلك النوع الفوّاح ، الذى تشم رائحته من مسافة ألف كيلومتر ، وتتعرّفه فور أن تقع عيناك عليه ..

وفى حماس ، قدّمه لى خطيب (نيفين) ، قائلاً :

ـ صديقى (رأفت) .. معيد بقسم البيولوجيا ، فى كلية العلوم .

وبابتسامة رقيقة جذّابة ، صافحنى (رأفت) ، وهو يقول :

ـ فرصة سعيدة جدًا يا آنسة (نجوى) .

حاولت أن أقول شيئًا .. أى شىء ، إلا أن لسانى انعقد فى حلقى ، ولم يسمح لى سوى بهمهمة خافتة غير مفهومة ، وأنا أسحب أصابعى الباردة كالثلج من بين أصابعه القوية ، التى تركت يدى تفلت فى رقة مهذّبة ، قبل أن يحتلّ المعقد المواجه لى مباشرة ، بين (نيفين) وخطيبها ..

إننى لم أومن فى حياتى كلها بما يطلقون عليه اسم الحب من أوّل نظرة ..

بل ولم أومن بالحب نفسه ..

ولكننى ، وبعد نصف ساعة فقط من وصول (رأفت) ، وحديثه الممتع الهادئ ، أدركت أن المعجزة قد حدثت ..

وأننى وقعت فى الحب .. بل وغرقت فيه حتى أذنىّ ..

ولأوّل مرة فى حياتى ، لم يعد اهتمام الآخرين يعنينى ، بل أصبحت أتمنى أن يبدى شخص واحد فحسب اهتمامه بى .. (رأفت) ..

منذ احتلّ مقعده على المائدة ، سيطر بلباقته على المجلس تمامًا ، وراح يتحدّث بصوته القوى ، الذى تمتزج فيه الرجولة بالرقة والأدب ، وبكلمات واضحة واثقة ، وأسلوب انبهر به الجميع ، فأعاروه آذانهم ، وعيونهم ، ومشاعرهم ..

والعجيب أننى شعرت بغيرة قوية ..

كنت أتمنى ـ ولأوّل مرة ـ أن تقتصر رجولته ورقته وقوته علىّ وحدى ، من دون الأخريات ، اللاتى بدَوْن مبهورات به ، وبحديثه وشخصيته ..

ثم تصاعد فى أعماقى بغتة ذلك الرفض العنيف للرجال والحب ..

وخُيّل إلىّ أن حديثًا عنيفًا يدور ، بينى وبين عواطفى الخفية :

ـ لا تجعليه يخدعك .. إنه مجرّد رجل .

ـ مثله لا يطلق عليه مجرّد رجل .. بل قل : إنه الرجل .

ـ وما الفارق ؟!

ـ الألف واللام .. أداة التعريف ، التى تؤكد أنه يختلف عن الآخرين .

ـ وفيم يختلف ؟!

ـ فى أنه رجل ، وبمعنى الكلمة .

ـ تقولين هذا ؛ لأنك وقعت فى حبه .

ـ ومن يمكنها أن تقاوم حب رجل كهذا ؟!

ـ وماذا لو وقع هو الآخر فى حبك ؟!

ـ سأشعر أننى دخلت الجنة .

ـ حتى لو طلبك للزواج ؟!

لم يكد خاطر الزواج يقفز إلى ذهنى ، حتى سرت فى جسدى كله قشعريرة باردة ، وتصاعدت نبرة خوف وتوتر إلى أعماقى ، ووجدت نفسى أحدق فيه بشدة ، على نحو جعله يتوقف عن الحديث بغتة ، ويسألنى فى مزيج من اللهفة والجزع والقلق ، وبرجولة كادت تحطم البقية الباقية من مقاومتى :

ـ آنسة (نجوى) .. هل تشعرين بالتعب ؟!

كنت أرغب فى الإجابة بالنفى ، حتى أحتفظ بتلك الصورة القوية ، التى رسمتها لنفسى ، إلا أننى فوجئت بلسانى يقول فى توتر ملحوظ :

ـ نعم .. بالكثير من التعب .

فجر قولى الموقف كله ، وتحرك الجميع فى قلق ولهفة ، يحاولون إسعافى ، أو إحضار طبيب معالج ، إلا أننى رفضت

كل هذا بشدة ، وأخبرتهم أن كل ما أحتاج إليه هو العودة إلى المنزل ..

« فليكن .. سأوصلك إلى هناك .. هيا .. »

انتفض جسدى كله فى عنف ، واتسعت عيناى فى ارتياع ، عندما نطق (رأفت) تلك العبارة ، وأردت أن أعترض بشدة ، وأن أرفض عرضه بكل إصرار ، ولكن شيئا ما فى لهجته الحازمة ، أو فى مشاعرى المتخاذلة ، جعلنى أفتح فمى وأغلقه ، دون أن أنطق حرفا واحدا ، ثم أتبعه فى استسلام ، فسره الجميع فيما بعد بأنه وليد التعب الشديد ، الذى كنت أعانيه ..

وكانوا على حق بالفعل ..

لقد تبعته ، لأنه كان المسئول عما أعانيه ..

عن تلك الاختلاجات القوية فى قلبى ، والتى لم أعرف مثلها قط ، فى عمرى كله ..

وبمنتهى الرقة والتهذيب ، فتح (رأفت) باب السيارة الأيمن ، ودعانى إلى الجلوس ، ثم احتل مقعد القيادة ، وانطلق بالسيارة على الفور ، وهو يسألنى عن عنوانى ..

وعندما اتخذ طريقه ، قفزت إلى ذهنى بعض التجارب السابقة المماثلة ، مع زملاء وعملاء ، قبلت عرضهم لتوصيلى ، ثم اكتشفت بعدها أنها كانت مجرد محاولة رخيصة لمغازلتى ، والظفر منى بما يرضى أغراضهم الدنيئة ، ووجدت نفسى أبتعد

عنه بقدر الإمكان ، وأتحفّز بمشاعرى كلها ، فى انتظار أية بادرة تبدر منه ..

ولكن مخاوفى لم يكن لها أى أساس ..

لقد كان (رأفت) صورة حقيقية للرجل المهذّب ، الوقور ، المحترم ، الذى أقلنى إلى منزلى ، دون أن يتبادل معى سوى كلمات قليلة ، اطمأن منها على حالتى الصحية ، وعلى التعب الوهمى ، الذى ادعيت شعورى به ..

وعندما بلغنا منزلى ، عرض علىّ أن يعاوننى على الصعود إلى المنزل ، وعندما أخبرته أن التعب قد زال تقريبًا ، تطلّع إلى عينىّ مباشرة على نحو ارتجفت له كل ذرة فى كيانى ، وقال فى صوت خافت رقيق :

ـ آنسة (نجوى) .. لا يمكنك أن تتصوّرى كم أسعدنى أن التقيت بك هذا المساء .

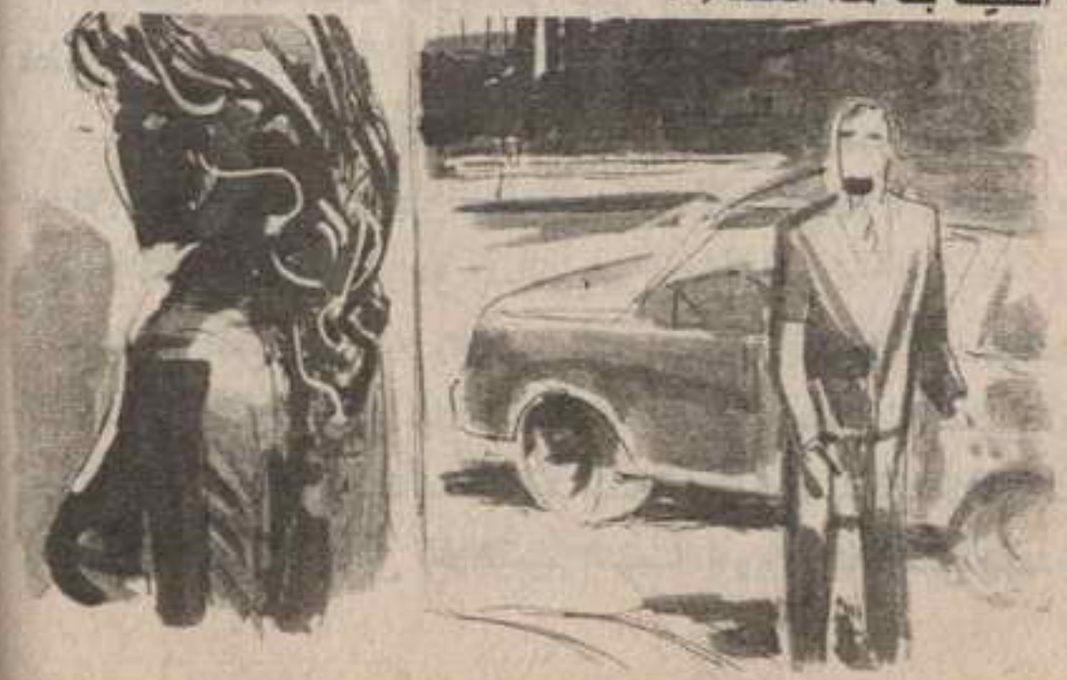

قالها ، وصافحنى مودّعًا ، ثم انصرف بالسيارة ، دون أن يلقى نظرة واحدة خلفه ، وتركنى أرتجف ، وأتابعه ببصرى فى لهفة ، وجسدى بارد كالثلج ..

ولم أستطع النوم فى سهولة ، فى تلك الليلة ..

صورته كانت تملأ خيالى ، وتشحن مشاعرى ، وتمنع جفونى من الانطباق ، حتى إننى قضيت الليل كله أُحدّق فى سقف الحجرة ، أو أتقلّب فى فراشى كالمحمومة ، إلى أن أشرقت الشمس ، فغادرت الفراش بسرعة ، وألقيت جسدى تحت مياه الدش الباردة ، وكأننى أغسل عنه كل ما علق به من مشاعر وعواطف ..

ولكننى لم أحتمل الروتين اليومى لأمى هذا الصباح .. حديثها حول ضرورة الزواج ، وأهميته لكل بنت فى الدنيا ، واعتراضها على إفطارى الهزيل ، الذى يتكوّن فى المعتاد من بيضة واحدة مسلوقة ، وفنجان من القهوة ، وغيرها من الأحاديث المكرّرة ، فأسرعت أرتدى ثيابى ، وأغادر المنزل مبكرًا ، بحجة أن الموسم السياحى على الأبواب ، ومن الضرورى أن أصل إلى مقر عملى ، قبل الموعد المحدود بساعة كاملة ..

وطوال الطريق إلى العمل ، رحت ألوم نفسى وأعاتبها ، وأحاسبها فى قسوة ، على انصياعها لنداء القلب ، واستسلامها لنداء العواطف ..

لم يكن هذا من حقها أبدًا ..

إن أعماقى ما زالت ترفض فكرة الزواج ، وتصاب بالذعر والفزع منها ، وتأبى الارتباط بأى رجل ، خشية إيقاظ أنوثتى الدفينة ، التى سجننها طويلا داخل قلبى ، ومنعتها من الإذعان لنزواتها ورغباتها ، وكل مظاهر الضعف الكامنة فيها ..

وفى شركة السياحة ، انهمكت فى العمل ، وانغمست فيه بأضعاف ما أفعل فى المعتاد ، محاولة إزاحة (رأفت) عن ذهنى ، وإبعاده عن تفكيرى ، و ..

« صباح الخير يا آنسة (نجوى) .. »

تسللت العبارة إلى أذنىّ فى رقة ، إلا أن جسدى كله تجمّد لسماعها ، وارتفعت عيناى تحدقان فى وجه صاحبها ، قبل أن ينتفض كيانى كله فى عنف ..

لقد كان هو ..

(رأفت) .

* * *

٣ - وخفق قلبى ..

أمور كثيرة تغيّرت ، منذ ذلك اليوم ..

لقد فاجأنى (رأفت) بتلك الزيارة ، وأخبرنى بكل صراحة أنه أتى خصيصًا لمقابلتى ، وأنه يودّ أن أمنحه فرصة لتتعارف أكثر ، وليروى لى بعض الأشياء المهمة عن نفسه وحياته ..

وحاولت أن أرفض مطلبه هذا ، وأعترض عليه فى غضب ، متسائلة : كيف يجرؤ على طلب مثل هذا الأمر ، كما كنت سأفعل مع أى شخص آخر ، فى موقف مماثل ، إلا أن شيئًا ما فى أعماقى منعنى من الرفض ، وجعل وجهى يتضرّج بحمرة الخجل ، وأن أهمس بموافقتى فى حياء ، وأرجوه أن ينصرف حتى أنتهى من عملى ، على أن نلتقى بعد انصرافى منه ..

ولأوّل مرة فى عمرى كله ، أجلس مع رجل وحدنا ، فى مشرب أحد الفنادق الفاخرة ، المطلّة على نيل (القاهرة) ..

وفى هدوء حازم ، وبذلك الأسلوب الذى يتقاطر رجولة ونخوة ، راح (رأفت) يشرح لى ظروف حياته وعمله ، وأحواله المهنية والمالية ، ورحت أنا أستمع إليه مبهورة مأخوذة ، ورجولته تدغدغ حواسى ، وتسيطر على مشاعرى ، وتنسينى الدنيا كلها ..

وللدقة ، كنت أستمع بأذنىّ فقط ، وليس بعقلى ، فلم يكن ما يرويه يعنينى فى قليل أو كثير ، إذ إننى مبهورة به شخصيًا ،

ولا تهمنى أية تفاصيل أخرى ..

وعندما انتهى (رأفت) من حديثه ، لاذ بالصمت بضع دقائق ، وهو يتطلّع إلىَّ فى اهتمام وترقُّب ، وكأنه ينتظر تعليقى ، ولكننى لذت بالصمت بدورى ، وأنا أتطلّع إليه ، حتى سألنى فى شىء من القلق :

ـ ما رأيك ؟!

سألته شاردة :

ـ ما رأيى فى ماذا ؟!

أجابنى بدهشة ، تحمل شيئًا من الضيق والاستنكار :

ـ فيما شرحته لك بالطبع ؟!

انطلقت من أعماقى تنهيدة ، وأنا أجيب :

ـ شىء رائع بالتأكيد .

تهلّلت أساريره ، وهو يسألنى فى لهفة :

ـ إذن فأنت توافقين ؟

انتزعنى سؤاله من شرودى وانبهارى ، وجعلنى أسأله فى توتر :

ـ أوافق على ماذا ؟!

أجابنى فى سرعة :

ـ على أن أتقدّم لخطبتك .

لم يكد يشير إلى الأمر ، حتى هوت مشاعرى وعواطفى كلها بين قدمىَّ ، وتصاعد بدلاً منها ذلك الخوف الممزوج بالرفض ،

لفكرة الزواج ، والتبعية لرجل ما ..

أى رجل ..

حتى ولو كان (رأفت) ..

ودون أن أدرى ، انتقل ذلك الخوف الرافض إلى صوتى ، وأنا أقول فى عصبية :

ـ لا .. إلا الخطبة والزواج .

اتسعت عيناه فى دهشة بالغة ، وتراجع بحركة عنيفة كالمصعوق ، وهو يقول :

ـ ماذا ؟!

ارتبكت بشدة ، وأنا أقصد :

ـ أقصد أننا لم نتعارف جيدًا بعد .

ضاقت عيناه ، وانعقد حاجباه ، وهو يقول :

ـ لهذا كانت الخطبة .. لنتعارف أكثر ، ويفهم كل منا الآخر .. إننى لم أعرض عليك الزواج مباشرة .

قلت فى حزم :

ـ لا خطبة أو زواج ، قبل أن نتعارف جيدًا .

كان من الواضح أن هذا الأسلوب الحازم المتعنّت منى لم يرق له أبدًا ، إلا أن رجولته وتهذيبه منعاه من الرفض ، وأجبراه على الموافقة ، مع وعد منى بألا تستغرق فترة التعارف هذه وقتًا أطول مما ينبغى .

ومنذ ذلك الحين ، أصبحنا نلتقى كثيرًا ..

وربما كان موعده هو الشىء الوحيد ، الذى أحرص عليه حرصى على حياتى نفسها ، وأنتظره بلهفة لم أعهدها فى نفسى قط ..

لهفة محبة عاشقة ، تذوب شوقًا لرؤية محبوبها ، والتحدث إليه ، والاستماع لكلماته وحديثه ، بكل ما يحمله صوته من رجولة وقوة ورقة معًا ..

ومع مرور الوقت ، انتبهت إلى أننى لم أكن أحبه فى البداية ، وإنما كنت مبهورة به فحسب ، أما الآن ، ومع ازدياد معرفتى به ، فأنا أحبه ..

بل أعشقه حتى النخاع ..

إنه الرجل الوحيد الذى عرفته ، فى حياتى كلها ..

الرجل الوحيد الذى سلب عقلى ، واستحوذ على كيانى ، وامتلك كل خلية من خلايا قلبى ، الذى لم يعد ينبض إلا بحبه وعشقه ..

كم هو رقيق ، حنون ، قوى ، واثق ..

كم هو رجل ..

واحترامًا لكلمته ، لم يناقش (رأفت) الأمر معى ثانية لفترة طويلة ، استغرقت أربعة أشهر كاملة ، توطدت خلالها علاقتنا وتوثقت ، وعشت فيها أجمل أيام حياتى ، وأسعد ساعات نبض فيها قلبى ، فى عمرى كله ..

ومن المؤكد أن أول ما تغير ، بعد هذا اللقاء ، هو أنا نفسى .. الجميع لاحظوا هذا التغيير ..

أبى ، وأمى وشقيقاى ، وحتى زملاء العمل ..

الجميع انتبهوا إلى أننى لم أعد (نجوى) الجافة الصارمة ، بل صرت واحدة أخرى ، استيقظت أنوثتها ، وتألقت ، وتوهجت ، وأصبحت أكثر مرحًا وتقبلا للحياة ..

كانت أسعد لحظاتى تلك التى أقضيها مع (رأفت) ، والتى تتشابك فيها أصابعنا ، أو نتأمل معًا غروب الشمس ، وروعة الطبيعة الخلابة ..

وطوال الوقت ، كان (رأفت) يبثنى حبه وهيامه ، ويهمس فى أذنى بأجمل وأعذب كلمات الهوى والغزل والحنان ، وأنا أستمع إليه صامتة منتشية ، وأتمنى لو أبثه حبى ، كما يبثنى حبه ..

ولكن شيئًا ما كان يكبل مشاعرى ، ويعقد لسانى ، ويمنعنى حتى من التعبير عن حبى له ، ولو بابتسامة بسيطة ، أو كلمة رقيقة ..

كنت أكتفى بالاستماع إليه فحسب ، وقلبى يخفق ويضطرب ، ويبذل قصارى جهده لتجاوز تلك الأسوار العالية ، التى أحطته بها منذ زمن طويل ، ثم لا يلبث أن يلهث إرهاقًا ويأسًا ، ويكتفى مثلى بالنبض والاستقبال ..

لم أكن قد تخليت بعد عن تلك الفكرة ، التى سيطرت على مشاعرى وكيانى منذ حداثتى ، من أن الحب ضعف ، لا ينبغى أن يستسلم الإنسان له قط ، بل يجب أن يقاومه ، ويقاتله ، بكل ما أوتى من قوة ..

وأن الارتباط والزواج سجن كئيب ، ومعتقل تحيط به أسوار شائكة ، أخشى مجرّد الاقتراب منها ، أو التفكير فيها ..

لذا فقد كانت المرات الوحيدة ، التى يتعكّر فيها صفو لقائنا ، أنا و (رأفت) ، بعد الشهور الأربعة الأولى ، هى تلك التى يشير فيها إلى رغبته فى خطبتى والزواج منى ..

لحظتها كنت أغضب ، وأثور عمدًا ، وأتوعّده بقطع علاقتنا نهائيًا ، لو عاد للحديث فى هذا الأمر ..

وفى كل مرة يغضب ، ويحاول إقناعى بأن الزواج هو سنة الحياة ، وهو النهاية الطبيعية لكل حب شريف نظيف ، وبأنه يحلم بتكوين بيت وأسرة ، وقضاء ما تبقّى له من العمر إلى جوار زوجة محبة وفية مخلصة ، ولكننى كنت أنهى الموقف بنفس الصرامة ، التى اعتدتها فى حياتى العملية ، وأصرّ على العودة إلى المنزل ، منهية بهذا النقاش على نحو حازم باتر ..

وفى كل مرة ، كان يقاطعنى لعدة أيام ، ثم يعاود الاتصال بى ، مدفوعًا بحبه وهيامه فأتظاهر بأن شيئًا لم يحدث ، ونعود للتواعد واللقاء لبضعة أيام أو أسابيع ..

ثم يتكرّر الحديث حول الخطبة والزواج ..

ويتكرّر منى رد الفعل نفسه ، وأنهى المناقشة فى صرامة وحزم ، وعودة إلى المنزل ..

كانت ثقتى شديدة بنفسى ، وبقدرتى على إدارة حياتى ، على النحو الذى أردته تمامًا ..

وكانت ثقتى بحبه لى أكبر ..

إنه غارق فى حبى حتى النخاع ، ولن ينصرف عنى قط ، مهما فعلت معه ، ومهما كانت الأسباب والمبررات ..

وفى بعض الليالى ، التى يعاندنى فيها النوم ، ويأبى زيارة

جفونى ، كان يدور بينى وبين نفسى حديث فى هذا الشأن :

ـ يا لك من مكابرة عنيدة ! ألا تخشين أن يملّك ، وينصرف عنك يومًا ؟!

ـ مستحيل ! إنه يحبنى من أعمق أعماقه .

ـ حتى الحب له حدود .

ـ إلا حبه لى .

ـ ولكن كل ما يطلبه هو زوجة وأسرة وبيت سعيد .

ـ لا .. كله إلا الزواج والأسرة .

ـ ولكن الزواج هو سنة الحياة .

ـ ليس بالنسبة لى .. إننى محط أنظار الجميع .. ما زلت الأفضل والأجمل ، والأكثر جاذبية وسحرًا .. الزواج سيفقدنى بريقى وتفوقى .

ـ وكذلك عدم الزواج .. ألا تخشين أن يأتى يوم ، تحملين فيه لقب (عانس) .

ـ إنه أفضل من لقب (مطلقة) .

ـ ومن تحدَّث عن الطلاق ؟!

ـ لو فشل الزواج ، فسيتحوّل حتمًا إلى طلاق .

ـ ولماذا يفشل ؟! (رأفت) يحبك .

ـ لا يمكننى أن أضمن حبه للأبد .

ـ لو حرصت على هذا ستظفرين به .

كنت أحاول استيعاب المنطق ، ثم لا ألبث أن أرفضه فى

عناد وإصرار ، وأقول لنفسى فى حزم :

ـ لا .. كله إلا الزواج .

لم أنتبه أيامها إلى أن الأمور كانت تتطوَّر بسرعة ، وأن إصرار (رأفت) على الزواج كان يتزايد أكثر وأكثر ، حتى أتى يوم أعدنا فيه مناقشة الأمر ، وطلبت كالمعتاد العودة إلى المنزل ، ففوجئت به ينفجر فى وجهى ، هاتفًا فى غضب عصبى :

ـ لماذا تتعاملين معى دائمًا وكأن الأمور والخيوط كلها بيديك وحدك ؟! لماذا تصرين على أن يدار كل شىء بأسلوبك ، ودون أدنى تنازلات أو مناقشة ؟! كل شىء يخضع لوجهة نظرك وحدها .. كل خطوة لا تروق لك تدفعك للغضب والثورة .. كلما حاولت التحدُّث عن زواجنا ، الذى أراه أمرًا طبيعيًا ، تتعاملين معى بكل الصرامة والصلف والعناد ، وتخيرينى بين الخضوع لرأيك أو الانفصال .. إنك تهينين رجولتى منذ تعارفنا ، وأنا أحتمل وأحتمل ، متصوِّرًا أنها مسألة وقت ، حتى تشعرى بالاطمئنان إلىَّ وبالأمان معى ، وعندئذ سيتغيَّر كل شىء ، ولكن الشهور تمضى وتمضى ، وعنادك وصرامتك يتضاعفان ، وصلفك وصرامتك فى التعامل معى يتزايدان .. إننى لم أعد أحتمل هذا يا (نجوى) .. لم أعد أحتمله أبدًا .

كان محقًا فى ثورته ، إلا أن تلك الطبيعة العنيدة ، التى حفرتها سنوات الكفاح فى وجدانى ، جعلتنى أرفض الاعتراف بهذا ، وأقول بنفس الصرامة والحدة :

ـ اسمع .. لو أنك تصرّ على موقفك هذا فـ ...

قاطعنى بثورة :

ـ فستعودين إلى المنزل .. أليس كذلك ؟! فليكن يا (نجوى) .. سأعيدك إليه .

لم نتبادل كلمة واحدة ، طوال طريق العودة ، وتركنى أمام منزلى ، وانصرف دون أن يلقى علىّ تحية الوداع ، وكانت أوّل مرة يفعل فيها هذا ، إلا أننى لم أشعر بقلق شديد لحظتها ..

كنت واثقة من أنها واحدة من ثوراته المعتادة ، وأنه سيقضى بضعة أيام فى غضب ومقاطعة ، ثم لن يلبث أن يعود ، لنستأنف علاقتنا كما أردتها تمامًا ..

الحب وحده ..

بلا خطبة ، أو زواج ..

ولم أدر لحظتها أن تقديرى فى هذه المرة لم يكن صحيحًا ..

لم يكن كذلك أبدًا .

* * *

٤ ـ يا قلب لا تنبض ..

شهر كامل مضى ، دون أن يتحدّث إلىّ (رأفت) مرة واحدة ..

شهر كامل لم تقع عينى عليه ، أو تسمع أذنى صوته ..

فى البداية تماسكت ، وقلت لنفسى إنها مسألة وقت ، ولن يلبث أن يعود كعادته ، إلا أن الأيام راحت تمرّ فى بطء ، وأنا أنتظر عودته فى لهفة ، تتضاعف وتشتعل أكثر وأكثر ، مع كل يوم يمضى ، حتى لم أعد أحتمل الانتظار ، وأصبح الأمل الوحيد فى حياتى هو أن أسمع صوته وأراه ، ولو لحظة واحدة ..

لم يعد باستطاعتى الاستمرار فى العمل بنفس الحماس ..

لم يعد باستطاعتى حتى العودة إلى المنزل ، وكأننى أخشى الرقاد فى فراشى ، حتى لا أتعذّب بليلة جديدة من ليالى السهر والسهاد ..

كلما انطلق رنين الهاتف أقفز إليه ، وأختطف سمّاعته فى لهفة ، وأتمنى من كل قلبى أن يأتينى صوته عبر الأسلاك ..

أن أسمع كلمة واحدة منه ..

كلمة من تلك الكلمات الرقيقة الحانية ، التى ظلّ يصبها فى أذنىّ طوال ما يقرب من عام كامل ، دون أن يتلقّى منى أدنى استجابة ..

أنا نفسى ما زلت أجهل ، لماذا لم أمنحه حبى وحنانى ، كما منحنى حبه وحنانه ؟!

لماذا ؟! لماذا ؟! لماذا ؟!

هل تحجَّرت مشاعرى ، وتحطَّمت فى أعماقى ، حتى لم يعد بإمكانها الصعود إلى السطح ؟!

لماذا أشعر بها ، وأعجز عن التعبير عنها ؟!

لابد أن السنوات الطوال ، التى سجنت عواطفى فيها خلف أسوار قلبى ، قد حوَّلت تلك الأسوار إلى صروح ضخمة ، صارت مشاعرى عاجزة عن تجاوزها ..

والمؤسف أن هذا لم يؤرقنى قط ، إلا فى تلك الأيام ..

بعد أن افتقدت (رأفت) .. وبشدة ..

كم كنت أتمنى الاتصال به ، والاعتذار عما بدر منى تجاهه ..

كم تمنيت أن أتحدَّث إليه ، وأرجوه أن يغفر لى ، ويفهم مشكلتى ، ويتعاون معى على حلها ..

تلك المشكلة التى تقف حاجزًا بينى وبينه ..

مشكلة الخوف من الزواج والارتباط ، والعودة إلى مسئوليات الأنوثة ، التى أرفضها وأخشاها منذ زمن طويل ..

ولكن شيئًا ما فى أعماقى منعنى من الاتصال به طويلاً ..

وفى كل يوم يمضى ، كان هذا الشىء يتضاءل ، وينزاح جانبًا ، مع لهفتى الشديدة لسماع صوته ، ومعرفة أخباره ..

وأخيرًا انهار ذلك الشىء ..

حبى له أزاح تردُّدى وخوفى ورفضى كله جانبًا ، وجعلنى أتصل به بكل لهفتى وحبى ، وأسأل والدته عنه بصوت لاهث من فرط الانفعال ..

وأتى جوابها ليخترق أذنىَّ وقلبى كسيف بتَّار ، غاص فى النيران إلى درجة الاحمرار ..

ـ لقد سافر (رأفت) ..

سافر ليعمل أستاذًا فى إحدى جامعات دول النفط ..

سافر دون أن يودِّعنى ، ولو بكلمات قليلة ..

وانهارت مشاعرى كلها فى أعماقى ، حتى خُيِّل إلىَّ أن قلبى قد توقَّف عن النبض ..

كيف فعلها ؟! كيف تخلَّى عنى ؟! كيف نسى حبنا الكبير ؟!

والعجيب أننى شعرت ببعض الغضب فى البداية ، ثم لم يلبث كل هذا الغضب أن تحوَّل إلى فيض من الندم ، استولى على كيانى كله ، وسرى فى عروقى كحمم ملتهبة ، تلتهم مشاعرى عن آخرها ..

وانتابتنى رغبة قوية عارمة فى البكاء ، رحت أقاومها فى شدة ، وكأن عقلى الباطن يرفض الاستسلام لها ؛ لأنها علامة من علامات الضعف ، التى جاهدت طوال عمرى للتغلب عليها وتحاشيها ..

ثم فجأة ، صرخ قلبى : ولِمَ لا ؟!

ما عيب البكاء والضعف ؟!

كلنا بشر .. كلنا ضعفاء .. كلنا يحتاج بعضنا إلى البعض ..
وفى تلك اللحظة ، شعرت بحاجتى الشديدة إليه ..
أريده إلى جوارى ..
أريده صديقًا ، وحبيبًا ، و .... وزوجًا ..
نعم .. الآن أتمنى أن أتزوَّجه ، وأقضى عمرى كله إلى جواره ..
ولست أدرى ماذا أفعل لاستعادته ..
إنه لم يتصل بى مرة واحدةً منذ سفره ..
ولكننى سأفعلها أنا هذه المرة ..
سأرسل إليه خطابًا طويلاً ، يحوى اعترافى هذا ، وسأرجوه أن يغفرلى كل ما فعلته معه ، وأن يعود إلىَّ ، أو يدعونى حتى للذهاب إليه ..
وسأخبره أننى سأترك العالم كله من أجله .. من أجله وحده ..
وأنا واثقة من أنه سيغفر ، وسيعود ؛ لأنه يحبنى كما أحبه ..
هل تعتقدون أننى على حق فى ثقتى هذه ؟!
هل ؟!

* * *

[تمت بحمد الله]

كوكتيل ٢٠٠٠
روايات مصرية للجيب

أحلام زمان
(خواطر)

أحلام زمان ..

(خواطر)

لست أدرى بالضبط متى بدأ ذلك الحلم ، ونما فى أعماقى ..

ربما فى أوائل السبعينات ، عندما بدأت أولى سنوات المرحلة الثانوية ، والتحقت بجماعة الصحافة ، والتصوير ، والتمثيل المسرحى فى مدرسة الرافعى الثانوية بطنطا ..

فى تلك الفترة ، تفتح عقلى ، وتفتحت شهيتى للأدب والفن ، على نحو لم يكن له مثيل ، فى حياتى كلها من قبل ..

صحيح أننى تحولت ، منذ المرحلة الإعدادية ، إلى ما يطلق عليه اسم (دودة الكتب) ، حيث كنت ألتهم ، وبمنتهى الشغف ، كل قصة أو رواية تقع عليها يدى ، وأحشو عقلى بمؤلفات (تشارلز ديكنز) ، و (دوستويفسكى) ، و (عبد الحميد جوده السحار) ، و(إحسان عبد القدوس) ، و (أنيس منصور) ، و(آرثر كونان دويل) ، و (جولى فيرن) ، و(هـ . ج . ويلز) ، وغيرهم ، إلا أن مرحلة الانطلاق ، فى المرحلة الثانوية ، كانت تختلف كثيرًا ..

فبعد كل ما رأيته ، وقرأته ، وسمعته ، كنت أحلم ببدء مرحلة الإنتاج ..

المرحلة التى يمكننى فيها إفراز خلاصة ما احتواه عقلى ، طوال السنوات الماضية ..

وعلى الرغم من كل ما قدمته لجماعة الصحافة ، والتمثيل المسرحى ، وما تعلمته فى جماعة التصوير الضوئى كنت

أشعر أننى لم أقدم بعد ما أحلم به ..

ومنذ تلك الفترة ، بدأ الحلم ..

حلم إصدار (كوكتيل ٢٠٠٠) ..

ولم يكن حلمًا مكتملاً ناضجًا ، أو يشبه حتى تلك الصورة ، التى صدرت عليها (كوكتيل ٢٠٠٠) ، ولكنه كان البداية ..

وفى حجرتى الصغيرة ، رحت أضع الخطوط الأولى لمجلة وهمية ، ووضعت على غلافها اسم (كوكتيل) ..

مجلة ، كانت تحوى ، من وجهة نظرى فى ذلك الحين ، مجموعة من القصص المصورة ، فى مختلف المجالات ..

القصص البوليسى ..

والحركى ..

والاجتماعى ..

والخيال العلمى ..

وحتى المعلومة ، والمقال ، والطرفة ، والكاريكاتير ..

وطوال السنوات التالية ، وحتى أعوامى الجامعية الأولى ، أخذ درج مكتبى يمتلئ بأغلفة وصفحات من أعداد مجلة (كوكتيل) ، التى لا يقرؤها سواى ، أنا ومجموعة محدودة للغاية من أصدقائى ، الذين كانوا ينتقدونها فى جدية واهتمام ، وكأنها مجلة حقيقية ، تصدر بصورة دورية ، مما شجعنى على الاستمرار فى كتابتها ، وتحريرها ، ووضع رسومها أيضًا لفترة طويلة ...

حتى جاءت مرحلة (البكالوريوس) ..

فى تلك المرحلة الشاقة العنيفة ، كما كانت عليه فى النظام القديم لكليات الطب ، كان من الطبيعى أن تتراجع الأحلام ،

ويتوقَّف الإصدار الشخصى المحدود لـ (كوكتيل) ، التى استقرَّت أعدادها فى درج المكتب لسنوات وسنوات ..

وبالتحديد ، لثمان سنوات كاملة ..

ثمان سنوات ، أنهيت خلالها دراستى الجامعية ، وحصلت على بكالوريوس الطب والجراحة ، من جامعة طنطا ، وأنهيت سنة الامتياز ، ثم عامين من التكليف الإجبارى ، فى قرية من قرى الجبل ، فى محافظة (قنا) ، كانت لى فيها أحداث ومغامرات ، تستحق كتابًا كاملاً فى المستقبل ، وبعدها عدت للعمل كطبيب مقيم فى طنطا ..

وخلال تلك الفترة ، أعلنت المؤسسة العربية الحديثة عن مسابقة خاصة ، لاختيار كاتب شاب لأدب الخيال العلمى ..

وبالمصادفة البحتة ، اشتركت فى هذه المسابقة ..

بل وكانت روايتى (أشعة الموت) ، هى آخر رواية وصلت للمؤسسة ، فى آخر ساعة ، من آخر أيام المسابقة ..

والعجيب أنها وجدت صداها عند الناشر الأديب الأستاذ (حمدى مصطفى) ..

ولأن العمل يسير ـ عادة ـ بسرعة كبيرة ، فى مؤسسات القطاع الخاص ، فقد تلقيت خطابًا من المؤسسة ، بعد أسبوع واحد من استلامها روايتى ، للحضور إليها ، والتعاقد بشأن القصة التى أرسلتها ..

وفى الثامن من أغسطس ، عام ١٩٨٤م ، بدأت مرحلة جديدة من حياتى ..

مرحلة احتراف الأدب ..

وصدرت روايات (ملف المستقبل) ..

و (رجل المستحيل) ..

و (ع × ٢) ..

و (زهور) ..

كل هذا ، والحلم مازال يرقد فى أعماقى ، ويداعب خيالى ومشاعرى ، بين الحين والآخر ..

حلم إصدار المجلة الشاملة المتنوِّعة ، التى تحمل اسم (كوكتيل) ..

ولكن الحلم تطوَّر مع الزمن ، والخبرة ، والعمر ..

لم يعد الإصدار فى صورة مجلة ..

وإنما فى شكل كتاب ..

كتاب شامل ، يحوى بين غلافيه مجموعة متنوِّعة من الأعمال ، فى مختلف المجالات والاتجاهات ..

من القصة القصيرة ، إلى الرواية الطويلة ..

ومن الأدب الاجتماعى ، إلى الخيال العلمى ..

كوكتيل من مختلف ألوان الفن والأدب والمعلومات ..

وذات ليلة ، عجزت أعماقى عن كبت الحلم لأكثر من هذا ، فنهضت إلى مكتبى ، وأخرجت أوراقى ، وقلمى الخاص ، وزجاجة الحبر الأسود ، الذى أصرَّ على استخدامه دون سواه ، منذ بدأت الكتابة ، ورحت أخطّ الكتاب الأوَّل من سلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠) ..

وراح الحلم يتحوَّل إلى حقيقة ..

إلى واقع ..

وإلى حروف ..
وكلمات ..
وصفحات ..
ولم يمض أسبوع واحد ، حتى كنت أحمل ذلك الكتاب ، وأقدمه للأستاذ (حمدى مصطفى) ، مع ملخص للفكرة ، ودراسة مختصرة حول السلسلة الجديدة ..
وقرأ الأستاذ (حمدى) الكتاب ..
لم يقرأه بعين وعقل الناشر فحسب ، وإنما بأعماق وخيال أديب ..
وبتوفيق الله (سبحانه وتعالى) ، انتقل كل حماسى إليه ..
وفى مكتبه ، فى المطبعة العربية الحديثة ، رحنا نناقش هذه السلسلة الجديدة ، ونضع اللمسات الأخيرة لها ..
واختفت أبواب وشخصيات ..
ووُلدت أبواب وشخصيات أخرى ..
وتحوّل المسار تارة إلى اليمين ، وتارة إلى اليسار ..
وأخيرًا ، اكتمل الكتاب الأوّل من (كوكتيل ٢٠٠٠) ..
وانتقل إلى يد الأستاذ (إسماعيل دياب) فنان المؤسسة ، وصاحب أجمل الأغلفة ، فى سلاسل (روايات مصرية للجيب) ..
ولم أصدّق نفسى ، عندما أمسكت بين أصابعى حلم الصبا ..
الكتاب الأوّل من (كوكتيل ٢٠٠٠) ..
كم من الجميل أن يتحوّل الحلم إلى حقيقة ..
كم من الممتع أن تمسك أحلامك بيديك ..
بعقلك ..
بكيانك كله ..

وعلى الرغم من سعادتى الغامرة ، وضعت يدى على قلبى ، كما يقولون فى التعبير الشائع ، فى انتظار رد الفعل ..
ترى كيف يستقبل القارئ المصرى والعربى هذه السلسلة الجديدة ؟!
كيف يتعامل معها ؟!
كيف ؟!
كيف ؟!
وجاءت النتيجة تثلج صدرى ، وتملأ قلبى بالبهجة والحماس ..
لقد نجحت (كوكتيل ٢٠٠٠) ..
وعلى نحو واضح ملموس ..
وبهذا فقط ، صار الحلم حقيقة ..
والآن ، وفى كل ندوة ، يسألنى أحد الحاضرين : ما أحب سلسلة من السلاسل التى تكتبها إلى قلبك ؟!
وبلا تردّد ، يكون جوابى إنها (كوكتيل ٢٠٠٠) ..
ودائمًا ما أرى الدهشة على الوجوه ، عندما يسمع الجميع جوابى ..
ربما لأن أكثر ما أكتبه شهرة ، هو سلسلتى (رجل المستحيل) و(ملف المستقبل) ..
ربما ..
ولكن الشىء الذى لا يعلمه الجميع ، هو أننى أحب سلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠) ، وأذوب فى هواها ، وأحرص أشدّ الحرص على جودة وقوة كل ما يصدر فيها ، لأنها جزء من الأحلام ..
أحلام زمان ..

د. نبيل فاروق

هذه الكائنات العجيبة

(دراسة)

مالت الشمس إلى المغيب ، خلف مياه المحيط الأطلنطى ، الممتدّة إلى ما لا نهاية ، أمام تلك السفينة من سفن البحرية الأمريكية ، فى منتصف عام ١٩٧٦م ، وانهمك بعض بحارتها

فى محاولة جذب مرساتها ، استعدادًا للعودة إلى الشاطئ الأمريكى ، الذى يبعد عدة مئات من الأميال البحرية ، وشعر الضابط المسئول أن الرجال قد استغرقوا وقتًا أطول مما ينبغى ، فهتف بهم فى صرامة :

ـ ماذا دهاكم ؟! الأمر لا يستغرق فى المعتاد كل هذا الوقت ؟!

مسح رئيس البحارة عرقه الغزير ، وهو يشير إليه ، قائلاً :

ـ الرجال يبذلون قصارى جهدهم أيها الضابط ، ولكن هناك شيئًا يعوق المرساة .

انتقل إليهم الضابط ، وطلب عددًا آخر من الرجال لمعاونتهم ، وراح الجميع يبذلون جهدًا مضاعفًا لجذب المرساة ، وهم يتساءلون فى دهشة وقلق ، عن ذلك الشىء الذى تعلّق بها ، و ...

وفجأة ، وقع بصرهم على ذلك الشىء ، المتعلّق بالمرساة .. وانطلقت من حلقهم شهقات قوية ..

لقد رأوا أمامهم كائنًا بحريًا متوحشًا ، يبلغ طوله أكثر من أربعة أمتار ونصف ، ويزن حوالى ثلاثة أرباع الطن ، له فم هائل ، به سبعة صفوف من الأسنان الشبيهة بالمسامير ، اشتبكت مع المرساة ، وسبّبت لهم كل هذا الاضطراب ..

وعلى الرغم من دهشتهم وخوفهم ، عاد الرجال بذلك الكائن إلى الشاطئ ، وسلموه للعلماء لفحصه ، وتحديد نوعه وفصيلته ..

ولكن العلماء كانوا أكثر اضطرابًا وانزعاجًا ودهشة منهم ..

فذلك الكائن ، الذين انكبوا على فحصه لفترة طويلة ، لم يكن ينتمى إلى أى نوع أو فصيلة معروفة ، فى علم الكائنات البحرية ..

لقد كان كائنًا عجيبًا جديدًا ، أطلقوا عليه اسم (ميجا ماوث) أو الفم العملاق ..

وربما كان مرجع اهتمام علماء البحرية الأمريكية الشهير بهذا الكائن ، هو حيرتهم أمام لغز سابق ، واجه الفرقاطة البحرية (شتاين) ، منذ عدة أشهر ماضية ..

فلقد أبحرت تلك الفرقاطة الحربية من (سان دييجو) فى (كاليفورنيا) ، فى رحلة للكشف عن أية غواصات معادية ، عبر المياه الاستوائية ، فى جنوب (أمريكا) ، وبعد عبورها خط الاستواء بقليل ، شعرت بشىء ما يرتطم بقاعها فى عنف ..

ثم تعطلت أجهزة الإنذار الصوتى فجأة ..

ولأن هذه الأجهزة هى أساس المهمة ، ولأن الرجال قد عجزوا عن إصلاحها تمامًا ، أو تحديد سبب ذلك الاصطدام

العجيب ، فقد اتخذ القبطان قراره بالعودة إلى (كاليفورنيا) لفشل المهمة ..

وهناك ، وفى الحوض الجاف ، فى ترسانة القوات البحرية ، كانت أمام الجميع مفاجأة عجيبة مدهشة ..

لقد عثروا على عشرات الحفر فى القاع ، وبعضها يحوى عددًا من الأسنان الشبيهة بالمسامير ..

وكانت المساحة التى انتشرت فيها هذه الحفر هائلة ، على نحو يوحى بأن صاحبها حيوان بحرى عملاق ، لا مثيل له بين الكائنات البحرية المعروفة ..

وعلى الرغم من غرابة هذه القصة ، التى أوردتها المراجع البحرية الرسمية ، إلا أنها ليست أوّل أو آخر مواجهة للبشر ، مع كائنات عجيبة ، لم يتمّ تصنيفها من قبل ، على الرغم مما بلغه علم الأحياء المائية وعلم الحيوان ، من تقدّم مدهش ، فى القرن العشرين ..

ففى المراجع والكتب القديمة ، التى يعود تاريخها إلى عدة قرون مضت ، سنجد الكثير والكثير من القصص والروايات ، التى تتحدّث عن وحوش بحرية عجيبة ، بعضها يعرفه العلم الحديث ، والبعض الآخر مازال مجهولاً حتى يومنا هذا ..

ولعلّ أشهر الوحوش البحرية ، التى تحدّثت عنها كل الكتب القديمة تقريبًا ، هو الأخطبوط ، أو الحبّار ، وهو ذلك الكائن ، الذى تعرّفه الموسوعات الحديثة بأنه حيوان رخوى رأسى

قدمى ، يوجد فى البحار الدافئة ، عديم الصدفة ، كيسى الشكل ، له ثمانية أذرع ، لعابه سام ، وفى حالة الخطر ، يفرز مادة تشبه الحبر ، تنتشر فيما حوله ، فتخفيه عن الأنظار تمامًا ..

هذا ما يقوله العلم ـ باختصار ـ عن الحبَّار ، ولكن ما يقوله التاريخ والبحارة يختلف كثيرًا ..

ففى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وبينما كانت إحدى السفن الحربية بالقرب من جزر (مالديف) بالمحيط الهادى ، كان الجندى (ستاركى) يستند إلى حاجز السفينة ، متطلعًا إلى المياه ، عندما انتبه فجأة إلى دائرة خضراء ضخمة ، بدت وكأنها تحدق فيه مباشرة ، وارتجف جسده كله فى عنف ، عندما تبيَّن فيها عين حبَّار هائل ، يستلقى بمحاذاة السفينة فى استرخاء ، ومجسَّاته تلتصق بها نسبيًا ، وفمه الشبيه بمنقار ببغاء ضخم يبدو واضحًا للغاية ..

ومع شهقة (ستاركى) ، انضمَ إليه عدد من زملائه ، وراح الجميع يتطلَّعون إلى الحبَّار ، الذى امتدَ بجوار السفينة لمسافة ثمانية وخمسين مترًا كاملة !!

وفى مرة أخرى ، عام ١٩٦٦م ، شاهد ضباط وبحارة السفينة (سان باولو) معركة عنيفة ، على قيد مائة متر فحسب منهم ، بين حبَّار هائل ، وحوت ضخم من حيتان العنبر ، انتهت بغوص الاثنين إلى الأعماق ..

أما فى الثلاثينات ، فقد انقضَ حبَّار عملاق على السفينة

(بيرل) ، التى تزيد حمولتها على مائة وخمسين طنًا ، ولفَّ مجسَّاته الضخمة حولها ، ثم جذبها بما عليها ومن عليها إلى الأعماق ، أمام الأعين المذعورة لبحارة السفينة (ستراتوين) ، التى كانت تبعد عنها آنذاك ، ستين مترًا فحسب ..

ولكن الأخطبوط ليس الكائن البحرى الوحيد ، الذى يثير قلق وخوف البحارة ، فهناك أيضًا ثعبان البحر العملاق ..

وذلك الثعبان يعدَ واحدًا من أكثر الوحوش البحرية غموضًا ، إذ إنه وحتى النصف الثانى من القرن العشرين ، لم تكن هناك صورة واحدة لذلك الثعبان البحرى ، الذى تصفه المراجع القديمة بأنه يبلغ من الطول ما بين خمسة عشر ، وثمانية عشر مترًا ، وله رأس شبيه برأس الحصان ، وظهر محدَّب ، وذيل ضخم طويل ..

وكل المشاهدات التى تم رصدها لثعبان البحر العملاق ، تؤكِّد أنه يسبح بسرعة مدهشة ، تكاد تبلغ اثنى عشر ميلاً بحريًا فى الساعة ، حسبما جاء فى تقرير القبطان (بيترماكوهى) ، قائد الفرقاطة البريطانية (ديدالاس) ، عام ١٨٤٨م ، كما أنه أسود اللون ، له أنفاس قوية مسموعة ، طبقًا لشهادة (تيكس جيديس) ، عام ١٩٥٩م ، الذى وصفه بأنه أشبه بوحش مخيف ، من وحوش ما قبل التاريخ ..

وإذا كان الثعبان البحرى العملاق غامضًا ، فالوحش المعروف باسم (كادبروسورس) ، والذى يظهر بصفة شبه منتظمة ،

أمام ساحل (فانكوفر) الكندى ، وحش هادئ مدلَّل ورصين للغاية ، إذ إنه لا يحاول الاختفاء ، أو الابتعاد عن السفن الحربية ، وإنما يتطلَّع إليها فى كسل وبلادة ، حتى تبتعد عنه ، وهذا ما قاله كابتن (بول سوازبى) عام ١٩٣٩م ، عندما وصف الوحش بأنه ضخم الجثة ، يغطيه فراء كثيف ، أشبه بالدب القطبى ، ولا يقل طوله عن اثنى عشر مترًا ..

وعلى شاطئ نهر (كلايد) فى (اسكتلندا) ، استقرَّت جثة كائن آخر هائل الحجم ، يغطى جسده أيضًا فراء كثيف ، وله رأس صغير ، مقارنة بجسمه ، وذيل وعنق طويلان ..

ولقد كان لحم ذلك الكائن قاسيًا ، حتى إن الرجال اضطروا لاستخدام الفئوس لتقطيعه ، بعد عجزهم عن تحريكه ، مع وزنه الذى يبلغ ثلاثة أطنان دفعة واحدة ..

أما أكثر الوحوش المائية شهرة على الإطلاق ، فهو ذلك المعروف باسم (وحش لوخ نيس) ..

و (لوخ نيس) هذه بحيرة شهيرة فى شمال (اسكتلندا) ، حصلت على شهرتها كلها ـ تقريبًا ـ من الوحش ، الذى ضرب رقمًا قياسيًا فى عدد مشاهديه ، الذى بلغ ـ حتى لحظة كتابة هذه السطور ـ ما يزيد على خمسة آلاف شخص ، وبلغت عدد الصور التى تم التقاطها له أكثر من ألفى صورة ، لم يعترف العلماء والخبراء بصحة أكثر من أربع وثلاثين صورة منها ..

ولقد أفردت دائرة المعارف البريطانية ، فى ملحقها عن

العلوم والمستقبل ، دراسة خاصة عن وحش بحيرة (نيس) ، قام بها (جورج زاج) ، رئيس وأمين قسم الزواحف والبرمائيات ، فى متحف التاريخ الطبيعى البريطانى ، وهى دراسة تطرح أمر الوحش بشكل علمى رسمى معتمد ..

وأفضل صورة تم التقاطها للوحش ، هى تلك التى نشرتها جريدة الديلى ميل اللندنية ، فى مايو ١٩٣٤م ، والتى التقطها الكولونيل طبيب (روبرت ويلسون) ، وفيها يبدو الوحش أشبه بأحد الديناصورات النباتية ، من عصور ما قبل التاريخ ..

وعلى الرغم من الشهرة الفائقة لوحش (لوخ نيس) الأسطورى ، إلا أنه ليس وحش البحيرات الوحيد ، الذى يثير جدل واهتمام العلماء ، فهناك أيضًا (أوجو بوجو) ، وحش بحيرة (أوكاناجان) الكندية ، الذى يتخذ شكل ثعبان ، طوله مائة وثمانية وعشرون مترًا ، و (ماينبوجو) ، وحش بحيرة (وينيجوسيس) ، صاحب الثلاث حدبات ، والرأس المفلطح ، والذى اعترف العلماء بوجوده ، عام ١٩٦٣م ..

وأمر الكائنات العجيبة لا يقتصر قط على عالم الماء ..

إنه ينتشر فى اليابسة أيضًا ..

ففى القارة السوداء (إفريقيا) ، أوقع الصيادون فى شباكهم حيوانًا مفترسًا ضخمًا ، لا هو بالنمر ، ولا هو بالأسد ، فى عام ١٩٤١م ، وأطلقوا عليه اسم (ناندا) ..

وأكثر ما أثار الاهتمام والحيرة فى (ناندا) هذا ، هو أن

تركيبه ، الأكثر شبهًا بالنمر ، لم يكن له مثيل فى القارة كلها ، إذ إن النمر ، كما قد لا يعرف الجميع ، حيوان استوائى ، وليس إفريقيًا كالأسد ..

ولقد فحص العلماء (ناتدا) ، ولكنهم عجزوا عن الاحتفاظ بجثته للأسف ، ولقد أبدوا حيرتهم حينذاك ، من وجود ذلك التركيب المدهش ، الذى يجمع بين صفات النمر والأسد معًا ، خاصة وأن علم هندسة الجينات لم يكن حتى مجرَّد فكرة فى الأذهان ، فى ذلك الحين ..

وحتى بعد معرفتنا به ، سنجد أنفسنا أمام لغز (ناتدا) ، الذى قد يحمل تفسيره لغزًا أكثر صعوبة ..

وفى (الكونغو) أيضًا يواجه العلماء والصيادون لغزًا من ألغاز تلك الحيوانات الغريبة العجيبة ..

لغز الفيل القزم ..

والفيل القزم هذا فيل مكتمل النمو ، ولكن طوله لا يزيد على المتر ونصف المتر ، ولا يزيد طول أنيابه على ستة وستين سنتيمترًا ..

ولقد ظلَّ الفيل القزم مجرَّد أسطورة ، حتى أثار اهتمام الملازم البلجيكى (فرانسيس) ، الذى استعان بعدد من أبناء القبائل المحلية ، فى حملة للبحث عنه ، عام ١٩٣٧م ، وأمكنه العودة بعد عدة أشهر ، مع جلد الفيل القزم وأنيابه ، إلا أنه أصيب بحمى غامضة ، ومات فى قلب الغابات الإفريقية ، قبل

أن يعود إلى وطنه ليعلن كشفه المثير ..

و(إفريقيا) أيضًا بها ذلك الحيوان المعروف باسم (أوكابى) ، والذى يبدو كخليط من الزرافة والحمار الوحشى ..

وتلك الحيوانات المختلطة العجيبة فى (إفريقيا) ، تدفع خيالنا للجموح ، ولتصوّر حدوث عدد من تجارب هندسة الوراثة ، فى هذه القارة ، فى (زمن) ما ؟!..

ومن (إفريقيا) إلى (آسيا) ، ننتقل إلى ما سجَّله الجنرال الروسى (ميخائيل استيفانوفتش توبيلكس) ، فى تقريره العسكرى عام ١٩٢٥م ، عندما كان يلاحق فلول قوات الجيش الأبيض وسط الجليد ..

فلقد كتب الجنرال (توبيلكس) أن رجاله لمحوا حركة عند أحد الكهوف ، فأطلقوا النار تجاهها على الفور ، متصورين أنها لبعض جنود الجيش الأبيض ، ولكنهم فوجئوا بأنهم قد قتلوا كائنًا عجيبًا ، لم ير أحدهم مثله من قبل ..

كائنًا أشبه بالبشر ، من حيث القامة ، وملامح الوجه ، وتناسق الأعضاء ، ولكن جسده كله مغطى بالشعر كالقرود ..

باختصار ، كان يبدو أشبه بحلقة وصل ، بين الإنسان والقرد ..

وربما كان هذا الكائن هو الصورة الفعلية لما أطلق عليه العلماء فيما بعد اسم (إنسان الجليد البغيض) ، أو (القدم الكبيرة) ، وهو كائن شبيه بالبشر ، يعيش فى الأماكن الجليدية ، التى يصعب على البشر ارتيادها ، مثل جبال

(الهيمالايا) ، وجبال (جورجيا) الروسية ، وشمال وغرب (أمريكا) و(كندا) ..

وهناك مشاهدات عديدة لرجل الجليد هذا ، أو كما يطلق عليه السكان المحليون اسم (ييتى) ، وآخر هذه المشاهدات ما سجلته بعثة بريطانية بقيادة (جون إدواردز) ، عام ١٩٧٩م ، فى جبال (الهيمالايا) ، وعلى ارتفاع أكثر من أربعة آلاف وخمسمائة متر ..

فهناك ، على القمة ، رصد رجال البعثة آثار أقدام كبيرة على الجليد ، وسمعوا نداءات مخيفة ، وصرخات قوية ، تجمع بين أصوات البشر والحيوانات ..

ولقد سجَّلت البعثة البريطانية طول آثار أحد الأقدام ، والذى بلغ ستة وثلاثين سنتيمترًا بالتمام والكمال ..

وطبقًا لتقديرات العلماء ، فهذا يعنى أن طول (ييتى) يتجاوز المترين وربع المتر على الأقل ..

والسؤال الحقيقى هو : هل يعتبر (ييتى) هذا كائنًا غامضًا ، أم أنه مجرَّد تطوّر طبيعى لنوع من قرود المناطق الجليدية ؟!

ولكن هذا السؤال ، وأسئلة كثيرة غيره ، ستظل طويلاً بلا أجوبة شافية ، وسيظلّ العلماء يلهثون بحثًا عن تلك الأجوبة ..

وعندما يتوصلون إليها ، ستظهر أمامهم كائنات أخرى ، وأخرى ..

فقط لتدرك أننا لم نؤت بالفعل إلا القليل من العلم ..

والقليل جدًّا .

★ ★ ★

هذه القصة لم تحدث من قبل ..

أو ربما حدثت ..

أو أن بعضها حدث ، وبعضها لم يحدث ..

ضعها فى عقلك حسبما يتراءى لك ..

ولكن المهم أنها تحمل توقيع الوطن ..

توقيع (مصر) ..

د. نبيل فاروق

عملية (تل أبيب)

ملخص ما سبق نشره

نجح عميل للمخابرات المصرية فى الحصول على صور واضحة ، للشفرة المستخدمة فى سلاح الطيران الإسرائيلى ، من قلب الملفات السرّية ، فى مطار (تل أبيب) الحربى ، ولكن أمره انكشف ، قبل أن يغادر المكان ، وطارده الإسرائيليون فى استماتة ، فما كان منه إلا أن أخفى الميكروفيلم فى قائم الطائرة (ف ـ ٢١٠) ، قبل أن يفقد الوعى ، ثم يلقى مصرعه فيما بعد ..

وأصبح من الضرورى أن تسعى المخابرات المصرية ؛ لاستعادة ذلك الميكروفيلم ..

وبأى ثمن ..

لذا ، فقد تم إسناد المهمة لأحد أمهر رجالها ..

(فاى) ..

وفى قلب الليل ، حملت هليوكوبتر حربية مصرية (فاى) ، إلى قلب (سيناء) .

ومن هناك ، بدأت مهمته ..

وبدأت بمشكلة عنيفة ..

لقد انحرف العريفان الإسرائيليان (يهو) و (دافيد) عن

المسار المقرَّر لدوريتهما الليلية المنتظمة ، وتوقَّفا عند نفس المنطقة ، التى هبط فيها (فاى) ..

وكان من الطبيعى أن تشتعل نيران الخطر ..

وبكل القوة والحزم ، اشتبك الشاب مع الإسرائيليين ، وأفقد أحدهما وعيه ، فى حين شقَّ خنجر البدوى (صالح) الهواء ، لينتزع روح الثانى ..

وفى نفس الوقت ، كان (بيجال يائيل) ، رجل (الموساد) ، المسئول عن أمن المطار الحربى يدرس كل الظروف ، ويبذل قصارى جهده للبحث عن الميكروفيلم ، الذى أخفاه العميل المصرى ..

وبينما انهمك (بيجال) فى عمله ، كان (فاى) يتحوَّل إلى هيئة بدوية ، حاملاً اسم (بسَّام) ليحمله البدوى (صالح) إلى (القصيمة) ، و ..

ولكن فجأة ، هاجمتهما هليوكوبتر حربية إسرائيلية ..

وكانت مواجهة قوية ..

عنيفة ..

دموية ..

ولكن الشاب قاتل فى بسالة .

وانتصر ..

وعندما تخلَّص من خصومه ، وسيطر على الهليوكوبتر ، كانت فى انتظاره مفاجأة جديدة .

ومواجهة جديدة ..

ثلاث طائرات هليوكوبتر حربية ، فى سماء (سيناء) .

ومرة أخرى ، اشتعل الجحيم ..

ومع تطوُّر الأمور ، صار على (فاى) أن يواجه ـ بالإضافة إلى طائرات الهليوكوبتر الثلاث ـ ست سيارات ، (جيب) عسكرية إسرائيلية ..

باختصار ، صار عليه أن يواجه جيشًا محدودًا من الإسرائيليين . فى قلب (سيناء) ..

ودون الدخول فى تفصيلات طويلة معقَّدة ، يمكننا أن نقول : إن الشاب قد تجاوز تلك المحنة ..

وعلى نحو مبهر ..

ولأن المواجهة قد انتهت باصطدام عنيف ، بين الهليوكوبتر التى يقودها ، وأخرى إسرائيلية ، فقد تصوَّر الإسرائيليون أنه قد لقى مصرعه ، لولا أن وصل رجل المخابرات (بيجال يائيل) إلى الموقع ، وكشف من الآثار على الرمال أن الشاب مازال على قيد الحياة ..

واستمرت المطاردة ..

واتباعًا للخطة البديلة ، ذهب الشاب إلى منزل (صالح) فى (القصيمة) ، وهو يكاد يفقد وعيه ، من فرط الإرهاق والتعب ، فدعاه (صالح) إلى النوم قليلاً ، قبل أن تبدأ رحلتهم إلى (بئر سبع) ومنها إلى (تل أبيب) ، لتنفيذ المهمة ..

ولكن الإسرائيليين حاصروا (القصيمة) ، وراحوا يفتشون منازلها بحثًا عنه ..

وكانت مواجهة جديدة ، فى منزل البدوى (صالح) ..

مواجهة انتهت بمطاردة جديدة ..

لقد انطلق الشاب بسيارة (جيب) إسرائيلية ، وخلفه سيارتان أخريان ، واحدة يقودها (بيجال) بنفسه ، والأخرى بها أربعة من أشد الجنود ، وأكثرهم حنكة وبراعة ومهارة ..

ولم يدخر (بيجال) وسعًا ..

لقد أطلق خلف الشاب مساعده (زلفى) ، فى هليوكوبتر حربية ، وطلب من الجنرال (عامير) اعتراض طريقه بدبابتين من فرقته .

وكان هذا يعنى أن المطاردة قد تحولت إلى حملة صيد فى قلب (سيناء) ..

حملة احتشدت لها كل القوى ، من أجل فريسة واحدة ..

فريسة تحمل اسمًا فريدًا فى عالم الأحياء ..

اسم (فاى) ..

★ ★ ★

٨ ـ مقاتل .. وجيش ..

ارتفعت الشمس من خلف جبال (سيناء) ، وغمرت الصحراء ، الممتدّة إلى مدى البصر ، بأشعتها الذهبية ، التى انعكست على الرمال ، وعلى سطح الدبابتين ، اللتين انطلقتا من معسكر الجنرال (عامير) ، لاعتراض طريق (فاى) ، ووضع قائد إحداهما منظاره المقرّب على عينيه ، وهو يقول :

ـ لا يوجد أثر لذلك الجاسوس على مدى البصر .. أجر اتصالاً آخر برجل (الموساد) ، وسله : أهو واثق من أن الجاسوس ينطلق نحونا مباشرة .

أجابه أحد رجاله من طاقم الدبّابة :

ـ سمعًا وطاعة يا سيِّدى .

وأجرى اتصاله بسرعة ، مع (بيجال) ، الذى هتف فى عصبية :

ـ ماذا تقول يا هذا ؟! إنه يتجه نحوكم بالتأكيد .. ها هوذا ، على بعد كيلومتر واحد منا .. إننى أراه فى وضوح ، على الرغم من عاصفة الرمال العاتية ، التى تثيرها سيارته ، مع السرعة الرهيبة ، التى ينطلق بها على رمال (سيناء) .

ثم أضاف فى حنق :

ـ لست أدرى كيف اكتسب تلك المهارة ، ولا كيف يحتفظ بتوازن السيارة ، مع هذه السرعة المخيفة .

أشار قائد الطاقم إلى الرجل ، وقال :

ـ فليكن .. أخبره أننا سنواصل طريقنا ، حتى نلتقى به ، و ..

بتر عبارته فجأة ، وهو يشرئب بعنقه ، هاتفًا :

ـ ها هوذا .. إننى ألمحه الآن .

نقل رجل الاتصال هذا إلى (يائيل) ، الذى هتف بدوره فى انفعال :

ـ عظيم .. اتسفه يا رجل .. اتسفه بلا تردُّد .

ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتى قائد طاقم الدبَّابة ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد يا رجل .. سننسفه نسفًا ، ونبعثر أشلاءه فوق الرمال ، بحيث لا تجد الفئران أنفسها ما يكفيها من بقاياه ..

وأشار إلى أفراد طاقمه ، مستطردًا فى صرامة :

ـ حدِّد الهدف .

أدار الرجال مدفع الدبَّابة ، وقال أحدهم :

ـ تم تحديد الهدف والتصويب عليه .

تطلَّع الرجل لحظة أخرى إلى سيارة (فاى) ، عبر منظاره المقرَّب ، ثم أشار بسبَّابته ، قائلاً فىْ حزم مقتضب :

ـ اضرب .

ومع إشارته ، جذب جندى المدفع ذراع الإطلاق ..

وانطلقت القنبلة ..

نحو الهدف مباشرة ..

نحو (فاى) ..

★ ★ ★

انطلق (بيجال) ليطارد الشاب ، تاركًا اثنين من جنوده خلفه ؛ لإلقاء القبض على (صالح) وشقيقه ..

ولم يكن من الطبيعى أو المنطقى ، أن يستسلم البدويان بهذه البساطة ، فقد انكشف أمرهما ، ولم يعد لديهما ما يخسرانه ..

لذا ، فقد وثب (صالح) يستلّ خنجره ، ويغمده حتى مقبضه ، فى صدر أحد الجنديين ، فوثب الثانى متراجعًا فى خفة ، وهو يصرخ :

ـ قتلتما زميلى أيها البدويان .. إنكما تستحقان القتل ..

ورفع مدفعه فى وجهيهما ، و ..

ودوت الرصاصات فى سماء (القصيمة) ..

ومع دويها ، انتفض (صالح) وشقيقه (أحمد) فى عنف ، وخُيِّل إليهما أن رصاصات الإسرائيلى قد اخترقت جسديهما ، ثم لم يلبثا أن انتبها إلى جحوظ عينى الجندى ، وتلك الدماء التى تدفَّقت من مواضع شتَّى فى جسده ، قبل أن يسقط عند قدميهما جثة هامدة ، ويبرز من خلفه جارهما (فائز) ، قائلاً فى لهفة :

ـ أأنتما بخير ؟!

حدَّقا فى وجهه بدهشة ، قبل أن يهتف (صالح) مأخوذًا :

ـ بالتأكيد .. لقد وصلت فى اللحظة المناسبة يا رجل .

اتعقد حاجبا (فائز) فى صرامة ، وهو يعيد مسدسه الآلى إلى غمده ، قائلاً :

ـ لم يكن هذا من قبيل المصادفة أو العشوائية .

أطلَ تساؤل كبير من عيونهما ، فأضاف فى حزم :

ـ أنا أيضًا أعمل لحساب المخابرات المصرية .

تهلّلت أساريرهما ، واندفع (صالح) نحوه ، يربّت على كتفيه فى حرارة ، هاتفًا :

ـ مرحى يا رجل .. مرحى .

ارتسمت على شفتى (فائز) ابتسامة باهتة ، تلاشت بسرعة ، وهو يقول :

ـ هيّا .. غادرا (القصيمة) بأقصى سرعة .. اتجها إلى الموقع (٧١٠) ، وستلتقطكما هليوكوبتر مصرية من هناك ؛ لتنقلكما إلى (القاهرة) .

تبادل (صالح) و (أحمد) نظرة دهشة ، قبل أن يسأل الأخير :

ـ ولماذا نذهب إلى (القاهرة) ؟!

أجابه (فائز) فى سرعة :

ـ هذه هى الأوامر .. أن ترحلا فورًا ، فى حالة انكشاف أمركما .. سألحق أنا بالشاب فى قلب الصحراء ، وأبذل قصارى جهدى لمعاونته على الوصول إلى (تل أبيب) ، فلا بد

أن تكتمل المهمة بأى ثمن .

تبادل (صالح) وشقيقه نظرة أخرى ، تحمل كل الحزم والعزم هذه المرة ، ثم قال الأوّل :

ـ كلاّ يا (أبو رابح) .. لقد انكشف أمرنا وانتهى الأمر ، وكان من الممكن أن نلقى حتفنا منذ لحظات ، لولا ما فعلته ، وسنواصل مهمتنا يا رجل .

قال (فائز) فى توتر :

ـ هذا شديد الخطورة يا (صالح) .. الإسرائيليون لن ..

قاطعه (أحمد) فى حزم :

ـ أنت تدرك أننا خير من يعرف مسالك (سيناء) ودروبها يا رجل ، وأننا الأفضل فى هذا المضمار ، منذ عهود أجدادنا ، وبدون خبراتنا هذه قد تتعرَّض المهمة كلها للفشل .

قال (فائز) فى تردُّد :

ـ ولكن الأوامر ..

ربَت (صالح) على كتفه ، قائلاً :

ـ الشىء الوحيد ، الذى ينبغى وضعه فى الاعتبار ، هو نجاح المهمة يا رجل ، ولا داعى لأن تخاطر بكشف أمرك ، بعد أن انكشف أمرنا .

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يستطرد فى حزم :

ـ هيّا يا (أبو رابح) .. أجرِ اتصالك بـ (القاهرة) ، وأخبرهم أن (صالح) و (أحمد) سيواصلان القتال .

واتعقد حاجباه فى حزم أكثر ، وهو يضيف :

ـ من أجل (مصر) ..

وانتفض قلب (فائز) بين ضلوعه ..

بمنتهى العنف ..

★ ★ ★

لحظة واحدة ، كانت الفيصل بين الموت والحياة ..

ففى تلك اللحظة ، كان الشاب ينطلق نحو الدبابتين ، وضوء الشمس المواجه لعينيه ، يمنعه من تمييزهما فى وضوح ..

عندما انطلق مدفع إحداهما ..

ولمح الشاب وهج الإطلاق ..

وفهم ما يعنيه ..

وبحركة حادة عنيفة ، انحرف بالسيارة ، وانطلق بها يسارًا .

وعلى مسافة أربعة أمتار فحسب منه ، دوى الانفجار ..

انفجرت القنبلة ، التى أطلقتها الدبَّابة الأولى ، وانطلقت مع انفجارها عاصفة من الرمال ، بلغ بعضها سيارة الشاب ، وهو ينطلق فى خط متعرِّج ، وقد أدرك أنه لم يعد يواجه السيَّارتين المطاردتين فحسب ..

وإنما أيضًا دبابتين قويتين ..

وفى نفس اللحظة ، التى أدرك فيها هذا ، كانت الدبابة الثانية تُطلق قنابلها بدورها ..

وعلى الرغم من المهارة المدهشة ، التى يقود بها الشاب السيارة ، فوق رمال (سيناء) ، راحت القنابل تنفجر عن يمينه ويساره ، وكاد بعضها يقتلع السيارة من مكانها ، وهو يواصل الانطلاق بها ، و (بيجال) من خلفه يصرخ غاضبًا ، عَبْر أجهزة الاتصال اللاسلكية :

ـ ماذا دهاكم يا رجال ؟! أين تعلَّمتم التصويب ؟! كيف تخطئون إصابة سيارة جيب واحدة ؟!

صاح به قائد إحدى الدبابتين فى حدة :

ـ تعال أنت وصوِّب كما يحلو لك أيها المتحذلق .. ذلك الرجل يقود السيارة فى براعة مدهشة ، ورجالى محترفون ، ويبذلون قصارى جهدهم للظفر به .

هتف (بيجال) فى حنق :

ـ فلنحاصره إذن .. أو ننسف نصف الصحراء من حوله .. المهم ألا نسمح له بالفرار قط .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته هذه ، كان الشاب يواصل الانطلاق فى خط متعرِّج ، فوق رمال (سيناء) ، ويده اليمنى تفحص محتويات سيارة (الجيب) ، بحثًا عن سلاح ما ، تركه أحد الجنود الإسرائيليين خلفه ، أو عن أى شىء يمكن أن يصلح كسلاح ..

كانت هناك عبوة وقود احتياطية ، وخزانة رصاصات إضافية ، تركها أحد الجنود خلفه ..

ولم تكن هناك أية أسلحة ..

وبسرعة ، راح عقل الشاب يعمل ، ويعمل .. ويعمل ، فى محاولة لإيجاد وسيلة مناسبة ، للاستفادة مما وجده ، فى موقفه الشديد الصعوبة ، خاصة وقد بدأت الدبابتان عملية حصاره ، وسيارة (بيجال) تقترب أكثر ، وخلفها سيارة الجنود ، و ...

وفجأة ، برزت أيضًا تلك الهليوكوبتر الحربية ، التى أتى بها (زلفى) ..

ودون مقدمات ، انهالت رصاصاتها على سيارة الشاب ، و (زلفى) يهتف ، عَبْر جهاز الاتصال اللاسلكى :

ـ ها نحن ذا يا أدون (بيجال) .. لقد وصلنا ، وسننسف ذلك الجاسوس .

لوَّح (بيجال) بقبضته ، هاتفًا فى حماس :

ـ نعم يا (زلفى) .. انسفه .. اسحقه .. لا أريد أن تتبقَّى منه حفنة واحدة من الأشلاء .

تألَّقت عينا (زلفى) ، وبدت له هذه فرصة مثالية ؛ لإرضاء رئيسه ، وإثبات تفوّقه ، فغمغم :

ـ سمعًا وطاعة يا أدون (بيجال) .. سمعًا وطاعة ..

ثم التفت إلى قائد الهليوكوبتر ، قائلاً :

ـ هل سمعت ؟!

أومأ الطيَّار برأسه إيجابًا ، وضغط زر إطلاق النيران فى قمة عصا القيادة ، وهو ينقض مرة أخرى على السيارة ، مغمغمًا :

ـ بالتأكيد ..

وصار الشاب فى موقف لا يحسد عليه بالفعل ..

لقد أصابت رصاصات الهليوكوبتر الجزء الخلفى من سيارته ، وثقبت خزان وقودها ، فى نفس الوقت الذى انفجرت فيه قنبلة إحدى الدبابتين ، على مسافة ثلاثة أمتار منه ، وكادت موجتها التضاغطية تقتلع السيارة من مكانها ، وتقلبها على جانبها فوق الرمال ..

ولكن العجيب أن الشاب لم يفقد أعصابه ، أو قدرته على التفكير والتدبير ، على الرغم من كل هذا ..

لقد درس موقفه العصيب بدقة ، وهو ينطلق بالسيارة فى خط متعرِّج للغاية ، والتقط عبوة الوقود الاحتياطية ، وانتزع فوهتها ، ودسَّ فيها قطعة من القماش ، انتزعها من غطاء قديم ، ملقى بإهمال داخل (الجيب) ..

ومن حسن حظه أن عثر على علبة ثقاب صغيرة ، فى درج تابلوه السيَّارة ، استخدمها لإشعال النيران فى طرف قطعة القماش ، قبل أن يلقى العبوة ذات الطرف المشتعل فى المقعد الخلفى للسيارة (الجيب) ..

وفى الهليوكوبتر ، لمح (زلفى) ما فعله الشاب ، فعقد حاجبيه فى توتّر ، وهو يغمغم :

ـ ما الذى يفعله هذا الرجل ؟! هل يزمع الانتحار فرارًا منا ؟!

أجابه الطيَّار بلهجة ساخرة :

ـ دعنا لا نمنحه هذه الفرصة .

قالها ، وهو يعاود الانقضاض على (الجيب) ، ويطلق نيرانه نحوها ..

واخترقت الرصاصات هذه المرة جسم (الجيب) وكادت تظفر بالشاب أيضًا ، حتى أن إحداها احتكَّت بفخذه الأيمن ، قبل أن تغوص فى طرف مقعد القيادة ، فى حين اخترقت ثانية الزجاج ، ونسفته فى عنف ، لتتناثر شظاياه فى وجهه ..

ولكن الشاب لم يتوقَّف ..

لقد واصل انطلاقه ، متجهًا نحو إحدى الدبابتين ، والعبوَّة المشتعلة مازالت فى المقعد الخلفى للسيارة ، وكأنه يزمع الانتحار بالفعل ..

وفى الدبابة ، رأى قائد طاقمها السيارة (الجيب) تنطلق نحوه مباشرة ، فغمغم فى توتَّر شديد :

ـ ما الذى يفعله هذا المجنون ؟! إنه ينطلق نحونا مباشرة !!

ثم التفت إلى أحد رجاله ، هاتفًا :

ـ أطلق قنابلك نحوه يا رجل .. انسفه نسفًا .

خفض الرجل ماسورة مدفع الدبابة بأقصى سرعة ممكنة ، محاولاً تصويب فوهته إلى الجيب ، إلا أنها كانت قد اقتربت فى شدة ، فهتف :

ـ سيِّدى .. إنها ..

اختنقت الكلمات فى حلقه ، واتسعت عيناه فى ذعر ، عندما شاهد الشاب يقفز خارج السيارة ، على الرغم من الرصاصات والانفجارات ، ويتركها تواصل طريقها نحو الدبَّابة ؛ التى هتف قائدها :

ـ اللعنة !.. إنها سوف ..

قبل أن يتمَّ عبارته ، ارتطمت السيارة (الجيب) بمقدَّمة الدبَّابة ، و ..

وانفجرت عبوة الوقود الإضافية ..

وانفجرت معها السيارة كلها ..

وبحركة غريزية ، مع دوى الانفجار ، واشتعال النيران فى الدبَّابة ، جذب قائد الهليوكوبتر عصا القيادة ، فارتفع بالطائرة عاليًا ، و (زلفى) يهتف :

ـ اللعنة ! اللعنة ! كيف فعل هذا ؟!

أجابه قائد الهليوكوبتر فى توتر بالغ :

ـ من الواضح أنه ليس جاسوسًا عاديًا . إنه مقاتل من نوع متميِّز للغاية ، يتفوَّق حتى على رجال الكوماندوز المصريين ، الذين واجهناهم فى حرب أكتوبر .

لوَّح (زلفى) بيده فى حدة ، هاتفًا :

ـ لا تتحدَّث عن حرب أكتوبر هذه .. لا تتحدَّث عنها الآن بالذات .

أما (بيجال) ، فقد احتقن وجهه بشدة ، عندما شاهد ما حدث ، وغمغم :

ـ مستحيل ! أى جاسوس هذا ، الذى أرسله المصريون ؟!

ثم لم تلبث دهشته هذه أن استحالت إلى غضب هادر ، وهو يصرخ :

ـ سأظفر بك حتمًا أيها المصرى .. سأظفر بك ، ولو كان هذا آخر عمل ، فى حياتى كلها .

قالها ، وهو يزيد من سرعة سيارته ، حتى يبلغ الشاب ، الذى قفز من (الجيب) قبل انفجارها ، ولم يعد يمتلك وسيلة للفرار ..

ولكن الشاب لم يتوقَّف لجزء من الثانية ، منذ وثب خارج (الجيب) ..

لقد قفز منها ، وتدحرج على رمال (سيناء) ، وهو يقبض على قطعة أخرى من القماش ، مبلَّلة بالوقود ، وبداخلها كل الرصاصات ، التى انتزعها من الخزانة الإضافية ، التى عثر عليها فى (الجيب) ، ثم وثب واقفًا على قدميه بخفة مدهشة ، وانطلق يعدو بكل قوته نحو الدبَّابة الثانية ، التى لم يفق طاقمها من أثر المفاجأة بعد ..

وقبل أن يستعيد أفراد الطاقم جأشهم ، وقدرتهم على المواجهة والقتال ، كان الشاب يثب فوق جنزير دبابتهم ، ومنه إلى برجها ، ويشعل لفة القماش ، مغمغمًا :

ـ من (مصر) ، مع خالص تحياتى .

وفتح البرج بحركة سريعة ، وهو يحمد اللّه (سبحانه وتعالى) ؛ لأن المراقب لم يغلقه خلفه من الداخل ، عندما هبط إلى باطن الدبَّابة ، ثم ألقى لفة القماش المشتعلة ، وأغلق البرج ثانية فى قوة ..

وبداخل الدبَّابة ، حدَّق أفراد الطاقم وقائدهم فى اللفة ، وصرخ أحدهم :

ـ قنبلة .

ولكن القائد هتف قائلاً :

ـ كلاَّ .. إنها ليست قنبلة .. إنها ..

واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يصرخ فى رعب :

ـ رصاصات .

وفى نفس اللحظة ، التى انطلقت فيها صرخته ، كانت النيران قد رفعت درجة حرارة مظاريف الطلقات ، إلى الحد الكافى لإشعال البارود اللادخانى(*) داخلها ، فانفجر ، مطلقًا المقذوفات فى كل اتجاه ، داخل الدبَّابة المغلقة ..

(*) الرصاصات تتكوَّن فى المعتاد من مظروف ومقذوف ، وداخل المظروف يوجد بارود عادى فى الرصاصات القديمة ، ومادة أكثر تطوّرًا فى الرصاصات الحديثة ، لها قوة قذف أكبر ، يطلق عليها اسم (البارود اللادخانى) (Smokeless powder) .

ولم ينتظر الشاب لمعرفة النتائج ، التى بدت له محسومة على نحو منطقى ، فانطلاق أكثر من دستتين من الرصاصات ، على نحو عشوائى ، داخل مساحة مغلقة كهذه ، كفيل بقتل كل كائن حى فيها ..

ثم إن سيارتى (الجيب) الإسرائيليتين تنطلقان نحوه ، وتقتربان منه بسرعة ، مع كل ما تحملانه من جنود ..

والهليوكوبتر تكمل دورتها ، استعدادًا للانقضاض عليه من جديد ..

وهو لا يحمل سلاحًا واحدًا للقتال ..

أو للدفاع عن نفسه ..

لذا فقد وثب من فوق الدبابة الثانية ، وانطلق يعدو على الرمال ، على نحو جعل (بيجال) يهتف فى ظفر ..

ـ آه .. وقعت أيها المصرى .. لا يوجد مكان واحد ، يمكنك الذهاب إليه ، أو الاختباء فيه هنا .. لقد انتهيت .. انتهيت تمامًا .

ومع نهايات كلماته ، انقضت الهليوكوبتر بالفعل ، وقال قائدها فى غضب هادر :

ـ إنها نهايتك هذه المرة أيها الجاسوس .

وضغط زر إطلاق النار فى قمة عصا القيادة ، و ..

وانطلقت الرصاصات ..

هادرة ..

★ ★ ★

٩ ـ رمال .. ودماء ..

تنهَّد (نسيم) ، وفرك عينيه فى إرهاق شديد ، وهو يجلس على مقعد خشبى صغير ، فى ركن قاعة الاجتماعات ، فى المخابرات العامة ، ثم لوَّح بكفه ، قائلاً :

ـ أعترف أن الموقف معقَّد للغاية .

تبادل زملاؤه نظرة صامتة مشفقة ، قبل أن يتابع هو فى حزم :

ـ ولكنه ليس ميئوسًا منه .

عاد الرجال يتبادلون نظرة أخرى ، حملت شيئًا من التوتر ، ثم مال أحدهم إلى الأمام ، وقال فى عصبية واضحة :

ـ (نسيم) .. كلنا نعلم مدى ارتباطك بذلك الشاب ، واقتناعك بمهاراته وقدراته ، على الرغم من تعارض هذا بشدة مع قواعد العمل ، التى تحتم عدم الوقوع فى حب العميل ، مهما كانت أهميته وكفاءته ، ولكن الموقف الذى أمامنا ، يحتِّم علينا طرح كل الانفعالات والقناعات غير المنطقية جانبًا .

انعقد حاجبا (نسيم) ، دون أن يجيب ، فى حين تابع زميله ، وهو ينهض إلى خريطة كبيرة لصحراء (سيناء) و (فلسطين) :

ـ آخر ما وصلنا من إحداثيات ، يشير إلى أن الشاب هنا ، ينطلق بسيارة (جيب) فى قلب الصحراء ، وخلفه (بيجال) ،

وعدد من جنوده ، كما أن عميلنا فى معسكر الجنرال (عامير) يؤكِّد أن دبابتين قد خرجتا لاعتراض طريقه ، والشاب لا يحمل حتى مسدسه ، ليواجه به كل هذا ، فما الذى يمكن توقَّعه ، فى ظروف كهذه ؟!

ازداد انعقاد حاجبى (نسيم) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ مع (فاى) ، لا يمكنك أن تتوقَّع شيئًا .

هتف زميل آخر فى حدة :

ـ إنه مجرَّد مقاتل يا (نسيم) .. رجل واحد ، مهما بلغت قدراته .. وهذا الرجل الواحد يواجه جيشًا صغيرًا محدودًا ، لن يلبث أن يتطوَّر بسرعة ، كعادة الإسرائيليين ؛ ليتحوَّل إلى قافلة من الدبَّابات ، وطائرات الهليوكوبتر ، والعربات المدرَّعة ، وسيكون عليه أن يواجه كل هذا وحده .. هل تعتقد أن باستطاعته هذا ؟!

كان التوتر ، الذى يشعر به (نسيم) فى أعماقه ، يفوق توتَّرهم مجتمعين بمرتين على الأقل ، إلا أن طبيعته الصارمة جعلته يخفى هذا عن ملامحه وصوته ، وهو يجيب :

ـ سيجد وسيلة ما .

هتف أحد الرجال :

ـ كفى يا (نسيم) .. إنك تتجاوز كل الحدود المسموح بها ، بموقفك هذا .. هل تعتقد أننا لا نتمنى مثلك نجاح المهمة ؟! إنك تُدرك جيِّدًا مدى أهميتها وخطورتها بالنسبة لنا .. ولكن

من الخطإ أن نستند على افتراضات وهمية ، أو غير معقولة ، ونحن نتعامل مع أمر كهذا .. أو مع أى أمر آخر .. إن العمل فى أجهزة المخابرات بالتحديد ، يحتم الاستناد دومًا إلى الواقع المجرَّد ، دون أية عواطف ، أو انفعالات ، أو رغبات وأهواء شخصية .

صمت (نسيم) لحظة ، برزت خلالها نواجذه ، وكأنما يبذل جهدًا خرافيًّا ، للسيطرة على مشاعره ، قبل أن يقول :

ـ فليكن .. وماذا لو افترضنا هذا ؟!

بدت عليهم الحيرة ، التى لم تلبث أن انتقلت إلى لسان أحدهم ، وهو يقول :

ـ ماذا تعنى يا (نسيم) ؟!

اعتدل (نسيم) بحركة حادة ، وقال فى صرامة شديدة ، أفرغ فيها توتّره كله :

ـ بل ماذا يعنى حديثكم أنتم ؟!

قالها ، وهبّ من مقعده ، ليندفع نحو الخريطة الكبيرة ، متابعًا :

ـ فلنفترض أن الشاب يواجه دبابتين وسيارتى (جيب) متخمتين بالجنود .. أو حتى سربًا من طائرات الهليوكوبتر المقاتلة .. ما الذى سيضيفه هذا أو يحذفه من المهمة ؟! هل سنتوقّف عن متابعتها ؟! هل سنلغيها ؟! أجيبونى .. ما الذى سيفعله هذا ؟!

ران عليهم مزيج من الصمت والارتباك ، وتمتم أحدهم :

ـ الواقع أننا لم ..

قاطعه (نسيم) فى حزم ، وهو يشير بيده إلى الخريطة :

ـ الواقع أنه ليس لدينا ما نفعله ، سوى أن نواصل العملية ، وليكن ما يكون .. أنتم تقولون إن آخر ما لدينا هو أن (فاى) هنا .. يواجه جيشًا محدودًا من الإسرائيليين ، وأن المواجهة ليست فى صالحه ، وأنه سيخسر حربه حتمًا .

ثم التفت إليهم ، وعقد ساعديه أمام صدره ، متابعًا :

ـ ولكن ماذا لو خرج من المواجهة ظافرًا ؟!

ظهر عليهم التوتّر ، وهمّ أحدهم بقول شىء ما ، لولا أن تابع (نسيم) فى صرامة :

ـ سؤال لم يطرحه أحدكم على نفسه ؛ لثقتكم فى استحالة خروجه من تلك الحرب الطاحنة ظافرًا ، ولكنه أيضًا مجرَّد احتمال ، يقبل الخطأ والصواب ، ولأننا رجال مخابرات ، وعملنا يحتم علينا عدم إهمال أية احتمالات ، مهما بلغت ضآلتها ، فدعونا نفترض أنه انتصر ، ونجح فى الخروج من تلك المصيدة المحكمة ، فما الذى سيحدث عندئذ ؟!

جذب أسلوبه اهتمامهم ، على الرغم منهم ، فأنصتوا إليه فى صمت وانتباه ، وهو يتابع على الخريطة :

ـ هذا الشاب من طراز خاص ـ كما سبق أن أخبرتكم ـ ولقد قمت بتدريبه بنفسى ، ودرست أسلوب تفكيره جيدًا ، حتى إننى

أستطيع استنتاج ، أو استنباط خطواته التالية .. إنه الآن هنا ، والمطلوب منه أن يذهب إلى (بئر سبع) ، ومنها إلى (تل أبيب) ، ولكن الأمور تشابكت وتعقَّدت ، وصار من الأفضل أن يتمّ اختصار خط السير ، والوصول إلى الهدف بأقصى سرعة ، لذا فسيتجاهل الذهاب إلى (بئر سبع) ، وسيتجه مباشرة إلى (تل أبيب) .

سأله أحدهم فى لهفة شديدة :

ـ كيف ؟!

التقط (نسيم) نفسًا عميقًا ، قبل أن يجيب :

ـ لست أدرى ؟!

هبط عليهم الجواب كالصاعقة ، فتراجعوا فى دهشة بالغة ، قبل أن يهتف أحدهم :

ـ ماذا تعنى بأنك لست تدرى يا (نسيم) ؟!

لوَّح (نسيم) بيده ، قائلاً :

ـ أعنى ما سمعتموه بالضبط يا سادة .. أنا واثق من أن الشاب سيتجاوز (بئر سبع) ، وسيتجه مباشرة إلى (تل أبيب) ، ولكن كيف سيفعل هذا ؟.. لست أدرى .. لقد درّبته جيِّدًا على حسن الاستفادة من الظروف المحيطة ، وعلى فن معالجة الكوارث ، ثم إنه يجيد التعامل مع كل وسائل النقل تقريبًا ، وبكفاءة جيِّدة جدًّا .. ربما لا تبلغ حد الامتياز ، ولكنها تكفى للتعامل مع ظروف بالغة التعقيد ، يعجز سواه عن مجرَّد

التفكير فيها ، ولكل ما سبق ، أعتقد أنه سيجد وسيلة للانطلاق مباشرة إلى (تل أبيب) .

اندفع أحدهم يقول :

ـ هذا لو خرج من محنته سالمًا .

انعقد حاجبا (نسيم) فى شدة ، وهو يقول :

ـ نعم .. لو خرج من محنته سالمًا .

وفى أعماقه ، تكرَّرت العبارة ألف مرة ..

نعم .. إنه واثق من قدرة الشاب على حسن التصرُّف ..

حتى فى أعقد الظروف ..

وواثق أيضًا من أنه سيجد وسيلة ما ، للذهاب إلى (تل أبيب) ..

ولكن هذا لو خرج من تلك الحرب ظافرًا ..

أو حتى سالمًا ..

لو ..

★ ★ ★

فى نفس اللحظة ، التى انطلقت فيها رصاصات الهليوكوبتر ، وثب الشاب ..

وثب وثبة مرنة ، قوية ، مدهشة ، عائدًا إلى الدبَّابة الثانية .

ومع وثبته ، شعر بسهم من النار يمزِّق جزءًا من فخذه الأيمن ، وتناثرت الرمال على وجهه ، من رصاصة ضربت الرمال ، على مسافة سنتيمترات قليلة منه ، وارتطم كتفه

الأيسر بجزء من جنزير الدبابة ، قبل أن يتدحرج جسده كله فى سرعة ، ويختفى أسفلها ..

وصاح طيَّار الهليوكوبتر فى غضب ، وهو ينخفض بها ، ليدور حول الدبَّابة :

ـ اللعنة ! أين ذهب ذلك الجاسوس ؟! ما الذى يظن أنه يفعله ؟!

كانت سيارة (بيجال) قد بلغت المكان أو كادت ، فهتف هذا الأخير ، وهو ينطلق نحو الدبَّابة :

ـ لماذا انخفضت الهليوكوبتر يا (زلفى) ؟!.. وأين ذهب ذلك المصرى ؟!

هتف (زلفى) عَبْر اللاسلكى :

ـ الواقع يا أدون (بيجال) أننا ..

قبل أن يتمّ عبارته ، برز الشاب فجأة ، من الجانب الآخر للدبَّابة ، وتسلَّق جنزيرها بخفة مدهشة ، اتسعت لها عينا (بيجال) ، وهو يستلّ مسدسه ، هاتفًا فى حدة :

ـ اللعنة !.. إنه ..

قبل أن تكتمل عبارته ..

وقبل حتى أن يستوعب قائد الهليوكوبتر ، أو (زلفى) ، أو الجنود الأربعة ، فى السيارة (الجيب) الأخرى الموقف ، كان الشاب يثب نحو الهليوكوبتر ، ويتعلَّق بها ، ثم ينثنى فى مرونة مذهلة ، ويدفع جسده داخلها ..

وبسرعة البرق ، انتزع (بيجال) مسدسه ، وأطلق رصاصاته نحو الهليوكوبتر ، صارخًا برجاله :

ـ امنعوه .. امنعوا المصرى من الفرار بأى ثمن .

شعر الشاب برصاصة تخترق ظهره ، وبأخرى تغوص فى كتفه الأيسر فى نفس اللحظة التى أخرج فيها (زلفى) مسدسه ، هاتفًا :

ـ كيف فعلت هذا أيها الـ ..

أخرسه الشاب بلكمة كالقنبلة فى فكه ، قبل أن يميل بزاوية حادة ، ويجذب عصا القيادة ، قائلاً للطيَّار بالعبرية :

ـ ارتفع يا رجل .. ألا تقلقك تلك الرصاصات ؟!

ارتفعت الهليوكوبتر بحركة عنيفة ، وبزاوية ميل مخيفة ، ومالت مروحتها العلوية ، حتى كادت تجتزّ عنق (بيجال) ، لولا أن انحنى فى سرعة ، ووثب خارج السيارة ، فى حين تردَّد رجاله ، وهم يتابعون مسار الهليوكوبتر الإسرائيلية بفوهات مدافعهم الآلية ، فى انتظار تأكيد منه لأمر إطلاق النار، على طائرة تحمل نجمتهم السداسية الزرقاء(*) ..

وبكل غضبه وحنقه وثورته ، هتف (بيجال) بهم :

ـ ماذا تنتظرون أيها الحمقى ؟! أطلقوا النيران .

(*) شعار (إسرائيل) .

حطَّم هتافه تردُّدهم ، فانطلقت رصاصاتهم كالمطر خلف الهليوكوبتر ، التى ابتعدت أكثر وأكثر ، وبداخلها جذب (فاى) عصا القيادة بيسراه ، وهو يقبض على معصم قائدها بيمناه ؛ لمنعه من انتزاع مسدسه ، والطيَّار يقول فى غضب :

ـ لست أدرى كيف فعلتها أيها الجاسوس ، ولكنك لن تنجح فى السيطرة على طائرتى قط .

قالها ، ثم لكم الشاب فى معدته بكل قوته ، ودفعه بعيدًا ، وهو يستلّ مسدسه من غمده ، مستطردًا :

ـ بل ستلقى مصرعك داخلها .

كان الشاب يشعر بآلام مبرحة ، تتدلع من كل إصاباته ، وبإرهاق لا حدود له ، فى كل جزء من جسده ، إلا أنه ، وعلى الرغم من هذا ، كان يحتفظ بإرادته الفولاذية سالمة قوية ، وبإصراره على الفوز بمهمته تامًّا غير منقوص ، لذا فقد مال جانبًا ، فى محاولة لتفادى الرصاصة ، التى انطلقت من مسدس الطيَّار ، ولكنه شعر بدويها كالقنبلة فى أذنه ، وبحرارتها الرهيبة تحرق جزءًا من ساعده الأيسر ، فوثب نحو الطيَّار ، دون كلمة واحدة ، وهوى على معصمه بضربة قوية من حافة يده ، أطاحت بمسدسه ، وضربت به زجاج الهليوكوبتر ، قبل أن يسقط على أرضيتها ، ويتدحرج خارجها ، فى نفس اللحظة التى حطَّم فيها الشاب فك الطيَّار بلكمة أخرى ، انطلقت من يمناه كالقنبلة ..

وصرخ الطيَّار فى غضب هائل :

ـ أيها الجاسوس اللعين .. لقد .. لقد ..

قبل أن يتمّ عبارته ، انتزع الشاب حزام مقعده ، ثم ركله بكل قوته ، مغمغمًا :

ـ اذهب إلى الجحيم .

اتسعت عينا الطيَّار ، وضرب الهواء بذراعيه ، محاولاً التشبُّث بأى شىء ، وهو يُطلق شهقة ذعر وارتياع هائلة ، ولكن (فاى) ركله ركلة أخرى ، ألقته خارج الهليوكوبتر ، فهوى من حالق ، وهو يطلق صرخة رعب هائلة ، قبل أن يرتطم بالرمال فى عنف ، وتناثر دماؤه على مدى شاسع ..

وبسرعة ، وعلى الرغم من إصاباته ، احتلّ الشاب مقعد القيادة ، وسيطر على الهليوكوبتر ، قبل أن تفقد توازنها تمامًا ، ثم دار بها ، وهو يتمتم :

ـ خطوة أخرى ، ويصبح الانتصار كاملاً .

كان (بيجال) يتابع الموقف من بعيد ، فاحتقن وجهه بشدة ، عندما شاهد الطيَّار يسقط من الهليوكوبتر ، وغمغم بصوت مختنق :

ـ مستحيل ! لقد أرسل لنا المصريون أخطر جواسيسهم بالتأكيد .

ثم اندفع نحو جهاز اللاسلكى فى السيارة ، ولكنه لم يكد يلمسه ، حتى هتف أحد رجاله فى ذعر :

ـ سيِّدى .. الهليوكوبتر تعود .

رفع رأسه بحركة حادة ، هاتفًا :

ـ تعود ؟!

تعلَّق بصره لحظة بالهليوكوبتر ، وتساءل فى أعماقه عن سر عودتها ، ثم لم يلبث أن استوعب الأمر كله ، فهتف برجاله :

ـ ابتعدوا .. اتركوا السيارة .

وانطلق يعدو مبتعدًا مع جنوده الأربعة ، وهو يحمى رأسه بذراعيه ، فى حين انقضَّ (فاى) على السيارتين ، وراح يمطرهما برصاصات الهليوكوبتر ..

وألقى (بيجال) نفسه أرضًا ، عندما دوى انفجار السيارة الأولى ، فى حين لقى اثنان من رجاله مصرعهما ، مع انفجار السيارة الثانية ، قبل أن ترتفع الهليوكوبتر مرة أخرى ، وتنطلق مبتعدة ، فى اتجاه الشمال ..

واحتقن وجه (بيجال) فى شدة ، وهو ينهض من فوق الرمال ، التى غرقت بدماء الإسرائيليين ، وهتف بصوت مختنق مبحوح :

ـ اللعنة !.. اللعنة !

قال أحد الجنديين الباقيين فى توتر :

ـ لقد نجونا بأعجوبة يا سيِّدى .

التفت إليه (بيجال) فى حدة ، هاتفًا :

ـ إنه لم يكن يستهدفنا أيها الغبى ، وإلا فما الذى منعه من قتلنا ؟!

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتابع :

ـ لقد استهدف وسائل الاتصال .

وصمت لحظة ، اشتعلت فيها النيران ، المطلّة من عينيه ، قبل أن يضيف :

ـ وأنا أعترف ببراعته ، وبأن المصريين قد أحسنوا اختيار رجلهم ، ولكن هذا لا يعنى أنه سيتفوق علينا نحن الإسرائيليين .. سألقّن هذا الجاسوس درسًا قاسيًا ، ليدرك أن العبث مع (بيجال يائيل) لا يمكن أن يجلب النصر أبدًا .

وانعقد حاجباه فى شدة ، مع استطرادته الصارمة :

ـ أبدًا .

نطقها وهو ينتزع من جيبه جهاز اتصال صغيرًا ، ويضغط زره ، قائلاً :

ـ هنا (بيجال يائيل) .. (م ـ ١) .. إلى قيادة القوات الجوية لمنطقة (سيناء) ..

كشفنا وجود جاسوس مصرى ، على جانب كبير من الخطورة .. الجاسوس نجح فى الاستيلاء على الهليوكوبتر (٦٠٧) ، بعد اشتباك عنيف ، ويتجه نحو الشمال .. أرسلوا ثلاث طائرات (فانتوم) لاعتراضه .. أكرّر .. ثلاث طائرات

مقاتلة .. أريد إسقاطه دون إنذار ، وتنفيذ الأوامر فورًا ، وبلا أدنى مناقشة ..

وأنهى الاتصال ، وحاجباه ينعقدان أكثر وأكثر ، مغمغمًا :

ـ سنرى أيها المصرى .. سنرى ما الذى يمكن أن تفعله كل مهاراتك ، فى مواجهة ثلاث من أفضل مقاتلاتنا .. سنرى ..

نعم يا رجل المخابرات المصرى ..

سنرى ..

★ ★ ★

« مستحيل !.. هذا الشاب مدهش بحق !! »

هتف (أحمد) بالعبارة ، وهو يراقب الصراع العنيف ، بين الشاب والإسرائيليين ، عبْر منظاره المقرّب ، وقد امتلأت نفسه بحماس هائل ، انتقل بسرعة إلى شقيقه (صالح) ، الذى ضمّ قبضته ، هاتفًا :

ـ هكذا يكون الرجال .. لقد حطّم أنف الإسرائيليين ، وجعلهم يدركون حجمهم الحقيقى .

هبّ (أحمد) من مكانه ، قائلاً :

ـ لقد استولى على الهليوكوبتر .. إنه ينطلق بها إلى هنا .

هبّ (صالح) من مكانه بدوره ، هاتفًا :

ـ إنه مصرى يا رجل .. مصرى مثلنا .

كانت الهليوكوبتر تقترب بسرعة من التبة ، التى يختفيان عندها ، فانطلق (صالح) يعدو ، ويلوّح بذراعيه ، هاتفًا :

ـ إنه نحن أيها المقاتل .. إنه نحن ..

لمح (فاى) سيَّارتهما (الجيب) المدنية ، ورأى (صالح) يلوِّح بذراعيه ، فأشار بيده ، وهو يغمغم :

ـ حمدًا للَّه .. إنهما بخير .. حمدًا للَّه .

تجاوزهما بالهليوكوبتر إلى ما وراء التبة ، ثم هبط بها فوق الرمال ، وهما يعدوان نحوه فى سعادة واضحة ، ولم يكد يقفز خارجها ، حتى اندفع (صالح) نحوه ، يعانقه فى حرارة ، ويربِّت على ظهره فى قوة ، هاتفًا :

ـ مرحى يا بطل .. مرحى .. مرحى .. لقد فعلتها .. لقد أرقت دماءهم على رمالنا .. لقد فعلتها ..

أما (أحمد) ، فصافحه فى قوة ، قائلاً فى تأثر :

ـ يبدو أننى أدين لك بالاعتذار ، فعندما رأيتك لأوَّل مرة ، تساءلت فى سخط عن السبب ، الذى دفع المصريين إلى إرسال شاب غرير ، للقيام بمهمة عسيرة كهذه ، ولكن ..

بتر عبارته فجأة ، وهو يحدِّق فى الدماء التى تغرق الجلباب البدوى ، الذى يرتديه الشاب ، وكأنما رآها لأوَّل مرة ، وهتف مذعورًا :

ـ رباه !.. إنك مصاب .. مصاب بشدة .

كان الشاب يترنَّح بالفعل ، لذا فقد احتواه (صالح) بين ذراعيه ، وصاح :

ـ يا إلهى ! أسرع يا (أحمد) .. لابد أن نسعفه بسرعة .. لابد .

خلَّص الشاب نفسه من بين ذراعيه ، وهو يهتف :

ـ لا .. لا وقت لهذا .. المهمة ينبغى إنجازها فى أسرع وقت ممكن .. لا يمكننى إضاعة لحظة واحدة .

هتف به (صالح) :

ـ مستحيل يا فتى !! الدماء تغمر جسدك ، وظهرك ينزف على نحو مخيف ، ثم إن الإسرائيليين لن يسمحوا لك بالابتعاد بطائرتهم على هذا النحو .. سيطلقون خلفك حتمًا طائراتهم المقاتلة ، التى لن يمكنك التصدَّى لها ، مهما بلغت قوتك ومهارتك .

أومأ الشاب برأسه إيجابًا ، مغمغمًا :

ـ أعلم هذا .

ثم استدرك فى سرعة وعناد :

ـ ولكن المهمة ينبغى إنجازها بأسرع ما يمكن .

هتف (أحمد) فى هذه اللحظة :

ـ يا إلهى !.. انظروا هناك .

التفت الاثنان بسرعة إلى حيث يشير ، ولاحت لهم تلك النقاط الثلاث ، التى تقترب منهم فى سرعة مدهشة ، تتجاوز خمسة أضعاف سرعة الصوت(*) ..

(*) سرعة الصوت : ٣٤٠ سم فى الثانية الواحدة .

المقاتلات الإسرائيلية الثلاث ، من طراز (ف ـ ١٥) ..

تلك المقاتلات ، التى قال قائدها ، عبر جهاز الاتصال الداخلى ، وهو يحلّق مع زميليه على ارتفاع منخفض ، فوق رمال (سيناء) :

ـ ما زلنا نبحث عن الهدف .. كل شىء يبدو هادئًا ، و ..

وفجأة بتر عبارته ، عندما لاحت له الهليوكوبتر (٦٠٧) من بعيد ، وهى ترتفع بسرعة كبيرة ، ولمح ذلك الشخص ، خلف عصى قيادتها ، فهتف :

ـ ها هو ذا الهدف .. لقد تم رصده .

صاح به (بيجال) ، عبر اللاسلكى :

ـ اتسفه يا رجل .. اتسفه بلا تردّد .

هتف الطيَّار فى دهشة :

ـ أتسف هليوكوبتر إسرائيلية ؟!

صرخ (بيجال) :

ـ لا تناقش الأوامر .. اتسفه على الفور .

انعقد حاجبا الطيَّار ، ولكنه قال لزميليه فى صرامة :

ـ انقضاض مباشر على الهدف ..

كانت الهليوكوبتر تواصل ارتفاعها أكثر وأكثر ، وبدا غطاء الرأس البدوى واضحًا على سائقها ، فانقضت عليها طائرات (الفانتوم) الثلاث ، وانطلق صاروخ من إحداها ، شقَّ طريقه نحوها مباشرة ، و ..

وأصاب الهدف ..

ودوى الانفجار رهيبًا فى الهواء ، لينسف الهليوكوبتر (٦٠٧) بكل ما عليها ..

ومن عليها .

★ ★ ★

١٠ ـ النيران ..

بدا الإرهاق واضحًا على الرجال فى (القاهرة) ، عندما أشارت عقارب الساعة إلى تمام الثامنة صباحًا ، دون أن يتذوَّق أحدهم طعم النوم ، لأكثر من ثلاثين ساعة كاملة ، وبذل بعضهم جهدًا خرافيًا ؛ لإبقاء عينيه مفتوحتين ، وتثاءب أحدهم فى قوة ، قبل أن يشير بيده ، قائلاً :

ـ معذرة يا رفاق ، ولكننى لم أعد أحتمل المواصلة ، فإما أن أحصل على قدر من النوم ، أو أسقط فاقد الوعى .

تمتم آخر :

ـ وأنا أيضًا .

واسترخى ثالث فى مقعده ، قائلاً :

ـ هذا يجعلنا ثلاثة .

رفع أكبر الموجودين رتبة يده ، قائلاً :

ـ فليكن .. للجسد البشرى متطلباته ، التى لا تختلف كثيرًا ، بين القادة والجنود .. لا أحد يمكنه الاحتفاظ بذهن صاف ، مع الجهد المتواصل ، وعدم النوم المستمر ، وعملنا يحتاج دومًا لصفاء الذهن .. لذا فسنرفع الاجتماع حاليًا ، وسنلتقى مرة أخرى ، عندما تستدعى الأمور هذا .

بدا عليهم جميعًا الارتياح للقرار ، ونهضوا ينصرفون ، واحدًا بعد الآخر ، فيما عدا (نسيم) ، الذى ظلّ قابعًا فى

مقعده ، معقود الحاجبين ، حتى انصرف آخرهم ، فتطلَّع إليه صاحب الرتبة الكبيرة ، وقال :

ـ (نسيم) .. أنت أيضًا تحتاج إلى النوم .

رفع (نسيم) عينيه إليه فى بطء ، وتطلَّع إليه بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يقول :

ـ سأنام هنا .

قال الرجل فى دهشة :

ـ هنا ؟!

أجابه (نسيم) فى حزم شديد :

ـ نعم .. هنا .. إننى المسئول الأوَّل عن العملية ، وسأتابع الموقف لحظة فلحظة .

تنهَّد الرجل فى إشفاق ، وقال :

ـ (نسيم) يا صديقى .. الموقف كله ليس ..

قاطعه (نسيم) فى صرامة :

ـ سأنام هنا .

كان زميله يعرفه جيدًا ، إلى الحد الذى يدرك معه عدم جدوى النقاش ، فابتسم ابتسامة متعاطفة مشفقة ، وربَّت على كتفه ، مغمغمًا :

ـ وفَّقك اللَّه يا رجل .

أومأ (نسيم) برأسه فى عصبية ، والتقط سمَّاعة الهاتف ، وقال فى توتر :

ـ أريد قدحًا من القهوة المركّزة على الفور .

انعقد حاجبا زميله ، وهو يقول مستنكرًا :

ـ قهوة ؟! أنت تحتاج إلى ما يهدئ أعصابك الثائرة يا (نسيم) ، وليس إلى الـ ...

قاطعه فجأة رنين الهاتف ، فاعتدل (نسيم) يلتقط سمّاعته ، قائلاً :

ـ هل من جديد ؟!

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يقبض على طرف مائدة الاجتماعات بأصابعه فى قوة ، وكأنما يتشبّث بها ، مغمغمًا :

ـ انفجرت ، واشتعلت فيها النيران ؟!

اعتدل زميله ، يقول فى عصبية :

ـ ما التى انفجرت ، واشتعلت فيها النيران ؟!

أشار إليه (نسيم) بالصمت ، وهو يسأل محدّثه فى توتر بالغ :

ـ من أبلغنا هذا ؟!

كاد الفضول يلتهم زميله ، وهو يميل إلى الأمام ، وكأنما يحاول سماع ما تنقله سمّاعة الهاتف ، ولكن (نسيم) قال فى حزم :

ـ فليكن ..

ثم أنهى المحادثة ، والتفت إليه فى بطء ، فهتف به متوترًا :

ـ ماذا حدث ؟! ما الذى انفجر ؟!

أجابه (نسيم) فى انفعال واضح :

ـ الشاب خرج من المعركة ظافرًا .

اتسعت عينا زميله فى دهشة عارمة ، تكاد تبلغ حد الذهول ، وهو يردّد :

ـ خرج ظافرًا ؟!

أومأ (نسيم) برأسه إيجابًا ، وقال بنفس الانفعال :

ـ لقد دمّر لوحده الدبابتين ، والسيارتين العسكريتين ، واستولى على هليوكوبتر حربية .

فغر زميله فاه ، وهو يجلس فى بطء ، على أقرب مقعد إليه ، مغمغمًا :

ـ يا إلهى !

تألقت عينا (نسيم) ، وهو يقول :

ـ كنت أعلم أنه سيفعلها .. لقد دربّته بنفسى .

هتف زميله ، وهو يربّت على كتفه فى حرارة :

ـ رائع يا رجل .. رائع .. ذلك الشاب أثبت أنه يستحق الانتماء إلى المخابرات المصرية بالفعل .

ثم مال نحوه ، يسأله فى اهتمام مشوب بالقلق :

ـ ولكن كيف سمح له الإسرائيليون بالاستيلاء على إحدى طائراتهم الهليوكوبتر ، دون أن يفتحوا عليه كل نيرانهم ؟

تراجع (نسيم) فى مقعده ، قائلاً :

ـ لقد فعلوا .

وتراقصت فى عينيه نظرة غامضة ، وهو يضيف :

ـ لقد أطلقوا خلفه ثلاث مقاتلات ، من طراز (ف ـ ١٥) .

اتسعت عينا زميله ، وهتف :

ـ ثلاث مقاتلات ؟! يا إلهى !.. وكيف سيواجه ثلاث مقاتلات (فانتوم) ، من طراز (ف ـ ١٥) ، بهليوكوبتر واحدة ؟!

هز (نسيم) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ لن يمكنه هذا أبدًا .

انعقد حاجبا زميله فى توتر ، وهو يقول :

ـ لن يمكنه هذا ؟! هل تعنى أن ...

قاطعه (نسيم) بسرعة :

ـ لقد رصدت المقاتلات الإسرائيلية الهليوكوبتر بالفعل .

قال زميله فى عصبية :

ـ ثم ؟!

صمت (نسيم) لحظة ، انتقلت خلالها تلك النظرة الغامضة إلى شفتيه ، قبل أن يجيب :

ـ أطلقت عليها صاروخًا .. ونسفتها .

انتفض جسد زميله فى عنف ، وهو يقول :

ـ نسفتها ؟! يا إلهى ! أتعنى أن ..

أدهشه ذلك الهدوء الظافر ، الذى قاطعه به (نسيم) ، قائلاً :

ـ لقد نسف الإسرائيليون عميلنا يا صديقى .

ثم استدرك بسرعة ، وعيناه تتألقان كثيرًا :

ـ من الناحية الرسمية .

التقى حاجبا زميله ، وهو يتطلَّع إليه فى دهشة ، تتزايد فى كل لحظة ، مع ذلك الغموض المطلّ من عينى (نسيم) وشفتيه .

الغموض الذى راح يتزايد ..

ويتزايد ..

ويتزايد ..

★ ★ ★

« أهو بخير الآن ؟!.. »

ألقى (صالح) السؤال على شقيقه فى توتّر بالغ ، فأشار إليه (أحمد) بالصمت ، وهمس :

ـ إنه مستغرق فى النوم ، بعد أن شرب منقوع الأعشاب ، الذى أعطاه إياه الشيخ (حامد) ، ويبدو أن لهذا المنقوع تأثير مخدِّرًا ، فقد أخرج الشيخ الرصاصات من جسده ، دون أن يصرخ أو يتأوَّه .

ابتسم (صالح) فى إشفاق يمتزج بالإعجاب ، وهو يقول :

ـ بل هو الذى كتم آلام جسده ، واستنفر صلابته وإرادته ، حتى لا تتجاوز صرخاته وتأوّهاته حلقه .. الواقع أن هذا الشاب ، على الرغم من صغر سنه ، له إرادة من حديد .

وافقه (أحمد) بإيماءة من رأسه ، وقال :

ـ وبراعة من ذهب .

جلسا متجاورين ، وقد بلغ منهما التعب مبلغه ، وارتكنا إلى جدار الحجرة لبعض الوقت فى صمت ، قبل أن يغمغم (صالح) :

ـ لا يمكننى أن أنسى ما فعله مع الإسرائيليين .

أجابه (أحمد) :

ـ ولا ما فعله مع مقاتلاتهم .

ثم اعتدل ، مستطردًا فى حماس :

ـ كان يبدو وكأنه سيسقط فاقد الوعى ، وعلى الرغم من هذا ، فقد قفزت إلى ذهنه تلك الفكرة الجيِّدة .

اعتدل (صالح) بدوره ، قائلاً :

ـ جيِّدة ؟! إنها فكرة عبقرية يا رجل .. لقد قيَّد يدى الإسرائيلى ، الفاقد الوعى داخل الهليوكوبتر ، إلى عصا القيادة ، وأدار محركات الهليوكوبتر لترتفع ، ثم جذب عصا القيادة ، ووثب منها ، قبل أن تحلِّق عاليًا ، فى مواجهة مقاتلات (الفانتوم) ، بعد أن وضع غطاء الرأس البدوى على رأس الإسرائيلى ، وأتلف جهاز الاتصال اللاسلكى .

ابتسم (أحمد) وتنهَّد ، ليقول :

ـ ومن حسن الحظ أن الإسرائيلى قد استعاد وعيه ، بعد أن ارتفعت الهليوكوبتر عاليًا فى السماء ، فتصوَّرت المقاتلات أنه الشاب ، وأطلقت نحوه صاروخها ، فنسفت الهليوكوبتر ، وسحقتها سحقًا .

هزَّ (صالح) رأسه ، قائلاً :

ـ ألم أقل لك : إنها فكرة عبقرية ؟!

خرج إليهما الشيخ (حامد) فى هذه اللحظة ، بجسده النحيل وقامته الضئيلة ، ولحيته البيضاء الكثَّة ، ووجهه الغارق فى التجاعيد ، فالتفتا إليه فى لهفة ، وسأله (أحمد) :

ـ كيف حاله الآن ؟!

رفع الشيخ يده الصغيرة المعروقة ، وغمغم :

ـ بخير .

أفسح له (صالح) مكانًا للجلوس ، وهو يسأله :

ـ هل تعتقد أنه سيتعافى بسرعة ؟!

أومأ الشيخ (حامد) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ إنه شاب قوى .. صحيح أن إصاباته عنيفة ، ولكنها ليست قاتلة ، ومعجون الأعشاب ، الذى ضمَّدت به جروحه ، سيجعلها تلتئم بسرعة كبيرة ، وعندما يستيقظ ، ويتناول وجبة دسمة ساخنة ، سيستعيد معظم قوته ونشاطه .

تراجع (صالح) ليستند مرة أخرى إلى الجدار ، وهو يتمتم :

ـ حمدًا لله .. حمدًا لله .

قال الشيخ (حامد) ، بصوته الخافت ولهجته الرصينة :

ـ أحسنتما التصرُّف بإحضاره إلى (عسلوج) ، فالإسرائيليون سيفتشون المنطقة التى سقطت فيها الهليوكوبتر شبرًا شبرًا بالتأكيد ، وسيعودون حتمًا إلى (القصيمة) ، وربما يذهب بهم

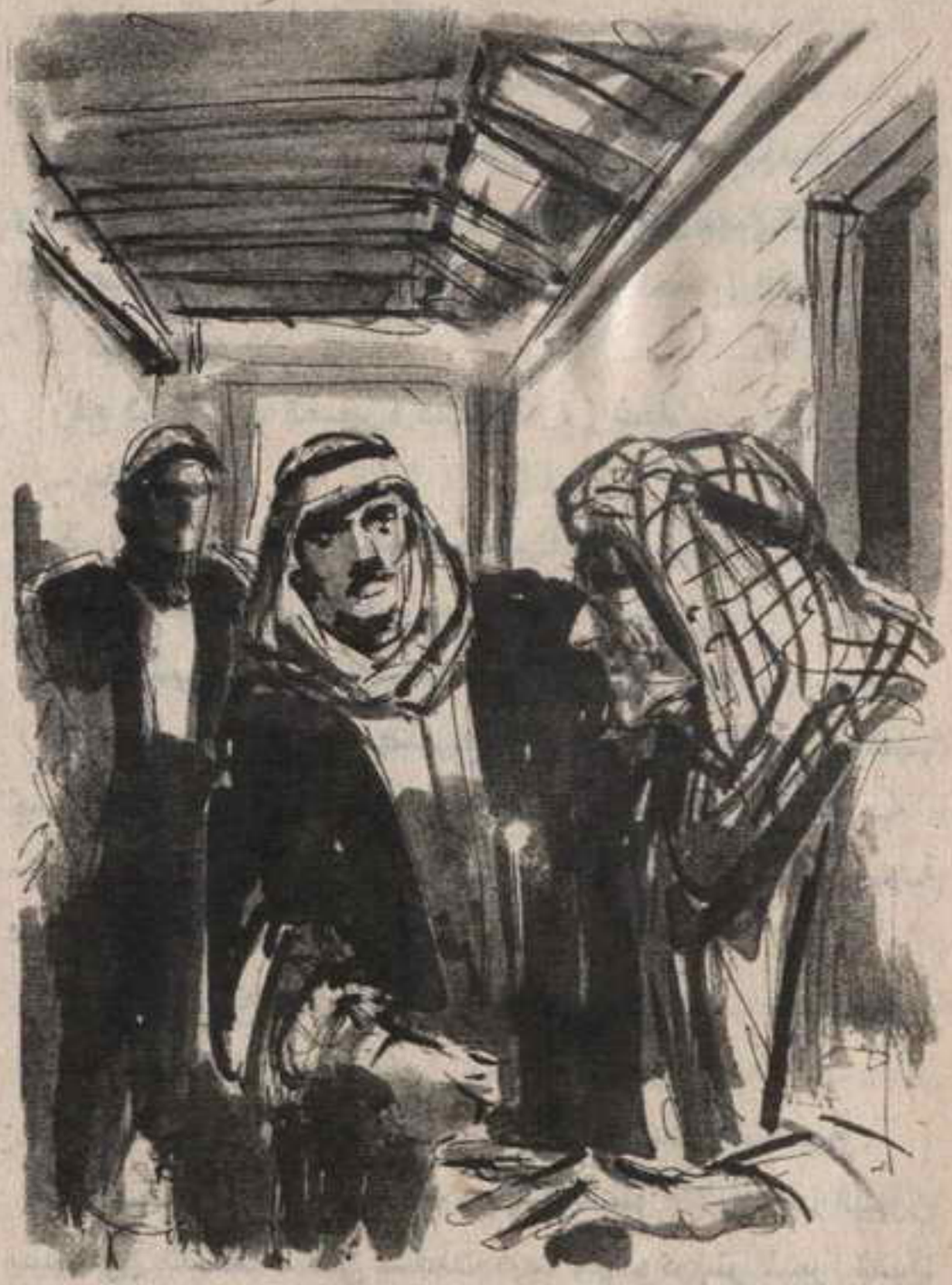

الأمر إلى تفتيش (العوجة) ، أو صحراء (تسين) ، ولكن سيدهشنى حقًا أن يتمادوا فى الأمر ، حتى يبلغوا (عسلوج) .

أجابه (أحمد) فى اهتمام :

- ربما كان احتمالاً بعيدًا ، ولكنه ليس مستحيلاً ، فالرجل الذى يقود الإسرائيليين هذه المرة أحد ضباط (الموساد) ، ومن الواضح أنه ليس ضابطًا عاديًا ، فلديه خبرة مدهشة بتقصى الأثر ، وهو يستعين أيضًا بخبراء فى هذا المجال .. صحيح أننا حرصنا على إخفاء مسارنا وآثار إطاراتنا ، إلا أن هذا لن يخدع خبيرًا فى هذا المجال .

صمت الشيخ (حامد) بضع لحظات فى هدوء ، ثم لم يلبث أن رفع عينيه إليهما ، قائلاً فى رصانة ، لا تخلو من الحزم :

- فى هذه الحالة ، أفضل ما تفعلانه هو أن تعملا على إعادة الشاب إلى (القاهرة) .

بُهِتَا للقول ، فتمتم (أحمد) بلهجة متوترة :

- إلى (القاهرة) ؟!

أما (صالح) ، فقد وجم لحظة ، ثم اندفع يقول فى عصبية :

- ولكن الإسرائيليين لن يتحركوا فورًا يا شيخ (حامد) ، فبالنسبة لهم ، لقى الشاب مصرعه مع انفجار الهليوكوبتر ، و ...

قاطعه الشيخ (حامد) ، مشيرًا بسبَّابته ، وهو يقول :

- مادام القائم على العملية بهذه البراعة ، وما دام هناك إسرائيلى مفقود ، فالخدعة لن تنطلى عليه طويلاً .

صمتا فى وجوم متوتّر ، فمال الشيخ (حامد) إلى الأمام ، وتابع فى حزم :

ـ اسمعا نصيحتى .. أعيدوا الشاب إلى (القاهرة) .. وبأقصى سرعة .

ارتفع صوت الشاب فجأة ، وهو يقول فى حزم :

ـ المهمة لم تنته بعد يا عماه .

التفت الجميع إليه فى دهشة ، ورأوه يقف عند مدخل الحجرة ، مشدود القامة ، متماسكًا ، على الرغم من شحوب وجهه الواضح ، فهتف به الشيخ (حامد) :

ـ ما الذى تفعله يا ولدى ؟! أنت تحتاج إلى الراحة والطعام ، و ...

قاطعه (فاى) فى حزم ، مشيرًا بيده :

ـ المهمة لم تنته بعد يا عماه ، والمقاتل الحق لا ينبغى أن يهدأ ، قبل أن يتم عمله ، أو يهلك دونه .

خفقت قلوب ثلاثتهم مع كلماته ، وانخفض صوت (صالح) كثيرًا ، حتى اقترب من الهمس ، وهو يتمتم :

ـ ولكننا الآن فى وضح النهار ، والإسرائيليون فى قمة توترهم ، ولن يكون من السهل أبدًا أن نذهب إلى (بئر سبع) ، أو ...

قاطعه الشاب :

ـ لن نذهب إلى (بئر سبع) .

هتف (أحمد) فى دهشة :

ـ ماذا ؟! ولكن الخطة الأساسية تحتم الذهاب إلى هناك أولاً !!

أجابه الشاب فى حزم أكثر :

ـ الخطة الأساسية انتهى أمرها ، منذ اللحظة التى هبطت فيها فى قلب (سيناء) ، وانكشف أمر هبوطى ، وتطوّر الأمور الآن يستلزم اللجوء إلى خطة بديلة ، أو ارتجال خطة جديدة .

وصمت لبضع لحظات ، وكأنما يعجز جسده المنهك عن المواصلة ، وازداد شحوب وجهه ، حتى إن (أحمد) أسرع يجذب مقعدًا ، ويقدّمه له ، قائلاً :

ـ اجلس يا ..

وانعقد حاجباه ، وهو يتطلّع إلى وجهه ، ويسأله فى حيرة :

ـ عجبًا !.. إننا لم نعرف اسمك بعد .

التفت إليه الشاب فى بطء ، وأدهشهم ذلك المزيج من الحيرة والتوتّر والارتباك ، الذى ارتسم على وجهه ، وأطلّ من صوته ، وهو يغمغم :

ـ اسمى ؟!

قال الشيخ (حامد) بلهجة مشفقة :

ـ كل شخص فى الوجود له اسم يا ولدى .

تطلّع إليه الشاب بنفس الحيرة المرتبكة المتوتّرة ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد يا عماه .. بالتأكيد .

كان هناك إعصار رهيب يعتمل فى عقله ، فى تلك اللحظة ..

نعم .. كل شخص فى الوجود له اسم ..

وصفة ..

وذكريات ..

كل كائن فى الكون له تاريخ ، منذ لحظة مولده ..

إلا هو ..

لقد امحى تاريخه كله ، من أعمق أعماق رأسه ..

ولم يعد له تاريخ ..

أو ذكريات ..

أو حتى اسم ..

لقد أصبح شخصًا لا وجود له ـ رسميًا ـ فى سجلات الأحياء .

(فاى) ..

« اسمى (فاى) .. »

بدت الدهشة على وجوههم ، وتبادلوا نظرة حائرة ، قبل أن يردِّد الشيخ (حامد) :

ـ (فاى) ؟! يا له من اسم ! أنا واثق من أنه لا مثيل له فى لغتنا العربية .

تألَّقت عينا (أحمد) ، وهتف :

ـ آه .. فهمت !

التفت إليه الشيخ (حامد) و (صالح) فى تساؤل ، فتابع فى حماس :

ـ إنه فى مهمة سرية ، ولا يمكنه أن يخبرنا باسمه الحقيقى .. أليس كذلك ؟!

صمت الشاب لحظة ، ثم قال فى حزم مقتضب :

ـ بالضبط .

بدا عليهم التفهُّم ، وغمغم الشيخ (حامد) بابتسامة حنون :

ـ فليكن يا ولدى .. فليكن .. وما قيمة الأسماء فى موقف كهذا .

كرَّر الشاب بنفس الحزم :

ـ بالضبط يا عماه .

ثم استطرد فى سرعة ، قبل أن يطرح أحدهم سؤالاً آخر :

ـ ولكن هذه ليست المشكلة ، فالقضية الأساسية الآن هى أن أصل إلى (تل أبيب) بأقصى سرعة ممكنة .

تبادل (صالح) و (أحمد) نظرة متوترة ، وغمغم الأوَّل :

ـ ليست لدينا وسيلة محدودة فى الوقت الحالى ، و ...

قاطعه الشيخ (حامد) بغتة :

ـ أنا لدى الوسيلة .

وعندما التفت إليه الجميع ، كانت عيناه تتألقان ، كما لو أنه قد استعاد شبابه القديم ..

تتألقان بشدة ..

★ ★ ★

عقد (بيجال يائيل) كفيه خلف ظهره ، والتقى حاجباه فى صرامة متوترة ، وهو يتابع رجال الجيش الإسرائيلى ، الذين انهمكوا فى فحص بقايا الهليوكوبتر ، وجمع أشلاء ذلك الراكب ، الذى لقى مصرعه معها ، وملامحه تشفّ عن ذلك الصراع العنيف ، الذى يدور فى أعمق أعماق عقله ..

لقد رأى ما حدث بنفسه ..

رأى الهليوكوبتر تحلّق عاليًا ، والمقاتلات تنقضّ عليها ..

ورأى الصاروخ يضربها ، فتنفجر فى الهواء ، وتتناثر بقاياها على مساحة واسعة ..

ولكن شيئًا ما فى أعماقه ، يرفض الاعتراف بأن المصرى قد لقى مصرعه ..

شىء ما ، يجعل الأمر كله غير منطقى بالنسبة إليه ..

لقد رأى بنفسه براعة الشاب ، وشاهده يسيطر على الهليوكوبتر ، وينقضّ بها على سيارتى الجيب ، فينسفهما نسفًا .

وعندما رأى الهليوكوبتر ترتفع ، فى مواجهة المقاتلات ، لم يلمح فى ارتفاعها لمحة واحدة من المهارة والبراعة ..

إنها حتى لم تلجأ إلى مناورة بسيطة ، فى محاولة للإفلات والنجاة ..

فقط واصلت ارتفاعها ، حتى أصابها الصاروخ ..

وانفجرت ..

هكذا ببساطة ، ودون أى مقاومة ..

وهذا لا يبدو له منطقيًا ..

أبدًا ..

« أدون (بيجال) .. لقد انتهينا من جمع الأشلاء والبقايا .. »

قطعت العبارة تسلسل أفكاره ، فالتفت إلى الضابط الإسرائيلى الذى نطقها ، وسأله فى حدة :

- أهى أشلاء رجل واحد أم رجلين ؟

أجابه الضابط فى شىء من الدهشة :

- بل رجل واحد يا أدون (بيجال) .. الجاسوس كان يقود الهليوكوبتر وحده ، كما أكّد طيارو (الفانتوم) .

صاح به (بيجال) فى حدة :

- أين ذهب مساعدى (زلفى) إذن ؟!

تراجع الضابط ، مردّدًا فى توتّر :

- مساعدك مَنْ ؟!

أجابه (بيجال) فى عصبية :

- مساعدى (زلفى) .. لقد كان إلى جوار قائد الهليوكوبتر ، عندما قفز إليها ذلك المصرى .. ولقد رأينا جميعًا الطيّار يسقط من الطائرة ، ويلقى مصرعه على رمال الصحراء ، ولكن أين ذهب (زلفى) ؟! هل تبخّر ؟! تلاشى ؟! لقد بحث عنه الرجال فى المنطقة كلها ، ولكننا لم نعثر حتى على جثته ، فأين ذهب ؟!

بدت الدهشة على وجه الضابط ، وهو يقول :

ـ لست أدرى .. ربما لو ...

صاح به (بيجال) فى غلظة :

ـ اصمت .

اتسعت عينا الضابط فى دهشة ، لم تلبث أن تحوَّلت إلى غضب هادر ، وهو يقول فى حدة وعصبية :

ـ أدون (بيجال) .. أعلم جيِّدًا أن الموقف متوتِّر للغاية ، ولكننى ضابط من ضباط جيش الدفاع الإسرائيلى ، ولن أسمح بأن ..

قاطعه (بيجال) مرة أخرى فى غضب هادر :

ـ اصمت ودعنى أفكر .

التقى حاجبا الضابط الإسرائيلى فى توتَّر بالغ ، وكظم غيظه فى صعوبة ، وهو يتطلَّع فى غضب إلى (بيجال) ، الذى أمسك ذقنه بسَّابته وإبهامه ، وراح يفكر فى عمق ، قبل أن يلتفت إليه ، ويسأله فى عصبية :

ـ هل عثرتم على الساق اليمنى للجثة ؟!

أومأ الضابط برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم .. عثرنا على جزء كبير من الجثة ، ولكنه محترق ، و ...

قاطعه (بيجال) فى توتَّر ونفاد صبر :

ـ أين هى ؟!

لم يكن هذا الأسلوب العصبى المتعجرف يروق أبدًا للضابط

الإسرائيلى ، إلا أنه يدرك جيِّدًا مكانة رجل (الموساد) ، لذا فقد كظم غيظه مرة أخرى ، وأجاب :

ـ اصحبنى يا أدون (بيجال) .

سارا جنبًا إلى جنب ، فوق رمال (سيناء) ، حتى بلغا سيارة كبيرة ، جمع فيها الجنود كل الأشلاء ، وأشار الضابط إلى الساق اليمنى فى تقزُّز ، قائلاً :

ـ ها هى ذى .

تطلَّع (بيجال) إلى الساق لحظات فى صمت ، ثم لم يلبث أن التقط من جيبه مطواة سويسرية متعدِّدة الأسلحة ، وفرد سلاحها الأساسى ، ثم طعن به الساق المحترقة بحركة بشعة ، جعلت الضابط الإسرائيلى يتراجع فى حدة ، ويشعر بغثيان شديد ، لم يستطع مقاومة تطوَّره ، عندما مزَّق (بيجال) الساق بلا هوادة ، ليكشف عظامها الداخلية ، فاستدار الضابط ، وراح يفرغ ما فى جوفه ، فصاح به (بيجال) فى غضب :

ـ سيطر على مشاعرك يا صاحب الأحاسيس الرقيقة .. ألم تشاهد قط جنودًا مزَّقتهم القنابل فى الحرب ؟!

اعتدل الضابط ، ومسح شفتيه بكمه ، قائلاً :

ـ ليس بهذه الوسيلة .

مطَّ (بيجال) شفتيه فى ازدراء ، وأزاح لحم الساق بلا مبالاة ، ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يهتف :

ـ اللعنة !

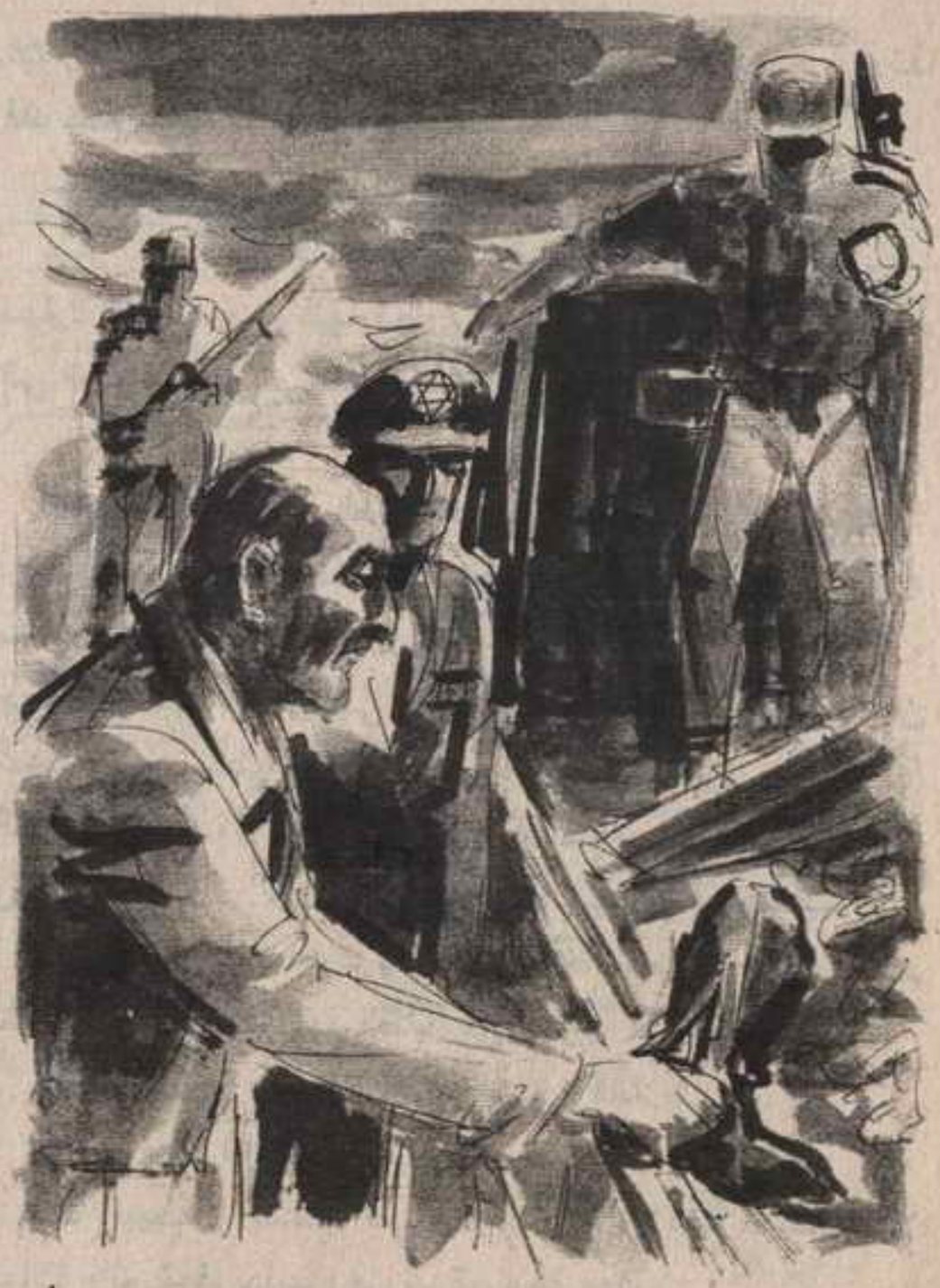

غلب الفضول الضابط ، فمال برأسه يلقى نظرة على ما يفعله (بيجال) ، وهو يسأل :

ـ هل عثرت على شىء ؟!

أشار (بيجال) إلى قطعة من البلاتين فى عظمة الساق ، مجيبًا فى عصبية شديدة :

ـ نعم .. هذا المسمار البلاتينى .. إنه يخص (زلفى) ، الذى أصيب فى حرب يونيو عام ١٩٦٧م ..

ثم رفع عينيه إلى الضابط ، مستطردًا فى غضب هادر ، يقترب من مرحلة الثورة :

ـ وهذا يعنى أن الأشلاء ، التى تجمعونها منذ أكثر من ثلاث ساعات ، هى أشلاء (زلفى) ، وليست أشلاء ذلك المصرى .

قالها ، وجسده كله يرتجف فى انفعال ، قبل أن يلقى الساق فى حدة ، مضيفًا :

ـ ويعنى أيضًا أننا خسرنا ثلاث ساعات كاملة .

ثم اندفع إلى واحدة من سيارات الجيش ، والتقط مسماع جهاز اللاسلكى الخاص بها ، هاتفًا :

ـ هنا (بيجال) .. (بيجال يائيل) .. أريد الاتصال فورًا بالقيادة المشتركة لجهازى (أمان)(*) و(الموساد)(**) فى تل أبيب .. الأمر عاجل .. عاجل للغاية .

(★) أمان : المخابرات الحربية الإسرائيلية .

(★★) الموساد : المخابرات العامة الإسرائيلية .

وكاد يعضّ شفتيه غيظًا ، وهو يقول لنفسه :

- فليكن أيها المصرى .. سأفتح أبواب الجحيم كلها ، ولن تجد جحر فأر ، يمكنك الاختباء فيه منى ، فى (إسرائيل) كلها .. هل تفهم .. لن تنجو منى قط ، مهما كان الثمن .

وكان على حق فيما قاله ..

لقد فتح أبواب الجحيم على الشاب ، فى قلب (إسرائيل) .. فتحها عن آخرها .

* * *

١١ - أبواب الجحيم ..

« (نسيم) .. (نسيم) .. لقد وصلت رسالة جديدة .. »

كان (نسيم) غارقًا فى نوم عميق ، فوق مقعدين متقابلين ، فى حجرة الاجتماعات ، وقد بلغ منه التعب والإرهاق مبلغهما ، إلا أن العبارة لم تكد تتسلّل إلى أذنيه ، حتى هبَّ من رقاده ، واعتدل جالسًا على أحد المقعدين ، وهو يفرك عينيه ، ويمدّ يده لالتقاط الرسالة ، قائلاً :

- أين هى ؟!

ناوله زميله الرسالة ، فتطلّع إليها لحظة ، ثم عاد يفرك عينيه ؛ ليزيل عنهما غشاوة النوم والإرهاق ، قبل أن يقرأ كلماتها ، قائلاً :

- لقد تم إرسالها على موجة البث القديمة ، و (صالح) يقول فيها : إن الشاب سيواصل مهمته ، وإنهم سيعملون على نقله إلى الهدف ، عبر (غزة) ، ثم (يافا) .

التقى حاجبا زميله ، وهو يقول :

- هذا يدهشنى فى الواقع ، فأنت توقّعت أنه سيذهب إلى (تل أبيب) مباشرة .

صمت (نسيم) بضع لحظات ، وهو يتطلّع إلى الرسالة مرة أخرى ، قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة غامضة ، ويقول :

- هذا صحيح .

ثم عاد يرفع قدميه على المقعد المقابل ، مستطردًا :

ـ ولكن من الواضح أن للشاب وجهة نظر أخرى .

تنهَّد زميله ، وقال :

ـ ولكننا لا نعتقد أن وجهة النظر هذه تتفق مع الظروف الحالية ، فالموقف شديد التوتر فى (إسرائيل) ، بعد ما حدث فى (سيناء) ، ولقد أعلنوا حالة الطوارئ القصوى ، فى صفوف (أمان) و (الموساد) معًا ، ورجالهم يفتشون كل من يدخل أو يخرج من أية مدينة أو قرية ، أو حتى مستعمرة خيام صغيرة .

هزَّ (نسيم) كتفيه فى هدوء ، وقال :

ـ هذا دأبهم ، فهم يتصوَّرون أن أى جاسوس يدخل إلى أرضهم ، كفيل بتدمير كياتهم كله .

وصمت لحظة ، قبل أن يهبط من مقعده ، ويتجه إلى الخريطة الكبيرة ، متابعًا .

ـ ثم إن ما تعلمناه وخبرناه يؤكِّد أنه ما من نطاق أمنى يخلو من الثغرات ، مهما بلغ إحكامه وبلغت دقته ، وعدد رجال الأمن الإسرائيليين لن يكفى لحصار كل المدن والقرى الإسرائيلية فى آن واحد .

قال زميله ، وصوته يحمل قلقه وتوتره :

ـ ولكنهم سيفعلون هذا فى المدن الرئيسية على الأقل .

تطلَّع (نسيم) إلى الخريطة طويلاً فى صمت ، قبل أن يقول :

ـ بالضبط .

شعر زميله بالحيرة ، وهو يقول :

ـ ألا يُشعرك هذا بالقلق ؟!

صمت (نسيم) لفترة أطول ، ثم بدا وكأنه لم يسمع حرفًا واحدًا من سؤال زميله ، وهو يشير إلى (تل أبيب) على الخريطة ، قائلاً :

ـ ينبغى أن نبذل قصارى جهدنا لتدبير أمر الشاب ، عندما يبلغ (تل أبيب) ، وعلينا أن نمنحه وسيلة مضمونة لدخول المطار الحربى هناك ، على الرغم من كل الاستحكامات الأمنية الإضافية هناك .

قال (زميله) فى شىء من الحذر :

ـ المهم أن يصل إلى (تل أبيب) أولاً .

انعقد حاجبا (نسيم) بشدة ، وبدا لحظة وكأنه يفكِّر فى عبارة زميله ، إلا أنه لم يلبث أن قال فى اهتمام :

ـ أريد الملف الكامل لكل الجنود ، الذين يعملون فى مطار (تل أبيب) الحربى ، وبالذات أولئك الذين سيتسلمون النوبة الليلية اليوم .. كل المعلومات وكل الصور .. وبالذات الصور .. أريدها واضحة ملوَّنة بقدر الإمكان(*) .

بدت الحيرة على وجه زميله ، وهو يسأله :

(*) فى تلك الفترة ، فى منتصف السبعينات ، لم يكن التصوير الملوَّن منتشرًا أو معتادًا ، كما هو الآن .

ـ (نسيم) .. فيم تفكر بالضبط ؟!

أشار إليه (نسيم) ، مجيبًا :

ـ فى تأمين دخول الشاب إلى المطار ، فى الظروف الحالية .

سأله زميله فى دهشة :

ـ وماذا عن الخطر الذى يواجهه ، والذى سيواجهه حتمًا ، فى (غزة) و (يافا) ، قبل أن يبلغ (تل أبيب) ؟

ارتسمت ابتسامة على شفتى (نسيم) ، وهو يقول :

ـ اطمئن .. لقد دربته بنفسى .

سأله زميله ، فى شىء من العصبية :

ـ وما الذى يعنيه هذا ، هذه المرة ؟!

اتجه (نسيم) فى هدوء إلى مقعده ، وجلس عليه ، ورفع قدميه على المقعد المقابل ، ثم أسبل جفنيه فى استرخاء ، قبل أن يجيب :

ـ يعنى أنه سيتوصل إلى الثغرة .

وامتلأت ابتسامته بالغموض ، مع استطرادته :

ـ وسيبلغ (تل أبيب) .. بإذن الله (سبحانه وتعالى) .

هتف زميله :

ـ كيف ؟!

اتسعت ابتسامة (نسيم) ، وتضاعفت جرعة الغموض فيها ، وهو يغلق عينيه ، وكأنما غرق فى نوم عميق ..

عميق للغاية ..

★ ★ ★

أدّى مسئول الاتصال ، فى الثكنات العسكرية الإسرائيلية التحية العسكرية ، فى قوة واحترام ، وهو يمدّ يده ببرقية عاجلة إلى (بيجال) ، قائلاً :

ـ برقية عاجلة من (تل أبيب) يا سيدى .

التقط (بيجال) البرقية فى لهفة ، وقرأها فى اهتمام شديد ، ثم التقى حاجباه فى توتر ، جعل ضابط الثكنة يسأله فى قلق :

ـ ماذا هناك يا أدون (بيجال) ؟!

أشار (بيجال) بيده ، قائلاً :

ـ رجالنا فى (تل أبيب) اعترضوا رسالة شفرية لاسلكية ، أرسلها الجاسوس من مكان ما فى قلب (سيناء) ، إلى قيادته فى (القاهرة) ، مستخدمًا موجة بث قديمة ، ربما لأنه تصور أننا لن نستمر فى مراقبتها ، بعد أن عرف المصريون أننا قد كشفنا أمرها بالفعل .

سأله الضابط فى اهتمام :

ـ وماذا يقول فى رسالته هذه ؟!

صمت (بيجال) بضع لحظات ، ثم أجاب :

ـ طبقًا للرسالة ، التى استغرق مكتبنا فى (تل أبيب) ساعة كاملة ، حتى يحلّ شفرتها ، سيتجه إلى (غزة) ، ومنها إلى (يافا) ..

هتف الضابط فى حماس :

ـ عظيم .. لقد كشفنا خط سيره ، ويمكننا الإيقاع به ..

التقى حاجبا (بيجال) مرة أخرى ، وغمغم :

ـ ولكن لماذا استخدم موجة البث القديمة ؟!

أشار إليه الضابط ، قائلاً فى حماس :

ـ السبب الذى ذكرته منطقى للغاية يا أدون (بيجال) .. لقد اضطر لإرسال الرسالة إلى قادته ، ولكنه خشى أن تستطيعوا تحديد موقعه أو هدفه ، لذا فقد استخدم موجة البث القديمة ، متصوّرًا أنكم لن تولوها الاهتمام الكافى ، بعد أن انكشف أمرها .

صمت (بيجال) بضع لحظات ، قبل أن يغمغم فى خفوت ، وكأنه يحدّث نفسه :

ـ إنه يستهدف (تل أبيب) حتمًا ، وهذا المسار يتفق مع طريقه إليها ، وهذا يعنى أنه أقرب إلى الحقيقة ، و ...

بتر عبارته ، وعاد إلى صمته لبضع لحظات أخرى ، قبل أن ينعقد حاجباه فى حزم ، ويدق المائدة بقبضته ، قائلاً :

ـ نعم يا رجل .. أنت على حق .. إنه التفسير الوحيد .

قالها ، والتقط سمّاعة الهاتف اللاسلكى ، وطلب رقمًا خاصًا ، ولم يكد يسمع صوت محدثه ، حتى قال فى حزم :

ـ أنا (بيجال) .. اسمعنى جيدًا يا رجل .. الجاسوس سيتجه إلى (غزة) ، ومنها إلى (يافا) ، قبل أن يتجه إلى (تل أبيب) .. ارفع درجة الأمن فى المدن الثلاث ، وكل الطرق المؤدية إليها ، إلى الدرجة القصوى ، وانشر دورياتك فى

الطرق الفرعية ، والخلفية ، وكل ممر يمكن أن يؤدى إلى واحدة من المدن الثلاث ، وبالذات (تل أبيب) .. لا تسمح بدخول أو خروج ذبابة منها ، دون أن تحمل أوراقًا رسمية مضمونة .. هل تفهم ؟!

وأغلق الهاتف ، وهو يستطرد فى صرامة :

ـ أرنا الآن ما يمكنك أن تفعله أيها المصرى .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان (صالح) والشاب ينطلقان ، على متن جوادين ، عبر دروب جبلية معقّدة ، فى جبل (الخليل) ، والأوّل يهتف فى حماس :

ـ فكرة الشيخ (حامد) .. عبقرية بالفعل ، فالإسرائيليون سيراقبون كل السيارات ، ووسائل النقل المختلفة ، التى تنطلق عبر كل الطرق المأهولة وغير المأهولة ، ولكن لن يخطر ببالهم قط أن يراقبوا تلك الدروب الجبلية ، التى لا يعرفها سوى أهل المنطقة ، ولن يتصوّر أحدهم أن نجتازها على صهوة الجياد .

قال الشاب :

ـ كل شىء جيّد ، مادام يقود إلى الهدف .

أجابه (صالح) ، وهو يجذب عنان جواده :

ـ بالتأكيد .

وتوقّف بجواده ، وراح يجفّف العرق الغزير ، الذى انسكب على جبهته ، قبل أن يتابع فى مزيج من الاهتمام والقلق :

ـ المفترض أن يلتقى بنا الدليل ، الذى اتصل به الشيخ (حامد) هنا ، فلن يمكننا التوغل فى تلك الدروب الجبلية وحدنا ، وإلا لضللنا طريقنا إلى الأبد .

توقف الشاب ، وجفف عرقه بدوره ، وهو يقول فى هدوء عجيب :

ـ فليكن .

تطلع إليه (صالح) بضع لحظات فى صمت ، ثم ابتسم ، وهو يربت على كتفه ، قائلاً :

ـ فكرتك أيضًا عبقرية يا سيد (فاى) ، فالرسالة الشفرية ، التى أرسلناها على موجة البث القديمة ، سيتم اعتراضها بالتأكيد ، وسيبذل الإسرائيليون جهدًا لترجمة شفرتها التقليدية ، مما سيمنحهم شعورًا بأنهم قد ظفروا بك .. وأراهن على أنهم سيحاصرون (غزة) و (يافا) .

قال الشاب فى بساطة :

ـ و (تل أبيب) أيضًا .

تنهد (صالح) ، وقال :

ـ بالتأكيد .

ثم استدرك فى حماس :

ـ ولكننى واثق من أن مندوب المخابرات المصرية ، الذى سيلتقى بك خارج (تل أبيب) ، ستكون لديه وسيلة ما لإدخالك إلى المدينة .. إنهم يعدون لكل شىء عدته .

انفرجت شفتا الشاب ، وبدا وكأنه سيعلق على هذا القول ، إلا أنه أشار بيده ، وقال فى خفوت واقتضاب :

ـ ها هو ذا .

أدار (صالح) عينيه فى سرعة ، إلى حيث يشير الشاب ، ووقع بصره على رجل عادى ، يرتدى ثيابًا مدنية ، ويتجه نحوهما على متن جواد أبيض ، فشد لجام جواده ، وتمتم فى شىء من التوتر والضيق :

ـ يبدو أننا سنفترق هنا يا سيد (فاى) .

أومأ (فاى) برأسه إيجابًا ، دون أن يتفوه بحرف واحد ، وتابعت عيناه الرجل ، حتى بلغهما ، ورفع يده بالتحية ، قائلاً :

ـ مرحبًا أيها السيدان .. ترى هل أجد لديكما عود ثقاب ؛ لإشعال قرص الشمس .

ابتسم (صالح) ، وقال :

ـ ألا تكفيك قداحة باردة ؟!

كانت هذه هى عبارة اللقاء المتفق عليها ، لذا فقد التفت الدليل إلى الشاب مباشرة ، وقال :

ـ أعتقد أنك على عجلة من أمرك ، للوصول إلى (تل أبيب) .. أليس كذلك ؟!

أومأ (فاى) برأسه إيجابًا ، فتابع الدليل ، وهو يدير عنق جواده :

ـ هيا بنا إذن .. سنحتاج إلى ثلاث ساعات على الأقل ، قبل

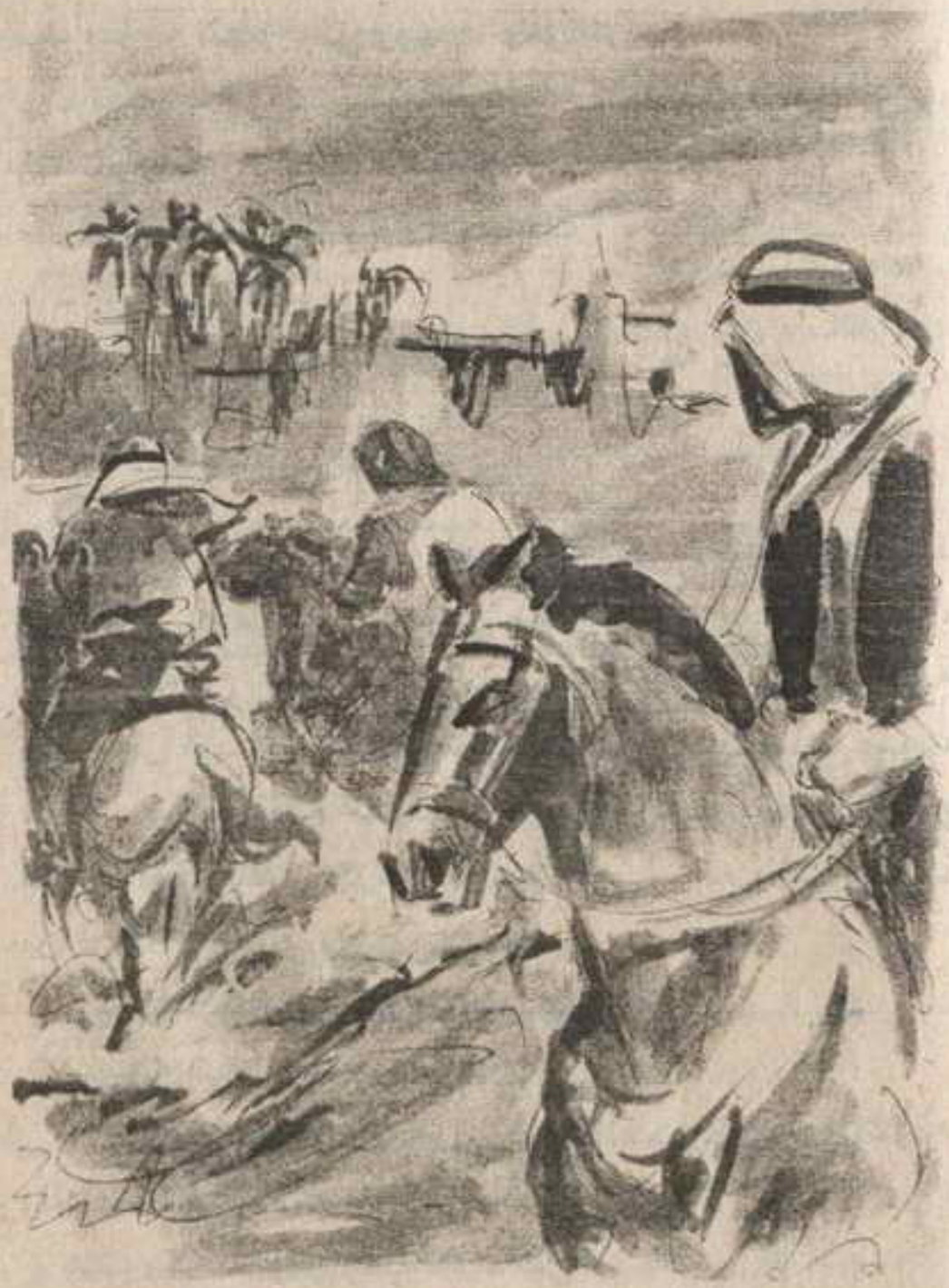

أن نبلغ (رام اللّه) ، ومن هناك سنستقل دراجتين آليتين إلى (اللّد) ، وهذا سيحتاج إلى ثلاث ساعات أخرى ، أى أننا لن نبلغ (تل أبيب) قبل منتصف الليل .

غمغم الشاب :

ـ المهم أن نصلها سالمين .

أجابه الدليل :

ـ بإذن اللّه .. هيا بنا .

التفت الشاب فى صمت إلى (صالح) ، الذى دمعت عيناه ، وهو يصافحه ، قائلاً :

ـ هيا .. اذهب على بركة اللّه .. أتمنى لك التوفيق فى مهمتك .

وشدّ على يده فى قوة ، مستطردًا :

ـ أعلم أن (فاى) هذا ليس اسمك الحقيقى ، ولكنه الاسم الذى سيظلّ محفورًا فى أذهاننا وذاكرتنا إلى الأبد ، والذى سنستخدمه ، عندما نروى ذكرياتنا لأحفادنا فى المستقبل ، عندما تستعيد (مصر) (سيناء) ، ويستعيد الفلسطينيون وطنهم السليب .. إلى اللقاء يا صديقى .. وفّقك اللّه ورعاك .

ثم أشاح بوجهه ، ليخفى انفعاله ، وهو يهتف :

ـ هيّا .. الوقت من ذهب .. انطلق .. انطلق على بركة اللّه .

جذب الشاب لجام جواده ، دون أن ينطق بحرف إضافى واحد ، وانطلق مع الدليل ، على متن جواديهما ، و (صالح) يتابعهما ببصره ، حتى اختفيا وسط دروب جبل (الخليل) ، ثم

ترك دموعه تنهمر على وجهه ، وهو يكرِّر :

ـ انطلق يا فتى .. انطلق على بركة الله (سبحانه وتعالى) ، وتحت رعايته .. انطلق من أجلها .

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف :

ـ من أجل (مصر) .

وعندما استدار عائدًا بجواده ، كانت دموعه تنهمر ..

وبحق ..

* * *

مطَّ الجندى الإسرائيلى (دافيد بتروفيسكى) شفتيه ، وضغط الوسادة فى قوة على أذنيه ، فى محاولة لمنع ذلك الصخب ، الذى يمنعه من النوم ، بعد ليلة كاملة ، قضاها فى حراسة مطار (تل أبيب) ، وتمتم بسباب ساخط ، مع تصاعد صوت أجش ، ينشد أغنية إسرائيلية شهيرة ، على نحو مزعج للغاية ، أسفل نافذة حجرة نومه مباشرة ، ثم لم يلبث أن هبَّ من فراشه ، صائحًا بزوجته فى غضب :

ـ مَنْ هذا الحمار ، الذى يمنعنى من النوم ؟

أسرعت إليه زوجته ، قائلة :

ـ إنه رجل مخمور ، يجلس أسفل نافذة حجرة نومك مباشرة ، ولقد فشلنا فى إقناعه بالانصراف .

هتف محنقًا ، وهو يلقى نظرة على ساعته :

ـ مخمور ؟! وفى مثل هذه الساعة ؟! إنها الخامسة

والنصف ، ولابد وأن أتسلَّم عملى فى المطار ، عند منتصف الليل ، ولم أنم لحظة واحدة ، طوال ليلة أمس .. فلينصرف ذلك الغبى ، وإلا هشَّمت رأسه .

تنهَّدت زوجته ، قائلة :

ـ تحدَّث إليه بنفسك لو أردت ، فقد سئمت محاولة إقناعه .

هتف ، وهو يختطف معطفه المنزلى :

ـ إقناعه ؟! مثل هذا لا يحتاج إلى إقناع ، بل إلى إجبار .

وفتح نافذة حجرته ، ليصيح فى الرجل بغضب :

ـ أنت أيها المأفون .. انصرف من هنا ، قبل أن أتصل بالشرطة ، لإلقائك فى السجن .

كان الرجل يحتضن عمود الإنارة ، مع زجاجة خمر نصف فارغة ، وهو يترنَّح على نحو مضحك ، ولكنه رفع عينيه إلى (بتروفيسكى) ، قائلاً فى سخرية :

ـ عجبًا ! أى صوت قبيح هذا ، الذى أسمعه ؟!

صاح به (بتروفيسكى) فى غضب :

ـ صوت قبيح ؟! أأنا صاحب الصوت القبيح أيها الحقير ..

أغلق المخمور أذنيه بطريقة هزلية ، هاتفًا :

ـ آآه .. الصوت يزداد قبحًا ، حتى أن أذنىَّ لا تحتملانه .

انطلق المارة يضحكون ، مع أسلوبه الهزلى ، فاحتقن وجه (بتروفيسكى) ، وصاح به :

ـ ماذا تقول يا غبى ؟! ألا تدرك أنك تتحدَّث مع عريف فى جيش الدفاع الإسرائيلى ؟!

فتح الرجل عينيه عن آخرهما ، على نحو مضحك ، وقال :

ـ جيش ماذا ؟! أما زال لدينا جيش حى ، بعدما فعله بنا المصريون فى أكتوبر .

احتقن وجه (بتروفيسكى) أكثر ، وهو يصيح :

ـ ماذا تقول أيها الوغد ؟!

أجابه الرجل فى سخرية :

ـ أقول إن عريف جيش محترم لا يجد فى نفسه الشجاعة لمواجهة مباشرة ، ويكتفى بإلقاء السباب عبْر النافذة .. هيّا .. أهبط إلى هنا أيها المتحذلق ، وسألقنك درسًا لن تنساه .

صاح (بتروفيسكى) :

ـ أنا ؟! ستلقننى أنا درسًا أيها الوقح .

قهقه الرجل ضاحكًا ، وأشار إلى (بتروفيسكى) ، وهو يتحدث مع المارة ، قائلاً :

ـ هل رأيتم ؟! إنه يخشى مواجهتى .. هـ .. هذا لأنه جبان .. هل رأيتم ؟!

صرخ (بتروفيسكى) ، وقد بلغ جنونه مبلغه :

ـ أنا جبان أيها الوغد ؟! أنا .. انتظرنى ، لو أن بك ذرة واحدة من الشجاعة .. انتظرنى حتى أهبط إليك .

حاولت زوجته أن تمنعه من الهبوط إلى الشارع بمعطف النوم ، إلا أن ثورة غضبه منعتها من هذا ، فاكتفت بهمهمة غير مفهومة ، وهو يقفز فى درجات السلم ، ثم يندفع نحو المخمور ، هاتفًا :

ـ هيّا .. واجهنى أيها الحقير ، وسوف ..

وفجأة ، وقبل أن يتمّ عبارته ، دبّ النشاط فجأة فى ذلك المخمور ، الذى وثب إلى الأمام ، وانحنى فى خفة ، ثم لكم (بتروفيسكى) لكمة كالقنبلة ، فى أنفه مباشرة ، ورفع زجاجة الخمر ، ليحطمها على رأس هذا الأخير ، قبل أن يدور على عقبيه ، ويعدو بكل قوته ، ليختفى فى الشارع المجاور ، فأطلقت زوجة (بتروفيسكى) صرخة ذعر ، وهى تهتف :

ـ النجدة .. لقد أصاب زوجى .. النجدة .. النجدة .

أما (بتروفيسكى) نفسه ، فقد احتقن وجهه بشدة ، على الرغم من أنفه المحطم ، وذلك الجرح فى قمة رأسه ، وترنح من فرط الدهشة والألم ، والإحساس بالخزى والخجل ، وهو يتساءل فى حيرة : لماذا فعل ذلك المخمور هذا ؟!

لماذا ؟!..

★ ★ ★

« وصلنا إلى (رام اللّه) .. »

نطق الدليل تلك العبارة بأسلوبه الحازم المقتضب ، وهما يصلان بجواديهما إلى المدينة . ثم أشار بيده ، مستطردًا :

ـ لن ندخل إلى المدينة ، حتى لا نثير الشبهات .. شقيقى (نزار) سيلتقى بنا هنا ، وسيحضر الدراجتين البخاريتين ، ويأخذ الجوادين .

والتفت إليه ، يسأله فى اهتمام :

ـ ألا ترغب فى تناول بعض الطعام ، قبل أن ننطلقا إلى (اللّد) ؟!

أجابه الشاب فى اقتضاب :

ـ كلاً .

بدا شىء من القلق على وجه الدليل ، وهو يقول :

ـ الطريق طويل وشاق ، والشيخ (حامد) أخبرنى أنك لم تنم سوى ساعة واحدة ، منذ...

قاطعه الشاب فى حزم :

ـ العمل يأتى أوّلاً .

وافقه الدليل بإيماءة من رأسه ، قائلاً :

ـ صدقت .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى لاح لهما شقيقه (نزار) ، وهو يقترب على متن درّاجة آلية ، وهو يجرّ إلى جوارها درّاجة أخرى ، فغمغم الرجل :

ـ عظيم .. كل شىء يسير على ما يرام .

بلغهما (نزار) بعد دقائق معدودة ، وصافح الشاب فى اهتمام ، ثم سأله :

ـ هل وصلت فى الوقت المناسب ؟!

أومأ الشاب برأسه إيجابًا ، وتمتم :

ـ بالتأكيد .

تبادلوا الدراجتين الآليتين والجوادين ، وسأل الدليل شقيقه :

ـ كيف الحال فى البلدة يا (نزار) ؟

أجابه (نزار) بسرعة :

ـ الإسرائيليون ليسوا على ما يرام يا (فوّاز) .. إنهم متوترون للغاية ، وأعتقد أن كل هذا بسببه .. إنهم يعلمون بوجوده .. أليس كذلك ؟!

أجاب (فوّاز) فى اقتضاب :

ـ بلى .

ثم أدار محرّك دراّجته الآلية ، وقال فى صرامة :

ـ عد إلى البلدة بالجوادين يا (نزار) ، وأجر اتصالك بالأصدقاء فى (اللّد) ، وقل لهم أن يستعدوا ، فلسنا نرغب فى إضاعة لحظة واحدة .. هل تفهم ؟!

أومأ (نزار) برأسه إيجابًا ، وغمغم :

ـ أفهم يا (فوّاز) .. أفهم .

لم يتبادلا كلمة واحدة إضافية ، و(نزار) ينطلق بالجوادين ، عائدًا إلى (رام اللّه) ، وتابعه الاثنان ببصرهما ، ثم التفت (فوّاز) إلى الشاب ، وسأله بأسلوبه المقتضب :

ـ هل تجيد قيادة الدراجات الآلية ؟!

أدار الشاب محرّك دراجته ، وهو يجيب بنفس الاقتضاب :

ـ بالتأكيد .

انعقد حاجبا (فوّاز) فى شىء من الشك ، وهو يقول :

ـ سننطلق فى طرق وعرة غير ممهّدة .

رفع الشاب عينيه إليه ، قائلاً فى حزم :

ـ هيَّا بنا .

نطقها فى ثقة تامة ، جعلت (فواز) يبتسم ، ويهزّ رأسه ، قائلاً :

ـ على بركة الله .

وانطلقا لإكمال المهمة ..

من أجل (مصر) ..

* * *

تطلّع (بيجال) إلى قرص الشمس ، الذى مال إلى المغيب ، وهو جالس على مقعد كبير وثير ، فى الطابق الثانى من مبنى صغير ، فى مدينة (غزة) ، وتصاعد توتره حتى كاد يبلغ ذروته ، وهو يستمع إلى ضابط المراقبة ، الذى راح يقرأ آخر تقارير المتابعة ، قائلاً :

ـ حصار المدينة لم يسفر إلا عن سقوط عدد من الفلسطينيين ، المطلوب إلقاء القبض عليهم ، ولكننا لم نعثر بعد على ذلك الجاسوس المصرى يا أدون (بيجال) .

سأله (بيجال) ، فى شىء من العصبية :

ـ هل راجعتم أوراق الجميع ؟!

أجابه الضابط بإيماءة من رأسه ، وقال :

ـ كلها يا أدون (بيجال) ، وبمنتهى الدقة ، ولكن هذا لم يسفر عن شىء .

ضاقت جبهة (بيجال) ، وهو يكرّر فى أعماقه ..

هذا لم يسفر عن شىء ..

إذن فالجاسوس لم يأت إلى هنا ..

ولم يذهب أيضًا إلى (يافا) ..

كل التقارير الواردة من هناك تؤكد هذا ..

أين ذهب إذن ؟!

أين اختفى ؟!

إنه لم يتلاش حتمًا فى قلب الصحراء ..

ولم يبث برقيته الشفرية هذه إلى (القاهرة) عبثًا ..

فأين هو إذن ؟!

« هل نواصل الحصار والتفتيش يا أدون (بيجال) ؟! »

قطع سؤال الضابط أفكاره ، فعقد حاجبيه ، وهو يتطلّع إليه فى صرامة ، قبل أن ينهض إلى الخريطة المعلّقة على الجدار ، دون أن يجيب سؤاله ، فكرّر الضابط :

ـ أدون (بيجال) .. هل نواصل الحصار والتفتيش ؟!

مرة أخرى ، تجاهله (بيجال) تمامًا ، وهو يراجع الخريطة الكبيرة ، فازدرد الضابط لعابه فى توتر ، وقال :

ـ أدون (بيجال) .

سأله (بيجال) فجأة :

ـ ما أفضل طريق للوصول إلى (تل أبيب) ؟!

كان السؤال مباغتًا بالنسبة للضابط ، فقال فى دهشة :

- (تل أبيب) ؟!

أجابه (بيجال) فى اهتمام شديد ، دون أن يرفع عينيه عن الخريطة :

- ليس بالنسبة للمسافر العادى ، ولكن بالنسبة لشخص هارب .

تضاعفت حيرة الضابط ودهشته ، ولكنه أجاب فى شىء من الحذر :

- الهارب سيتفادى الطرق الرسمية والمباشرة بالتأكيد .

هتف (بيجال) فى حماس ، وكأنما توصّل الضابط إلى نظرية علمية مدهشة :

- بالضبط .. سيتفادى كل الطرق الرسمية ، وسيحاول الدوران فى طريق بعيد غير مطروق ، حتى يصل إلى هدفه ، دون أن يشعر به أحد .. بل وسيحاول تضليل مطارديه أيضًا .

غمغم الضابط بنفس الحيرة :

- بالتأكيد يا أدون (بيجال) .

عضّ (بيجال) شفتيه فى غيظ ، مكملاً :

- ولأن مطارديه أغبياء بما يكفى ، فلن يكون وقوعهم فى الفخ عسيرًا ، وسيبذلون قصارى جهدهم لمراقبة فتحة الجحر الواضحة ، فى نفس الوقت الذى يدور هو فيه حولهم ، ليخرج من الفتحة الأخرى .

حدّق الضابط فى وجهه لحظة فى دهشة ، قبل أن يهزّ

رأسه ، مغمغمًا فى حيرة ، رسمت خطوطها واضحة فى ملامحه وصوته :

- دون (بيجال) .. الواقع أنه لا يمكننى استيعاب الأمر ، و ...

قاطعه (بيجال) ، وهو يشير بسبّابته إلى الخريطة ، قائلاً فى حزم :

- هنا ؟!

أدار الرجل عينيه إلى حيث يشير (بيجال) ، قائلاً :

- أين ؟!

أجابه (بيجال) فى عصبية :

- (اللّد) أو (الرملة) .. هنا فتحة الجحر الخفية .. الجاسوس لن يذهب إلى (تل أبيب) عن طريق (غزة) و(يافا) ، كما نجح فى إقناعنا .. بل سيدور من هناك ، من حول جبل (الخليل) ، ثم يتجه إلى (اللّد) أو (الرملة) ، ومنهما إلى (تل أبيب) .

لم يستوعب الضابط هذا أيضًا ، إلا أنه لاذ بالصمت ، وترك (بيجال) يهتف فى غضب :

- اللعنة ! اللعنة ! كان ينبغى أن أدرك هذا من البداية .. كان ينبغى أن أفهم لماذا استخدم موجة البث القديمة !!

قالها ، وانقضّ على الهاتف ، وانتزع سمّاعته بحركة عنيفة ، وطلب رقمًا خاصًا ، ليقول فى توتر بالغ :

ـ أنا (بيجال) .. وصلتنى معلومات حديثة ، تؤكد أن الجاسوس المصرى سيتجه إلى (اللد) أو (الرملة) ، ومن إحداهما إلى (تل أبيب) .. أريد تكثيف الحصار حول المدينتين ، واستمراره حول (تل أبيب) .. راقبوا كل الطرق الفرعية والخلفية .. استخدموا طائرات هليوكوبتر بمصابيح ضوئية كبيرة .. افعلوا أى شىء .. المهم ألا ينجح ذلك المصرى فى الوصول إلى (تل أبيب) ..

وأنهى المحادثة ، ثم طلب رقمًا آخر ، وقال :

ـ أنا (بيجال يائيل) ، صلنى بقائد المطار .

وانتظر لحظات ، حتى سمع صوت قائد مطار (تل أبيب) الحربى ، فقال فى توتر :

ـ اسمعنى جيدًا يا رجل .. افتح أذنيك عن آخرهما ، وأنصت إلى كل كلمة سأخبرك بها ، ولا تنهِ المحادثة قبل أن تستوعبها جيدًا .. لدى من الأسباب ما يؤكد لى أن المصريين يحاولون إدخال أحد عملائهم إلى المطار ، لاستعادة ميكروفيلم ، تركه جاسوسهم السابق فى مكان ما هناك ؛ لذا أريد منك أن تضاعف إجراءات الأمن ، وتعلن حالة الطوارئ القصوى ، انتق أفضل رجالك للحراسة ، وليكونوا جميعًا من الذين تم ترشيحهم للعمل فى المخابرات الحربية ، ولا تدخل أى مخلوق ، ما لم يكن معروفًا ، وله ملف ممتاز عندك .. أما أنا فسأستقل هليوكوبتر ، وسأتجه إليك على الفور .. انتظرنى .

وأنهى المحادثة بنفس العنف ، الذى بدأها به ، وهو يعقد حاجبيه فى شدة ، على نحو يوحى بأنهما قد امتزجا ، ويقول فى غضب هادر :

ـ فليكن أيها المصرى .. لقد نجحت فى خداعنا ، حتى هذه اللحظة ، ولكن الحكمة القديمة تقول : « من يضحك أخيرًا ، يضحك كثيرًا » .. وأنا أعدك بأننى سأكون آخر من يطلق ضحكاته ، فى هذه العملية .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان الشاب ينطلق مع رفيقه ، على متن الدرَّاجتين الآليتين ، نحو مدينة (اللد) ، وهما لا يدركان أن دورية إسرائيلية كبيرة ستعترض طريقهما هناك ، وستفتح عليهما بابًا جديدًا من أبواب الجحيم ..

ـ بل وربما كان أوسع أبوابه ..

على الإطلاق .

★ ★ ★

١٢ - وجهًا لوجه ..

على الرغم من أن الفترة ، التى استسلم فيها (نسيم) لنوم حقيقى ، لم تكن تتجاوز الساعة ونصف الساعة ، طوال الثلاثين ساعة الماضية ، إلا أنه بدا جمّ النشاط ، شديد الاهتمام ، وهو يرتشف قدح القهوة الداكن ، الذى أمسك به بأصابعه كلها ، وهو يدور حول مائدة الاجتماعات ، التى عاد الرجال إليها ، مع غروب الشمس ، وراح يستمع فى انتباه شديد إلى أحد زملائه ، الذى يقول :

- ولقد ذهب (دافيد بتروفيسكى) بنفسه إلى مستشفى (تل أبيب) العسكرى ، وأبلغ عن واقعة الاعتداء عليه ، وتم إسعافه بضمادة لأنفه المكسور ، وخياطة ذلك الجرح القطعى فى أعلى فروة الرأس ، وحصل على تقرير طبى يثبت إصاباته ، وقام بالاتصال فعليًا بقائده فى المطار ؛ للحصول على إجازة مرضية ، إلا أن قائده رفض بشدة ، بحجة إعلان حالة الطوارئ القصوى ، ومنع الإجازات وإلغائها تمامًا ، وهذا يعنى أن (بتروفيسكى) مضطر للذهاب إلى مطار (تل أبيب) ؛ لاستلام نوبة حراسته فى منتصف الليل ، على الرغم من إصاباته .

ارتشف (نسيم) رشفة أخرى من قدح القهوة فى استمتاع ، وقال :

- عظيم .. كل شىء يسير إذن على ما يرام .

قال أحد زملائه فى حزم :

- ولكننا ما زلنا نجهل موقف الشاب يا (نسيم) .

ابتسم (نسيم) ، وقال :

- لا تقلق بشأنه .. إنه تلميذى .

ثم اتجه إلى الخريطة ، وقال مشيرًا إليها بيسراه :

- إنه لن يذهب إلى (غزة) أو (يافا) ، كما قالت رسالته ، التى نسبها إلى (صالح) ، واستخدم فى كتابتها شفرة تقليدية ، ثم أرسلها على موجة بث قديمة ، حتى يعترضها الإسرائيليون ، ويشدّدون الحراسة على المدينتين ، فى حين يتسلّل هو عبر طريق مختلف تمامًا .

تبادل الرجال نظرة ، لم يستطع أحدهم إخفاء لمحة الإعجاب فيها ، قبل أن يقول أحدهم ، وهو يشير بدوره إلى الخريطة :

- رسالة (صالح) الأخيرة تقول : إنه سيعبر جبل (الخليل) ، ثم يدور حول (رام الله) و (اللد) ، ليبلغ (تل أبيب) ، ولو سار كل شىء دون عقبات ، فالمفترض أن يكون على مشارف (اللد) الآن ، وسيبلغ (تل أبيب) قبيل منتصف الليل بساعة أو نصف الساعة على الأكثر .

ارتشف (نسيم) رشفة جديدة من قدح القهوة ، قبل أن يضعه على المائدة ، قائلاً :

- بالضبط .. وعندما يبلغها لن يكون فى حاجة إلى دخولها ،

أو إلى مواجهة عمليات التفتيش والبحث ، فسيلتقى به رجلنا خارج المدينة ، ويسلمه كل الأوراق ، التى تتيح له دخول مطار (تل أبيب) .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

ـ وهناك يبدأ الخطر الحقيقى .

هزَّ أحد الرجال رأسه ، قائلاً :

ـ وأى خطر !! إنه سيصبح فى قلب ثكنة العدو ، وعليه أن يذهب إلى الطائرة (ف ـ ٢١٠) ، ويحلّ أحد مسامير قائمها ، ثم يحصل على الميكروفيلم ، ويعدو به إلى هنا .. كل هذا وسط إجراءات أمن مشدَّدة ، لم يعرف المطار مثلها ، منذ حرب أكتوبر .

سأل أحدهم فى قلق :

ـ وماذا لو كشف الإسرائيليون أمره ، قبل أن يستعيد الميكروفيلم ؟!

مطَّ (نسيم) شفتيه ، ولوَّح بكفه ، قائلاً :

ـ لست أرغب حتى فى تخيّل ما سيحدث .

ثم التقى حاجباه ، وهو يضيف :

ـ ولكننى واثق من أن الشاب لن يتراجع قط ، حتى ولو انكشف أمره ، وانطلق الجيش الإسرائيلى كله خلفه .. إنه سيقاتل ، ويقاتل ، وسيمضى فى مهمته حتى النهاية .. مهما كان الثمن .

نطقها ، وهو يثق تمامًا بكل حرف منها ..

لقد درَّب الشاب بنفسه ، ويعرف جيِّدًا مدى مهارته وإصراره وعناده ..

ويدرك أنه سيمضى فى مهمته بالفعل حتى النهاية ..

ومهما كان الثمن ..

★ ★ ★

« تلك هناك أضواء (اللّد) .. »

تطلَّع الشاب فى صمت إلى المدينة ، بعد أن نطق (فوَّاز) العبارة ، وبدت له الأضواء متراقصة مهتزَّة ، مع حالة الإرهاق التى بلغها ، فلاذ بصمته هذا ، خشية أن ترتجف الكلمات على شفتيه لو انفرجتا ، وترك (فوَّاز) يتابع :

ـ المفترض أن نلتقى بأحد الرفاق هنا ؛ ليبلغنا ما الذى ينبغى فعله ، عندما نصل إلى (تل أبيب) .

أجابه الشاب فى حزم :

ـ أنا أعرف ما الذى ينبغى فعله ، عندما نصل إلى (تل أبيب) .

التفت إليه (فوَّاز) يسأله :

ـ وما هو ؟!

انعقد حاجبا الشاب ، وهو يقول فى صرامة :

ـ سأخبرك فى حينه .

قفز شىء من الغضب إلى عينى (فوَّاز) لحظة ، ثم لم يلبث أن استوعب الأمر ، وأدرك أنه من الضرورى أن يحتفظ الشاب بأموره سرًّا ، وتذكَّر أنه يجهل حتى المهمة التى هو بصددها ، فغمغم :

ـ فليكن .

مع آخر حروف كلماتـه ، لاح لـه ضوء يقترب ، من خلف التل ، فقال فى حماس :

ـ ها هو ذا .. هيا بنا .

قالها ، وانطلق بدرَّاجتـه الآليـة على الفور ، دون أن يمنح الشاب فرصة المناقشة ، أو إبداء الرأى ، فتردَّد الشاب لحظة ، ثم لحق به بدرَّاجته ، ودار الاثنان حول التل ، و ...

وفجأة ، سطعت تلك الأضواء فى وجوههم ..

لم يكن قادم واحد هذا ..

بل كان هناك قادمون ..

سيارتا دورية إسرائيليتان ، ودرَّاجة عسكرية آلية ..

وعندما وجد الشاب والدليل نفسيهما وجهًا لوجه ، أمام تلك الدورية ، هتف الأخير فى انزعاج شديد :

ـ يا إلهى !! الإسرائيليون !!

ثم دار بدَّراجته البخارية ، وانطلق بها هاربًا بأقصى سرعة ..

وكان هذا يكفى لإشعال الموقف كله ..

فلم يكـد ينطلق هاربًـا ، حتى أدرك الإسرائيليون أنهم أمام هدف واضح ، فانطلقت رصاصاتهم بلا تفكير خلف (فوَّاز) ..

ونحو الشاب أيضًا ..

وهكذا ، وفى لحظات ، وجد الشاب نفسه يواجه سيلاً من النيران ..

ولكن هذا لم يفزعه ..

ولم ينتزع ذرة واحدة من شجاعته ، وقدرته على التفكير السليم ..

وفى سرعة مدهشة ، دار بدرَّاجته الآلية ، وهو يميل بها فى شدة ، حتى كادت ترقد على جانبهـا أرضًـا ، وهـى تنطلـق مبتعدة ، ورصاصات الإسرائيليين تمرق فوق رأسه مباشرة ..

وما إن تجاوز التلَّ ، حتى اعتدل بدراجته ، واندفع بها نحو أكثر الدروب ضيقًا ووعورة وخلفه انطلقت الدورية كلها ..

وانهال سيل الرصاصات مرة أخرى ..

وفى هذه المرة ، سمع صوت ارتطام إحدى الرصاصات بجسم الدرَّاجة ، وشعر برصاصة أخرى تخترق تلك العضلة القوية ، بين عنقه وكتفه الأيمن ، وسالت الدماء الدافئة اللزجة على صدره وظهره ، وهو ينحرف داخل درب ضيق ، عجزت السيارتان الإسرائيليتان عن ارتياده ، فتوقَّفتا أمامه ، فى حين اندفع راكب الدرَّاجة العسكرية الآلية خلفه .

وفى توتر عصبى ، ضغط قائد الدورية زر الاتصال اللاسلكى ، وهو يهتف :

ـ من الدورية السابعة إلى القيادة .. أدون (بيجال) كان على حق .. لقد اعترضنا طريق الجاسوس ، ونحن نطارده الآن .. أكرِّر .. اعترضنا طريق الجاسوس ، ونطارده الآن .. أرسلوا هليوكوبتر للمعاونة .. وبأقصى سرعة ..

لم يكد الرجل ينهى رسالته ، حتى صدرت الأوامر لطائرتى هليوكوبتر عسكريتين ، كانتا على أهبة الاستعداد ، فأقلعتا على الفور ؛ لتشتركا فى المطاردة .

وانفتح ذلك الباب الجديد من أبواب الجحيم ..

على مصراعيه ..

★ ★ ★

لم يدر الشاب أين يذهب بالضبط !

كان يجيد قيادة الدرَّاجة الآلية ، التى تدرَّب على قيادتها طويلاً وكثيرًا ، منذ التحق بالعمل فى المخابرات العامة المصرية ، باعتبارها وسيلة نقل خفيفة وسريعة ، وفعَّالة ، فى كل الظروف والأحوال ...

إلا أنه يجهل المسارات والدروب فى تلك المنطقة ..

يجهلها تمامًا ..

صحيح أنه نجح فى ارتياد أحد الدروب الضيقة ، وأجبر السيارتين العسكريتين على التوقُّف ، إلا أنه لا يدرى إلى أين سيقوده هذا !!

ولا ما الذى ينتظره ، فى نهاية الدرب !!

لذا فقد اتخذ قرارًا حاسمًا ..

ووضعه موضع التنفيذ على الفور ..

ودون تردُّد ..

وبينما كان راكب الدرَّاجة الآلية الإسرائيلى يطارده فى

إصرار ، فوجئ به يدور بدرّاجته بغتة ، واثبًا فوق صخرة صغيرة ، ثم يندفع نحوه مباشرة ..

وعلى الرغم من أن الإسرائيلى رجل أمن عسكرى محترف ، إلا أن تلك المبادرة المباغتة أربكته بحق ، فانحرف بدرّاجته فى حركة عنيفة ، محاولاً تفادى الارتطام بدرّاجة الشاب ، الذى مال على نحو مدهش ، وضمّ قبضته اليسرى ، ثم هوى بها على فك الإسرائيلى بلكمة كالقنبلة ، اقتلعت هذا الأخير من فوق درّاجته الآلية ، ودفعته فى اتجاه حركة درّاجة الشاب ، لأربعة أمتار كاملة ، قبل أن يسقط على الأرض فى عنف ، ويتدحرج فوقها فى قوة ..

ولكن العجيب أنه لم يفقد الوعى ..

لقد قفز واقفًا على قدميه ، فور استقرار جسده على الأرض ، واستلّ مسدسه من غمده ، فى نفس الوقت الذى دار فيه الشاب بدرّاجته البخارية ثانية ، وانقضّ عليه فى سرعة ، فوق الأرض الوعرة ..

وفى نفس اللحظة ، التى أطلق فيها الإسرائيلى رصاصته ، وثب الشاب بدرّاجته الآلية ، وسمع صوت الرصاصة ، وهى تخترق خزان وقودها ، قبل أن يضرب الإسرائيلى بإطارها الأمامى ، ويسقطه أرضًا فى عنف شديد ..

ومع سقوط الدرّاجة ، وثب عنها الشاب ، وترك جسده يتدحرج بعيدًا عنها ، فى نفس اللحظة التى حاول فيها الإسرائيلى النهوض ، و ...

وحدث الانفجار ..

انفجرت الدرّاجة البخارية ، بعد أن اشتعلت النيران فى خزان وقودها ، وأطاحت بالجندى الإسرائيلى ، وتردّد دوى انفجارها فى المنطقة كلها ..

وبسرعة ، ودون أن يضيع لحظة واحدة ، نهض الشاب يعدو نحو درّاجة الإسرائيلى ، ووثب فوقها ، وأدار مقبض الوقود ، واستعدّ للانطلاق بها ..

عندما ظهرت طائرتا الهليوكوبتر بغتة ..

وما إن لمحتا الشاب ، ينطلق بالدرّاجة البخارية العسكرية ، حتى انقضتا عليه ، وأطلقتا رصاصاتهما نحوه ..

وبأقصى سرعته ، وبكل ما يمتلكه من خبرة ومهارة ومران ، انطلق الشاب بالدرّاجة البخارية ، عبر الدرب الضيق ، وهو يحتمى ببعض الصخور البارزة ، فى محاولة لتفادى الرصاصات المنهمرة من أعلى كالمطر ..

ولو أن مراقبًا خارجيًا ألقى نظرة على هذا المشهد ، لأخذته الدهشة بشدة ، وهو يتطلّع إلى الدراجة البخارية ، التى تنطلق فى خط متعرّج ، على نحو مدهش ، فوق أرض شديدة الوعورة ، والرصاصات تتناثر من حولها ، وعلى جوانبها ، ولتساءل فى حيرة : كيف يمكنها المواصلة ، فى مثل هذه الظروف ، دون أن تخترقها رصاصة واحدة ، من هذا السيل المنهمر ؟!

والباحث عن الجواب لن يجد تفسيرًا منطقيًا واحدًا لهذا ..
سوى أنها إرادة الله (سبحانه وتعالى) ، ومشيئته ، التى تعلو كل القواعد والمنطق والقوانين ، وتجبّها جبًا ..

حتى قائدا الطائرتين أصابتهما الدهشة ، فهتف أحدهما فى حنق :

ـ مستحيل ! لا يمكن أن نخطئ إصابة الهدف إلى هذا الحد !

التقط زميله قوله ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى المشترك ، فقال فى غضب ، وهو يضغط زر إطلاق أحد الصاروخين ، على جانبى الهليوكوبتر :

ـ ربما يساعده مساره المتعرّج على تفادى رصاصاتنا يا رجل ،. ولكن ماذا سيفعل فى مواجهة صاروخ ؟!

قالها ، وسبّابته تضغط زر الصاروخ حتى آخره ، فهتف زميله فى ارتياع :

ـ لا .. لا تطلق الصاروخ ، على هذا الارتفاع المنخفض .

انطلق هتافه بعد فوات الأوان ..

وبعد أن سبق السيف العذل ..

وانطلق الصاروخ ..

ولأن مشيئة الله (سبحانه وتعالى) ، تعلو كل مشيئة ..

ولأن اسم الشاب لم يقدّر له بعد أن ينتقل من عالم الأحياء ، إلى سجلات الموتى ، فقد اعترضت طريقه صخرة صغيرة ، ما إن ارتطم بها الإطار الأمامى لدرّاجته ، حتى وثبت فى الهواء ، واندفعت إلى الأمام ..

فى نفس اللحظة ، التى ارتطم بها الصاروخ بالأرض ..
وكان الانفجار ..

ومن خلفه ، شعر الشاب بموجة التضاغط العنيفة ، التى ولّدها الانفجار ، تدفعه إلى الأمام أكثر وأكثر ، حتى بدا كطائر عجيب ، يحلّق على ارتفاع ثلاثة أمتار من الأرض ، تطارده عشرات الشظايا والصخور الصغيرة ، التى ارتطمت بظهره ، وصنعت فيه عشرات الجروح والكدمات ، قبل أن تهبط به الدرّاجة أرضًا ، وتدور حول نفسها ، ثم يسقطان معًا ، ووهج الانفجار لم يتلاش بعد ..

أما طائرتا الهليوكوبتر ، فقد أطلقت إحداهما ذلك الصاروخ ، وارتفع بها قائدها فى حركة غريزية ، عندما دوى الانفجار ، الذى باغت الهليوكوبتر الثانية بوهج مخيف ، وقطع مختلفة الأحجام من الصخور المتناثرة ، التى أصابت مروحتها ، وجسمها ، و..

وفقدت الهليوكوبتر توازنها ، مع تضاغط الهواء المباغت ، ومالت على نحو بالغ الخطورة ، فارتطمت أطراف مروحتها بصخرة بارزة كبيرة ..

ودوى انفجار آخر فى المنطقة ..

انفجار أكثر عنفًا ..

ومع ألسنة النيران ، المتصاعدة من الهليوكوبتر المحترقة ، احتقن وجه قائد الهليوكوبتر الأخرى ، وشعر بمسئوليته عما

أصاب زميله ، ولمح الشاب ، على وهج النيران ، وهو ينهض ، ويعود إلى درَّاجته البخارية ، وينطلق بها عبر الدرب الضيق ، فصرخ بكل ما يشتعل فى أعماقه من تطوّر وانفعال :

ـ لن تذهب بعيدًا .. لن تذهب بعيدًا أيها الجاسوس .

وانقضّ بكل ثورته على الدرَّاجة البخارية ، وراح يمطرها برصاصاته بلا هوادة ..

وفى هذه المرة ، كان الموقف أكثر صعوبة وخطورة وحساسية ..

فالشاب متعب مرهق ، نفدت قواه أو كادت ، وجسده مثخن بجراح وكدمات وسحجات لا حصر لها ..

والصراع لا يتوقَّف أبدًا ، و ...

وفجأة ، وجد نفسه أيضًا فى مواجهة سيارتى الدورية بجنودهما ، الذين يربو عددهم على العشرة ..

وكانت المفاجأة مزدوجة ، له ولهم ..

هم أيضًا باغتهم وجوده ، فارتفعت فوهات مدافعهم الآلية فى توتر ، ورأوا الهليوكوبتر تطارده ، وبدا لهم أن أمره قد انحسم تمامًا ، بين المطرقة والسندان ..

ولكن الشاب لم يكن أبدًا بالمقاتل العادى ..

إنه مقاتل فذ ، يمتلك إرادة من حديد ، وإصرارًا يلين له الفولاذ ..

كما أنه تلقّى تدريباته على يد (نسيم) ، أحد أفضل وأبرع

ضباط المخابرات العامة المصرية ، على مرّ تاريخها كله ..

ولكل هذا ، لم يفقد الشاب أعصابه لحظة واحدة ، عندما فوجئ بسيارتى الدورية أمامه ، والهليوكوبتر تطارده بكل الإصرار والشراسة ..

وفى سرعة ، وكما كان يفعل خلال تدريباته ، مال بالدرَّاجة الآلية نحو صخرة صغيرة بارزة ، وارتطم بها ، و ...

وقفزت الدرَّاجة الآلية ..

وكانت قفزة مدهشة ..

قفزة تجاوزت السيارتين الإسرائيليتين ، وعبرت بها فوق رءوس الجنود ، الذين أخذتهم الدهشة ، فانحنوا برد فعل تلقائى ، فى حين واصلت الهليوكوبتر انقضاضتها ، وراحت تطلق رصاصاتها خلف الشاب ، وكأن قائدها لم يلمح السيارتين العسكريتين ، فأصابت بعض رصاصاته الجنود الإسرائيليين ، وقتلت أحدهم ، قبل أن تتجاوزهم لتضرب الدرَّاجة البخارية ، التى يمتطيها الشاب ، قبل أن تهبط أرضًا ..

وشعر الشاب بإحدى الرصاصات تنسف الإطار الخلفى ، وبأخرى تخترق خزّان الوقود ، وثالثة تدمى ساقه ، قبل أن ترتطم الدرَّاجة بالأرض ، ويختلّ توازنها ، فتنقلب فى عنف ، وتطرحه عن متنها بلا هواده ..

وتدحرج الشاب على الأرض فى عنف ، وعندما توقَّف جسده ، واعتدل ، رأى الجنود الإسرائيليين يقفزون من

السيارتين ، ويعدون فى اتجاهه ، فى حين كانت الهليوكوبتر تدور فى الهواء ، وتعاود الانقضاض عليه بلا رحمة ..

ومع الأرض العارية المحيطة به ، والدرّاجة الآلية التالفة ، وكل هذا العدد من الجنود ، أدرك الشاب الأعزل أن أمره قد انتهى ..

وبلا رحمة ..

* * *

فجأة ، وبلا مقدمات ، دوى انفجار ثالث ، فى تلك المنطقة ، على مسافة كيلومترات قليلة من (اللّد) ..

انفجار نسف الهليوكوبتر الثانية فى الهواء ، وأطاح بها بغتة ، على نحو أذهل الجنود الإسرائيليين ، وفجّر دهشة عارمة فى أعماق الشاب ، إلا أن هذه الدهشة لم تلبث أن تلاشت ، عندما انطلقت صيحات قوية فى الجوار ، وبرز من خلف الأشجار عدد من المقاتلين الفلسطينيين ، وأحدهم يحمل قاذف صواريخ أمريكيًا ، من طراز (دراجون)(*) ، فى حين راح الآخرون يطلقون نيرانهم على الإسرائيليين ، الذين أخذتهم المفاجأة ، ففقدوا ثلاثة منهم ، قبل أن يحتمى الستة الباقون بالسيارتين ،

(*) دراجون : قاذف صواريخ محمول ، أنتجته وطوّرته شركة (ماك دونيل إيركرافت) الأمريكية ، عام ١٩٦٦م ، تم استخدامه لأوّل مرة عام ١٩٧٣م ، وأطلق عليه آنذاك اسم (ف ج م - ٧٧ أ) ، وأهم مميزاته إمكانية إطلاقه من أنبوب محكم الإغلاق ، وهو يصلح لإصابة الأهداف الأرضية ، أو الجوية المنخفضة فقط .

ويتبادلوا النيران مع الفلسطينيين ..

أما الشاب ، فلم يكد ينهض ، بعد سقوط الهليوكوبتر الثانية ، حتى فوجئ بالدليل (فوّاز) يندفع نحوه ، ويقول فى انفعال لاهث :

- حمدًا لله .. لقد وصلنا فى الوقت المناسب .. من حسن الحظ أننى نجحت فى إحضار الرفاق بهذه السرعة .

ثم جذبه بعيدًا عن دائرة القتال ، وهو يتابع بسرعة :

- هيا .. انصرف من هنا بسرعة ، فلن تمضى دقائق ، حتى يكتظ المكان بالإسرائيليين ، ويتحوّل إلى قطعة من الجحيم .. لقد أبلغونا فى (القاهرة) أن مندوبهم سيلتقى بك فى النقطة (س + ٣) .

وتوقّف ليضيف فى حزم :

- ولكنهم يؤكدون ضرورة التقائك به قبل منتصف الليل .. هذا أمر بالغ الأهمية إلى أقصى حد ، كما أخبرونا .

أشار الشاب إلى القتال الدائر ، قائلاً :

- لا يمكننى أن أترككم تقاتلون ، و ...

قاطعه (فوّاز) فى حزم :

- إنها ليست مهمتك .. اترك لنا هؤلاء الملاعين ، فنحن نجيد التعامل معهم ، منذ زمن طويل ، وأسرع أنت لتكمل مهمتك .

ثم أشار إلى شاب آخر ، هرع إليهما على الفور ، فقدّمه للشاب ، قائلا :

- (راغب) سيعمل على نقلك إلى (تل أبيب) ، عبْر طرق

خاصة ، لا يمكن أن تنتبه إليها الدوريات الإسرائيلية .. هيا .. انطلقا .. لكل دقيقة ثمنها الآن ..

تطلّع إليه الشاب بنظرة امتنان صامتة ، حملت كل ما يعجز لسانه عن النطق به ، ثم التفت إلى (راغب) ، قائلاً :

ـ هيا بنا ..

قبل أن ينطلقا مبتعدين ، أمسك (فوّاز) معصم الشاب ، وابتسم ، قائلاً :

ـ قبل أن تنصرف ، ينبغى أن تعلم أننى أدين لك بالاعتذار .

أطلّ تساؤل حائر من عينى الشاب ، فابتسم (فوّاز) ، مضيفًا :

ـ إنك تجيد قيادة الدرّاجات الآلية ببراعة مدهشة .

ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتى الشاب ، ولوّح بيده ، ثم انطلق مع (راغب) إلى الهدف الرئيسى ..

إلى (تل أبيب) ..

* * *

« رويدك يا (نسيم) .. »

قال أحد رجال المخابرات هذا ، فى حجرة الاجتماعات ، وهو يتطلّع مشفقًا إلى (نسيم) ، الذى بدا الإرهاق عليه واضحًا ، مطلاً من عينيه المحمرتين ، فالتفت إليه هذا الأخير بحركة عصبية ، جعلته يستطرد :

ـ هذا سابع قدح قهوة تتناوله ، منذ بدأ الاجتماع ، وأعصابك

الثائرة لن تحتمل كل هذه الجرعة من المنبهات .

مطّ (نسيم) شفتيه ، وقال فى عصبية زائدة :

ـ هذا شأنى .

وارتشف الرشفة الأخيرة من قدح القهوة ، قبل أن يتابع بنفس العصبية :

ـ (فاى) واجه الكثير هذه المرة ، ولست أدرى إلى متى سيحتمل جسده كل هذا الجهد .. أخشى ما أخشاه أن ينهار قبل المرحلة الأخيرة ..

تبادل الرجال نظرة متوترة ، شفّت عن أن هذا ما يخشاه الجميع بالفعل ، إلا أن أحدهم تمتم :

ـ نتعشّم ألا يحدث هذا .

مطّ (نسيم) شفتيه مرة أخرى ، مغمغمًا :

ـ نتعشّم ؟! هذا لا يكفى يا رجل .. لا يكفى أبدًا .

تبادل الرجال نظرة متوترة أخرى ، قبل أن يقول أحدهم ، فى شىء من الحزم :

ـ (نسيم) .. أنت بحاجة إلى الراحة .

هتف (نسيم) مستنكرًا :

ـ الراحة ؟! والآن ؟! مستحيل يا رجل ! لقد بدأ العدّ التنازلى بالفعل ، ولم يعد هناك مجال للتراجع .

ثم ألقى نظرة سريعة على ساعته ، قبل أن يستطرد بعصبية مفرطة :

ـ ولو أن كل شىء سار وفقًا للمخطَّط ، فالمفترض أن يكون الشاب الآن على مسافة كيلومترات من (تل أبيب) .

وانعقد حاجباه فى شدة ، مضيفًا :

ـ وأن يكون العريف (دافيد بتروفيسكى) فى طريقه إلى مقر عمله ، فى مطار (تل أبيب) الحربى .

نطقها (نسيم) ، دون أن يدرى أنه فى نفس اللحظة ، التى فارقت فيها الكلمات شفتيه ، كان (بتروفيسكى) يهبط من منزله غاضبًا ، والضمادات تغطى نصف رأسه ، وأنفه بأكمله ، ويغمغم ساخطًا ، وهو يستقلَّ سيارته الصغيرة :

ـ يا لهذا العمل المرهق البغيض !! رأسى يُشَبِّحَ وأنفى يتحطَّم ، ولا يمكننى الحصول على إجازة ليوم واحد ..

همهم بسباب ساخط ، وانطلق بالسيارة الصغيرة ، التى أطلقت فرقعة وقرقعة ، وانبعث منها ضجيج سخيف ، وهى تشقَّ شوارع (تل أبيب) ، حتى توقَّفت عند نقطة التفتيش ، فى مدخل المدينة ، وسأل (بتروفيسكى) جندى الحصار فى عصبية :

ـ ماذا يحدث هنا ؟! أنا عريف فى المطار الحربى ، ولدىَّ نوبة حراسة ، لابد أن تبدأ مع منتصف الليل .

مدَّ الجندى يده إليه ، قائلاً فى صرامة :

ـ أوراقك .

ناوله (بتروفيسكى) بطاقته العكسرية ، فطالعها الرجل فى

اهتمام ، وانعقد حاجباه فى صرامة متوترة ، وهو يقارن بين الصورة فيها ، وذلك الوجه المغطى بالضمادات أمامه ، فصاح به (بتروفيسكى) فى حنق :

ـ هل ترغب فى الحصول على بصمات أصابعى ؟!

صمت الجندى لحظة ، ثم أعاد إليه بطاقته العسكرية ، قائلاً :

ـ لن تكون هناك ضرورة لهذا .

استعاد (بتروفيسكى) بطاقته العسكرية ، وهو يتمتم بعبارات ساخطة ، وانطلق بالسيارة خارج المدينة ، متجهًا نحو المطار الحربى ، وهو يقول لنفسه :

ـ يا له من نظام سخيف !.. جاسوس يلقى مصرعه فى المطار ، فتقوم الدنيا ولا تقعد .. يا للسخافة !

لم يكد يتمَّ عبارته ، حتى فوجئ بشخص يندفع من بين الأشجار ، ويعترض طريق سيارته ، فضغط فراملها فى قوة ، وانحرف بها بحركة غريزية ، حتى توقَّفت خارج الطريق ، فخرج منها ملوِّحًا بقبضته وصائحًا فى غضب :

ـ اللعنة !.. ماذا أصابك أيها الـ ...

بتر عبارته بغتة ، وهو يحدِّق فى وجه الرجل ، الذى اندفع من بين الأشجار ، وهتف فى دهشة عارمة :

ـ يا للشيطان ! إنه أنت ؟!

كان نفس المخمور ، الذى أثار ثائرته عند الظهر ، وفعل به ما فعل ، والذى ارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة ساخرة ،

عندما أدرك أن (بتروفيسكى) قد تعرَّفه ، وقال :

ـ نعم .. إنه أنا .

وقبل حتى أن تنتهى كلمته ، كانت قبضته تهوى على فك الإسرائيلى بلكمة ساحقة ، أعقبها بأخرى فى معدته ، ثم ثالثة فى مؤخرة عنقه ، أسقطته فاقد الوعى ..

وبسرعة ، برز رجلان آخران من خلف الأشجار ، حملا (بتروفيسكى) جانبًا ، وابتعدا به عن المكان ، بعد أن حصل الرجل الأول على بطاقته العسكرية وأوراقه ، وتطلَّع إلى صورته ، ثم ابتسم مغمغمًا :

ـ عظيم .. إنه يشبهه كثيرًا بالفعل .

قالها ، والتقط حقيبة صغيرة من بين الأشجار ، ألقاها داخل السيارة الصغيرة ، التى استقلها ، وانطلق بها فى الطريق لكيلو مترين أو ثلاثة ، قبل أن ينحرف إلى طريق جانبى ، انطلق فيه لخمسة كيلو مترات أخرى ، ثم توقَّف ، وغادر السيارة ، وتلفَّت حوله لحظة ، ثم أطلق صفيرًا منغومًا ، أشبه بنداء أحد الطيور البرية ، التى تميِّز المنطقة ، وانتظر بضع لحظات ، حتى سمع صفيرًا مماثلًا ، فتنهَّد فى ارتياح ، وغمغم ، وهو يلقى نظرة على ساعته :

ـ الحادية عشرة والنصف .. عظيم .. كل شىء يسير على ما يرام .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى برز الشاب من خلف الأشجار ،

بصحبة (راغب) ، الذى بدا متوترًا للغاية ، وهو يتطلَّع إلى الرجل ، الذى قال بابتسامة هادئة :

ـ السماء مظلمة أكثر من المعتاد الليلة .

أجابه الشاب فى هدوء مماثل :

ـ ربما لأن القمر أسود اللون .

لم يفهم (راغب) شيئًا مما قاله الاثنان ، فانفرجت شفتاه ليلقى سؤالاً ما ، إلا أن الشاب التفت إليه ، قائلاً فى صرامة :

ـ هيا .. عد إلى قومك .

أطبق (راغب) شفتيه ، واحتفظ بسؤاله فى أعماقه ، وهو يومئ برأسه إيجابًا ، وسرعان ما اختفى بين الأشجار ، وتناهى وقع قدميه إلى مسامع الشاب ، وهو يبتعد .. ويبتعد ..

ويبتعد ..

وعندما أصبح خارج نطاق السمع ، قال الرجل فى اهتمام :

ـ ستجد فى تلك الحقيبة الصغيرة زيًّا عسكريًّا إسرائيليًّا ، مع ضمادات وأدوات تنكر ، ومهمتى هى أن أزيل كل مظاهر الاختلاف ، بينك وبين الجندى الإسرائيلى ، الذى ستنتحل شخصيته ؛ ليمكنك دخول المطار الحربى .. هيا .. أسرع ، فمن المحتم أن تصل إلى هناك قبيل منتصف الليل .

أسرع الشاب يرتدى الزى العسكرى ، وناوله الرجل الأوراق ، وبدأ فى التعامل مع ملامحه ، ليبدو أكثر شبهًا بالجندى ، ولتبدو إصاباته أقرب إلى الحقيقة ، تحت الضمادات التى

سيضعها على وجهه ، على نفس الوضع الذى توجد به على وجه (بتروفيسكى) ، وهو يقول :

ـ اسمك (دافيد بتروفيسكى) .. عريف إسرائيلى ، هاجر والداه إلى (إسرائيل) من (بولندا) ، ولهما ميول شيوعية ، لا يشاركهما فيها ابنهما (دافيد) ، المتزوِّج من (راشيل بولونى) ، مهاجرة شرقية ، ولم ينجبا أية أطفال ، و ...

واصل حديثه عن (بتروفيسكى) ، وأسماء رفاقه فى المطار ، ووظيفته هناك ، واسم قائده ، ورئيسه المباشر ، وموقعه ، وميوله ، وكل ما يمكن طرحه ، فى هذه الدقائق القليلة ..

ولم يقاطعه الشاب بحرف واحد ..

لقد استمع إليه فى انتباه تام ، وراح يحشو عقله بكل المعلومات الممكنة ، ويبذل قصارى جهده ، للحفاظ بها بين ثنايا مخه ، حتى انتهى الرجل من عمله ، فنهض الشاب ، وسأله فى اهتمام :

ـ أين يضع (بتروفيسكى) هذا سيارته ؟!

أجابه الرجل بابتسامة هادئة ، وقد راق له أن ينتبه الشاب إلى هذه النقطة :

ـ فى المربع رقم (١٢) ، فى الموقف الخارجى ، الخاص بالمطار .

أومأ الشاب برأسه متفهمًا ، والتقط مفاتيح السيارة ، وأدار محركها ، ثم انطلق بها ، دون أن يتبادل كلمة إضافية مع

الرجل ، الذى تلاشت ابتسامته فى بطء ، وتنهّد مغمغمًا :

ـ وفّقك الله يا فتى .. وفّقك الله فى مهمتك .

أما الشاب ، فقد انطلق بالسيارة فى الطريق ، الذى حفظه عن ظهر قلب ، خلال ساعات التدريب ، وراح يراجع كل ما سمعه من معلومات فى ذهنه ، حتى بلغ المطار ، فأوقف السيارة فى المربع رقم (١٢) ، واتجه بخطوات ثابتة نحو مدخل الجنود فى المطار ، ولم يكد حارس المدخل يلمحه ، حتى أطلق ضحكة قصيرة ، وهتف :

ـ مظهرك يثير الضحك بالفعل يا (بتروفيسكى) .. لقد أخبرونا بما فعله بك ذلك المخمور .

زمجر الفتى فى خشونة ، وقال بصوت لا يمكن تمييزه فى سهولة :

ـ كفى يا رجل .. كفى :

وتجاوز المدخل فى خطوات سريعة ، وكأنه لا يرغب فى مناقشة الأمر ، ولكن الجندى استوقفه ، قائلاً :

ـ معذرة يا (بتروفيسكى) ، ولكن الأوامر الليلة تحتم مراجعة كل الأوراق ، حتى بالنسبة للمعروفين .

مطّ الشاب شفتيه ، متظاهرًا بالحنق ، وهو يناول الحارس أوراقه ، فألقى عليها الرجل نظرة سريعة ، وقال :

ـ فليكن .. هيا يا (بتروفيسكى) ، نوبتك ستبدأ بعد قليل .

غمغم الفتى بنفس الخشونة :

ـ أعلم هذا .

ثم اندفع داخل المطار ، و ...

وفجأة ، وجد أمامه شخصًا يعترض طريقه ، فتوقّف ، ورفع عينيه إليه ، و ...

وتجمّدت مشاعره كلها ، عندما التقت عيناه بعينين قاسيتين نفاذتين ..

عينى واحد من أكثر رجال (الموساد) خطورة ..

(بيجال) ..

(بيجال يائيل) ..

شخصيًّا ..

* * *

١٢ ـ سماء الخطر ..

« (فاى) ينبغى أن يكون داخل المطار الآن .. »

نطق (نسيم) العبارة فى توتر بالغ ، وهو يتحرك داخل حجرة الاجتماعات فى عصبية ، فقال أحد رفاقه ، مشيرًا إلى الخريطة :

ـ رجلنا فى (تل أبيب) أبلغنا أنه قد انتحل شخصية (بتروفيسكى) بالفعل ، وانطلق إلى المطار فى سيارته الصغيرة . ولو سار كل شىء على ما يرام ، سيكون داخل المطار الآن بالفعل .

فرك (نسيم) كفيه فى عصبية ، قائلاً :

ـ نعم .. لو ..

تطلع رفاقه كلهم إليه فى صمت ، قبل أن يميل أحدهم نحوه ، ويقول :

ـ ماذا دهاك يا (نسيم) ؟!

التفت إليه (نسيم) فى حركة حادة ، قائلاً :

ـ ماذا هناك ؟!

قال زميله فى هدوء :

ـ إنها ليست أول مرة ، تتولى فيها أمر مهمة ما ، وليست المرة الأولى ، التى تتابع فيها عملاً كهذا خطوة فخطوة ، بل وكانت هناك عمليات سابقة ، أكثر أهمية وخطورة ، ولكننا لم

نعهدك قط بهذا التوتر الزائد ، إلا فى هذه المرة .

تطلع إليه (نسيم) بنظرة خاوية ، مغمغمًا :

ـ حقًا ؟!

تابع زميله فى اهتمام :

ـ لقد كنت أكثرنا هدوءًا وتماسكًا ، فى أصعب المواقف وأحلك الظروف ، حتى إننا كنا نطلق عليك اسم (الأسد الهصور) ، فماذا أصابك هذه المرة ؟!

شردت عينا (نسيم) بضع لحظات ، وجذب مقعدًا ، ليجلس عليه فى بطء ، ويشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وكأنه غارق فى تفكير عميق ، قبل أن يجيب :

ـ لست أدرى .. ربما هو عامل السن .. لقد تقدمت فى العمر عن ذى قبل .

هزَّ زميله رأسه نفيًا ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة مشفقة ، وهو يقول :

ـ كلاَّ يا (نسيم) .. ليس هذا هو السبب الحقيقى ، فالمرء يزداد حكمة ورصانة ، كلما تقدَّم به العمر .

ثم مال نحوه أكثر ، وأضاف :

ـ الحقيقة هى أنك تشعر بالخوف على الشاب .

ازدرد (نسيم) لعابه ، وهو يتطلع إلى زميله فى صمت ، فتابع الرجل ، وهو يتراجع إلى مقعده :

ـ لقد تسلَّمت أمره من (رفعت)(*) ، وأنت تشعر بالإعجاب تجاهه ، وبأنه يذكرك بشبابك ، كما قلت بنفسك ، ومع مرور الوقت ، وتوليك أمر تدريبه ، تضاعفت تلك الرابطة بينك وبينه ، حتى صار أشبه بابن لك ، توليه كل رعايتك واهتمامك ، خاصة وأنك لم تتزوَّج أو تنجب أبدًا .

واصل (نسيم) تطلعاته الصامتة إليه ، فأضاف فى صرامة :

ـ وهذا يعنى أنك تجاوزت الحدود المسموح بها فى علاقات العمل ، ووقعت فى الخطأ الذى لابد من تفاديه طوال الوقت .. لقد وقعت فى حب العميل يا (نسيم) ، وهذا يحتم ابتعادك عنه فى المرحلة القادمة ، حتى لا ..

قاطعه (نسيم) فجأة ، وهو ينهض من مقعده ، قائلاً :

ـ هراء .

ثم اتجه إلى الخريطة ، متابعًا بنفس التوتر :

ـ ولكننا سنناقش هذا فيما بعد ، عندما تنتهى هذه العملية ، أما الآن ، فالأمر الوحيد ، الذى ينبغى أن يشغل رءوسنا هو : هل نجح الشاب فى دخول مطار (تل أبيب) الحربى ، أم ...

لم يتم عبارته ، ولكن السؤال تفجَّر فى كل الرءوس بالفعل ..

هل نجح الشاب فى دخول المطار ؟!

هل ؟!

★ ★ ★

(★) راجع كوكتيل ٢٠٠٠ ـ العدد العشرين .. (البعث) ، وقصص أخرى .

لثوان ، خُيل للشاب أن نظرات (بيجال) اخترقت عينيه ، ونفذت إلى أعمق أعماقه ، لتفحص كيانه كله ، إلا أن هذا لم ينسه أن يؤدى التحية العسكرية فى احترام ظاهرى ، ويشد قامته فى قوة ، كما يفعل أى عريف بسيط ، أمام أحد قادته ..

ولم يردّ (بيجال) تحيته ..

لقد واصل التحديق فيه بنفس النظرة الصارمة المتفحصة ، حتى ارتفع من خلفهما صوت يهتف :

ـ (بتروفيسكى) .. لقد تأخرت على نوبتك .

استدار (بيجال) فى بطء ، يتطلَّع إلى الضابط ، الذى أطلق الهتاف ، فى حين أدَّى الشاب التحية العسكرية مرة أخرى ، وقال بعبرية سليمة :

ـ سيِّدى .. لقد تأخَّرت على موعد نوبتى .

عاد إليه (بيجال) ببصره ، وصمت لحظة أخرى ، واصلت نظراته خلالها اختراق كيان الشاب ، قبل أن يشير إليه ، قائلاً :

ـ اذهب .

تحرَّك الشاب فى خطوات سريعة إلى داخل المطار ، فى حين أشار (بيجال) إلى الضابط ، قائلاً :

ـ هل تعرفه جيِّدًا ؟!

أجابه الضابط فى بساطة :

ـ بالطبع .. إنه (دافيد بتروفيسكى) ، واحد من أفضل صف الضباط هنا .

سأله (بيجال) :

ـ ماذا أصاب وجهه ؟!

ابتسم الضابط ، وقال :

ـ لقد لكمه مخمور ، وحطمَ زجاجة خمر على رأسه فى الظهر ، فى أثناء مشاجرة بينهما ، بسبب غناء المخمور بصوت أجش ، أسفل نافذة حجرة نوم (بتروفيسكى) مباشرة .

ثم ضحك مستطردًا :

ـ والواقع أن شكله بهذه الضمادات مضحك للغاية .

قالها ، وراح يضحك فى قوة ..

ولكن (بيجال) لم يشاركه ضحكاته هذه .

ليس لأنه لا يميل للضحك فى المعتاد فحسب ..

ولكن لأن عقله لم يستوعب الأمر جيدًا ، على نحو ما ..

لقد وُلِدَت بذرة شك فى أعماقه ..

ولن تهدأ ، قبل أن تؤتى ثمارها ..

لن تهدأ أبدًا ..

أما الشاب ، فلم يكد يصبح داخل المطار ، حتى تحرك فى سرعة نحو ممرات الهبوط ..

وكم أدهشته دقة المعلومات لدى المصريين ، حتى إنهم رسموا له المكان بالتفصيل ، على نحو يشعر معه ، وكأنه زاره بنفسه من قبل ..

إنه سيقطع هذا الممر الدليل ، ثم يدور حول المبنى الإدارى ،

وبرج المراقبة الجوية ، وبعدها يصبح أمام المهبط مباشرة ..

يا للدقة !..

ها هى ذى ممرات الهبوط أمامه ..

والطائرة المنشودة هى الرابعة إلى اليمين ، فى الصف الأول .

وعلى الرغم من موقفه الشديد الحساسية ..

وعلى الرغم من الخطر المحيط به من كل جانب ، شعر الشاب بارتياح شديد ، وهو يتطلع إلى الطائرة (ف ـ ٢١) ، التى خاض كل ما خاض ، واحتمل كل ما احتمل ، حتى يصل إليها ..

كل المطلوب منه الآن أن يتجه إليها ، ويتظاهر بربط حذائه ، إلى جوار قائم إطارها ، ثم يحل ذلك الجزء ، الذى أخبروه عنه ، ويستعيد الميكروفيلم ، و ...

وفجأة ، أضىء ضوء أحمر عجيب فى أعماقه ..

شىء ما ، أنبأه بأن شخصًا ما يراقبه من بعيد ..

وفى بطء ، استدار الشاب خلفه ..

ووقع بصره عليه ..

على (بيجال) ، الذى وقف عند نهاية الممر ، يتطلع إليه بنظرة حادة طويلة ..

وفى أعماقه ، كان (بيجال) يدير الأمر أكثر من مرة ..

لماذا اليوم بالذات ؟!

لماذا يزعج شخص مخمور العريف (بتروفيسكى) ، ويجذبه

إلى اشتباك سريع ، يتحطَّم فيه أنفه على هذا النحو ؟!

لماذا ؟!..

ثم كيف يتمكَّن مخمور من فعل كل هذا بعريف إسرائيلى ، تلقَّى ـ على الأقل ـ التدريبات الأوَّلية للدفاع عن النفس ؟!

هناك شىء حتمًا ، كان يستلزم وجود هذه الضمادات ..

ربما لإخفاء شىء ما فى وجه (بتروفيسكى) هذا ..

أو ...

وفجأة ، وبلا مقدمات ، قفزت الحقيقة كلها إلى رأس (بيجال يانيل) ..

فجأة ، فهم لماذا حدث الاشتباك ؟!

ولماذا كانت الضمادات ضرورية !!

وفى نفس اللحظة ، التى قفزت فيها الحقيقة إلى ذهنه ، هتف (بيجال) ، مشيرًا إلى الشاب :

ـ أوقفوا هذا الرجل .. إنه ليس (بتروفيسكى) .

ومع صيحته ، تكهرب الجو فى المطار كله ..

واطلق الشاب يعدو ، فوق ممرات الهبوط والإقلاع ..

وبسرعة مدهشة ، استلّ (بيجال) مسدسه ، وأطلق النار ..

واطلقت صفارات الإنذار ، و (فاى) يعدو بكل قوته ، على الرغم من إصاباته المتعددة ، التى راحت تنزف الدماء مرة

أخرى ، فبدا كما لو أنه قد تحوَّل إلى كيس دماء ، ارتطم بقنفد ضال(*) ..

واخترقت واحدة من رصاصات (بيجال) فخذه ..

وتناثرت العشرات من حوله ..

ولكنه لم يتوقَّف ..

وواصل العدو ..

لقد تجمَّعت حواسه كلها فى ساقيه ، اللتين تحوَّلتا إلى آلتين للعدو ، فانطق بهما بسرعة مدهشة ، و (بيجال) يعدو خلفه ، صائحًا :

ـ أوقفوه .. إنه الجاسوس .. الجاسوس المصرى ..

واندفع الجميع من كل صوب نحو الشاب ..

ولكنه لم يتوقَّف لحظة واحدة ..

لقد اجتاز أبواب الجحيم ، حتى بلغ هذا المكان ..

ولن يتراجع عن هدفه الآن قط ..

مهما كان الثمن ..

ولقد انتبه (بيجال) فجأة إلى أنه يتجه نحو طائرة بعينها .. نحو (ف ـ ٢١٠) ..

(★) القنفد : حيوان ثديى آكل حشرات ، ليلى ، يكمن فى الشتاء ، جسمه مغطى بأشواك حادة ، تنتشر بين الشعر ، بعض أنواعه تستوطن (إفريقيا) و(آسيا) ، منها نوعان يعيشان فى (مصر) ، وهما (القنفد الحبشى) ، و(القنفد الأذانى) .

نفس الطائرة ، التى لقى عندها الجاسوس السابق مصرعه ..

واحتقن وجه (بيجال) ، وهو يصرخ :

ـ آه .. الميكروفيلم هناك .. كنت واثقًا من هذا .. كنت واثقًا من هذا .

ومع آخر حروف كلماته ، بلغ الشاب الطائرة (ف ـ ٢١٠) ، ووثب يتعلق بها ، قبل أن يقفز إلى كابينتها ، ويدير محركها ، وهو يجذب غطاء الكابينة فوقه ، فصرخ (بيجال) ، وهو يطلق رصاصاته كلها :

ـ امنعوه .. امنعوه بأى ثمن .. اتسفوا الطائرة .. حطموا الممرات ، ولكن امنعوه بأى ثمن ..

انطلق الجميع نحو الطائرة ، وراحوا يمطرونها برصاصاتهم ، التى ارتطمت بجسمها القوى ، وراحت ترتدّ عنه فى عنف ، والشاب ينطلق بها على ممر الإقلاع ، فصرخ (بيجال) :

ـ لا .. لا تجعلوه يقلع بها قط .

كان يدرك أن جسم الطائرة سيقاوم الرصاصات العادية ، وأن أحدًا من هؤلاء المهاجمين لن يمكنه إيقافها بأسلحة نارية تقليدية ، لذا فقد توقف لحظة ، ثم اندفع نحو جيب عسكرية ، وقفز داخلها ، ثم انطلق بها على الفور ، وهو يقول فى غضب وانفعال شديدين :

ـ الإطارات.. الجاسوس السابق وضع الميكروفيلم فى مكان ما، بالقرب من الإطارات .. كان ينبغى أن أدرك هذا .. كان ينبغى أن أدركه منذ البداية ..

وانطلق بالسيارة ؛ ليعترض طريق الطائرة ، التى زادت سرعتها على ممر الإقلاع ، وهو يقول فى غضب :

ـ والإطارات أيضًا هى الوسيلة الوحيدة ؛ لإيقاف ذلك المصرى .. لابد من نسف إطارات الطائرة ، قبل أن تُقلع .

وبجسارة حقيقية ، انقضّ على الطائرة بسيارته ، دون أن يبالى باندفاعها نحوه ، وصوّب مسدسه إلى إطارها الأمامى فى إحكام ، وهو يقول :

ـ هيا أيها المصرى .. الحق بزميلك فى الجحيم .

وأطلق النار ..

ولأنه رجل مخابرات محنّك ..

ولأن الأمر صار بالنسبة إليه ، أكثر أهمية من حياته نفسها .

نجح (بيجال) فى إصابة هدفه ..

وانفجر إطار الطائرة (ف ـ ٢١٠) ..

وبقوة ..

* * *

لم يكن من الممكن أبدًا أن يخطئ (بيجال) إصابة إطار طائرة ضخم ، وهو يندفع نحوه مباشرة ..

لذا فقد أصاب هدفه بمنتهى الدقة ..

ونسف الإطار ..

ولكن ليس فى الوقت المناسب ..

لقد انفجر الإطار ، بعد أن كانت الطائرة قد ارتفعت عن الأرض بالفعل ، وبدأت مرحلة الإقلاع ، التى لم تعد تعتمد على الإطارات ..

وبكل غضب وثورة الدنيا ، صرخ (بيجال) :

ـ لا .. لا .. مستحيل !

ثم أطلق شهقة قوية ، عندما انقضّ عليه الإطار المحطمّ ، فقفز من السيارة ، وتدحرج مبتعدًا عنها ، وهى تعبر الهواء فوقه ، وتنطلق بعيدًا ..

واتسعت عينا (بيجال) فى غضب وارتياع ..

اتسعتا وهو يحدّق فى الطائرة ، التى أقلع بها الشاب من المطار ..

الطائرة التى تحوى الميكروفيلم ..

والتى تحمل شهادة فشله كرجل مخابرات ، ومسئول أوّل عن أمن المطار الحربى ..

ثم صرخ .

صرخ يهتف بالجميع :

ـ ماذا تنتظرون ؟! انطلقوا خلفه .. انسفوه .. أسرعوا .

ولم تمض ثوان ، حتى أقلعت ثلاث مقاتلات إسرائيلية خلف الشاب ..

خلف (فاى) ..

★ ★ ★

ران صمت عجيب على حجرة الاجتماعات ، فى مبنى الأمن القومى ، داخل المخابرات العامة المصرية ، وتركّزت عيون الجميع على (نسيم) ، الذى بلغ ذروة توتره وعصبيته ، وهو ينقر بسبّابته ووسطاه على المنضدة ، قبل أن يهتفّ :

ـ أريد قدحًا آخر من القهوة .

أجابه أحدهم فى توتر :

ـ لقد نفدت القهوة .

صاح (نسيم) :

ـ نفدت ؟! ماذا تعنى ؟! لماذا لا يعدّون كمية إضافية منها .. إننا نحتاج إلى المزيد .

نهض زميل آخر ، يقول :

ـ اهدأ يا (نسيم) .. كلنا ننتظر النتائج على أحرّ من الجمر ، ولكن أعصابنا لا تلتهب على هذا النحو .. اهدأ .

صاح (نسيم) فى عصبية زائدة :

ـ أنا هادئ .. من قال إن أعصابى ملتهبة ؟! هه .. من قال هذا ؟!

ربّت ثالث على كتفه ، قائلاً :

ـ تمالك أعصابك يا رجل ، فحتى لو فشل الشاب فى استعادة الميكروفيلم ، فلن يعنى هذا خسارة فادحة ، فربما ..

قاطعه (نسيم) فى حدة :

ـ ومن قال إنه سيفشل ؟!

قال رابع فى حدة :

ـ كل شىء قابل للنجاح والفشل يا (نسيم) .

قال فى حدة :

ـ لسنا هنا لحضور محاضرة حول الفشل والنجاح .. إننا .

قبل أن يتمّ عبارته ، اقتحم أحد زملائهم حجرة الاجتماعات ، وهو يحمل جهاز اتصال لاسلكى كبير ، وهتف :

ـ (نسيم) .. إنها رسالة من (فاى) .. لابد أن تستمع إليها بنفسك .

ولم يدرِ (نسيم) كيف وثب عبر الحجرة ، ليختطف مسماع جهاز الاتصال ، ويهتف :

ـ (فاى) .. أين أنت ؟!

أتاه صوت الشاب ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى ، وهو يقول :

ـ أنا داخل الطائرة (ف ـ ٢١٠) .. فى سماء (تل أبيب) .

شهق الجميع فى دهشة ، وهتف (نسيم) فى انبهار :

ـ فى سماء (تل أبيب) ؟! ماذا حدث يا فتى ؟!

أجابه الشاب بسرعة :

ـ الأمور تطوّرت وتعقّدت فى سرعة ، ولم يمكننى انتزاع الميكروفيلم من الطائرة ، لذا فقد فررت بها من هناك .. ما الذى ينبغى فعله فى رأيك يا سيِّدى .

هتف (نسيم) :

ـ ابتعد بقدر الإمكان يا فتى ، فالمقاتلات الإسرائيلية ستنطلق خلفك حتمًا ، ولن يمكنك مواجهتها وحدك ، فأنت لم تكمل تدريباتك القتالية الجوية بعد ، ولست طيّارًا محترفًا .. ابتعد بأقصى سرعة .

سأله الشاب :

ـ فى أى اتجاه يا سيِّدى ؟!

انعقد حاجبا (نسيم) ، واستدار فى حركة حادة إلى الخريطة الكبيرة ، قبل أن يجيب فى توتر :

ـ نحو البحر يا فتى .. انطلق نحو الغرب مباشرة .

صمت الشاب لحظة ، ثم قال فى حزم :

ـ لقد بدءوا مطاردتى بالفعل يا سيِّدى .. سأضطر لإيقاف الاتصال مؤقتًا .

صاح به (نسيم) :

ـ اقفز خارج الطائرة يا (فاى) ... اتركها تسقط ، أو تغرق فى البحر ، ولكن لا تجازف بالمواجهة .. لن يمكنك أبدًا مواجهة المقاتلات الإسرائيلية .. هل تسمعنى ؟! هل تسمعنى يا (فاى) ؟!

ولكن جهاز الاتصال صمت تمامًا هذه المرة .

لقد أوقف الشاب الاتصال ..

مضطرًا ..

★ ★ ★

لم يكن باستطاعة الشاب بالفعل أن يواجه وحده ثلاث مقاتلات إسرائيلية ، يقودها طيارون حربيون محترفون ..

وكان يدرك هذا جيدًا ..

لذا فلم يحاول الاشتباك معهم قط ..

كل ما فعله ، هو أن واصل الانطلاق فوق البحر المتوسط ، نحو الغرب مباشرة ، وهو يهبط بالطائرة إلى أقل ارتفاع ممكن ..

وعبر جهاز الاتصال اللاسلكى ، أتاه صوت أحد الطيارين الإسرائيليين ، يقول فى صرامة :

ـ نحن نسيطر على الموقف تمامًا ، ونحاصرك من ثلاثة جوانب .. استسلم فورًا ، وعد معنا إلى المطار ، وإلا أطلقنا صواريخنا عليك مباشرة .

مطَّ الشاب شفتيه لحظة ، ثم دفع عجلة القيادة إلى الأمام ، قائلاً :

ـ اذهبوا إلى الجحيم .

واتسعت عيون الطيارين الثلاثة فى دهشة ، عندما مال بطائرته ، متجهًا نحو البحر مباشرة ، وقال أحدهم لزميليه :

ـ ماذا أصاب هذا المجنون ؟! هل يزمع الانتحار ؟!

أجابه زميله :

ـ بل يحاول الفرار منا ، بالطيران على ارتفاع منخفض .

ثم استطرد ، وهو ينخفض بطائرته بدوره :

ـ ولكنه لن يفلح .

انخفضت الطائرات الثلاث ، وواصلت مطاردتها لطائرة (فاى) ، وقائدها يكرِّر فى صرامة :

ـ إنذار أخير يا هذا .. عد معنا إلى المطار ، وإلا نسفنا الطائرة .. لا يوجد إنذار آخر .

ولكن الشاب تجاهل قولهم هذا ، وواصل انطلاقه بالطائرة على ارتفاع أمتار قليلة من سطح البحر ، فقال أحد الطيارين الثلاثة فى توتر :

ـ فليكن .. ليس لدينا خيار آخر .

وفتح غطاء صندوق أزرار إطلاق النار ، وهو يقول لزميليه :

ـ استعدوا لإصابة الهدف .

وعلى الرغم من أن كل كلمة ينطقونها كانت تبلغ أذنى الشاب ، الذى أعاد موجة البث إلى ما كانت عليه ، بعد حديثه مع (نسيم) ، إلا أنه واصل الانطلاق بمحاذاة سطح البحر ، بأقصى سرعة ممكنة ، على نحو جعل الطيار يقول لزميليه .

ـ استعدا .

ومع كلمته أحكم الشاب حزام مقعده ، وأمسك ذراعًا صغيرة إلى جواره فى قوة ، حتى سمع الإسرائيلى يقول :

ـ الآن .

وهنا ، وفى نفس اللحظة ، التى ضغط فيها الثلاثة أزرار إطلاق النيران ، جذب الشاب تلك الذراع الصغيرة ، فطار غطاء الكابينة فى عنف ، وقفز مقعده خارج الطائرة ، التى مالت نحو

البحر فى عنف ، قبل أن يصيب أحد الصواريخ الثلاثة ذيلها ، وينسفه فى عنف وقوة ..

ولم يفتح الشاب مظلة المقعد ، بعد أن قذفه خارج الطائرة ، وإنما تركه يهوى به إلى البحر ، ويغوص معه إلى الأعماق ..

ويغوص ..

ويغوص ..

وفى طائرة القيادة ، قال الطيار الإسرائيلى ، عبر جهاز الاتصال :

ـ من (شيلوك ـ ١) إلى القيادة .. اضطررنا للتعامل مع العدو مباشرة ، وتم نسف الطائرة فوق البحر ، خارج المياه الإقليمية ، وغاص الحطام فى الأعماق .

أتاه صوت قائده ، يقول :

ـ انتهت مهمتك يا (شيلوك ـ ١) .. عد إلى القاعدة فورًا .

استدارت المقاتلات الإسرائيلية الثلاثة ، عائدة إلى المطار ، تاركة سطح البحر خلفها هادئا ، بلا أثر للحياة ..

أى أثر :

★ ★ ★

١٤ ـ الختـــام ..

« إنه فى مكان ما هنا حتمًا .. »

نطق (نسيم) العبارة فى توتر ، وهو يتطلَّع إلى سطح البحر ، مع شروق شمس اليوم التالى ، وزورق الطوربيد ، التابع للبحرية المصرية ينطلق به ، فى نفس المنطقة التى سقطت فيها طائرة (فاى) ، فرفع قائد الزورق منظاره المقرَّب عن عينيه ، وقال فى قلق :

ـ لست أرى أى أثر له يا سيِّدى ، وأخشى أننا لا نستطيع التوغُّل أكثر من هذا ، وإلا أصبحنا داخل المياه الإسرائيلية ، وهذا يعنى اختراق القانون الدولى ، وسيؤدى إلى مشكلات دبلوماسية لا حصر لها .

قال (نسيم) فى حدة :

ـ مشكلات دبلوماسية ؟! أهذا كل ما يقلقك يا رجل ؟! هل تعتقد أننى استقللت الطائرة طوال الليل ، حتى يمكننى الوصول إليكم ، واصطحابكم إلى هنا ، بحثًا عن حل دبلوماسى ؟! إننا هنا للبحث عن شاب جازف بحياته دون تردُّد ، ودون التفكير فى أية مشكلات أو تعقيدات سياسية ، لمجرَّد أن هذا فى صالح (مصر) .. هل تفهم يا رجل ؟ لقد فعلها من أجل (مصر) .

أجابه قائد الزورق فى صرامة :

ـ أنا أيضًا أرفض خوض المياة الإقليمية الإسرائيلية من أجل (مصر) ، فهكذا تعلمت ، وهكذا الأوامر التى تلقيتها ، عندما توليت أمر العمل فى المياه الدولية .

مطَّ (نسيم) شفتيه ، قائلاً فى عصبية :

ـ إننا نتحدَّث عن حياة بطل مصرى .

هزَّ قائد الزورق كتفيه ، وقال :

ـ ومن أدراك أنه على قيد الحياة ؟! لقد أخبرتنى أن مصادرك الإسرائيلية تؤكد أن طائرته أصابها صاروخ ، وغرقت فى الأعماق ، فمن أدراك أنه لم يغرق معها ؟!

عقد (نسيم) حاجبيه ، دون أن يجيب ، فتنهَّد الرجل ، قائلاً :

ـ معذرة يا سيِّدى ، ولكننى مضطر للعودة ، و ...

قبل أن يتمَّ عبارته ، هتف أحد رجاله فى حماس :

ـ ها هو ذا !

التفت الجميع بسرعة إلى حيث يشير الرجل ، وهتف (نسيم) فى حماس :

ـ يا إلهى !.. هذا صحيح .. إنه هو .. أسرعوا نحوه .. إنه يسبح مقتربًا منا .. يا إلهى ! أراهن على أنه لم يتوقَّف عن السباحة طوال الليل .. يا له من فتى ؟!

انطلق زورق الطوربيد نحو الشاب مباشرة ، وما إن تم انتشاله ، وأصبح فوق الزورق ، حتى شدَّ قامته ، على الرغم من كل ما يشعر به من إرهاق عنيف ، أطلَّ واضحًا من كل خلجة من خلجاته ، ومن عينيه الذابلتين ، وأدى التحية العسكرية فى قوة ، وهو يواجه (نسيم) ، قائلاً :

ـ سيِّدى .

اندفع (نسيم) نحوه ، وربَّت عليه فى حرارة ، هاتفًا فى سعادة جمة :

ـ حمدًا لله على سلامتك يا فتى .. حمدًا لله .. كم تسعدنى نجاتك هذه المرة .

ارتسمت ابتسامة مجهدة ، على طرف شفتى الشاب ، وهو يقول :

ـ أشكرك يا سيِّدى .. أشكرك كثيرًا .

تطلّع إليه قائد الزورق فى انبهار ، ثم اتجه نحوه ، قائلاً :
ـ من الواضح أنك مجهد للغاية يا بطل .. هيا .. دع الرجال يعتنون بك ، فهم يجيدون هذا .
أومأ الشاب برأسه إيجابًا ، فى إرهاق شديد ، ثم التفت إلى (نسيم) ، ومدّ يده المضمومة إليه ، ثم فرد راحته ، قائلا :
ـ تم إنجاز المهمة بنجاح يا سيِّدى .
تألّقت عينا (نسيم) ، وهو يحدّق فى الميكروفيلم ، المستقرّ فى راحة الشاب ، ثم التقطه فى لهفة ، هاتفا :
ـ رباه !.. لقد غصت خلف الحطام ، وانتشلته .. أليس كذلك ؟!
ودون أن ينتظر منه جوابًا ، ربّت على كتفه فى حرارة ، مستطردًا :
ـ كنت أعلم أنك ستفعلها .. كنت واثقًا من هذا .. هيا اذهب لتحصل على قدر من الراحة ، حتى نبلغ المدمّرة ، وهناك سنجد هليوكوبتر فى انتظارنا ، لتعيدنا إلى الوطن .. هيا .
وامتلأت ملامحه بمزيج من الفخر والزهو والإعجاب ، وهو يتابع الشاب ، ثم التفت إلى قائد الزورق ، وأشار إلى صدره ، قائلا بفخر :
ـ لقد دربّته بنفسى .
قالها ، وشدّ قامته بدوره ، ووقف عند حافة الزورق بابتسامة عريضة ، يراقب قرص الشمس ، والزورق ينطلق بهم عائدًا إلى الوطن ..
إلى (مصر) ..

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]

اقرأ فى الكتاب القادم
من سلسلة فاى

عملية الأستاذ

* ماذا يحدث إذا ماقرّرت المخابرات الإسرائيلية اختطاف أحد ضباط المخابرات المصرية ؟!
* وماذا لو أن هذا الضابط هو (رفعت) ، مدرّب (فاى) ، وأستاذه الأول ؟!
* كيف تواجه المخابرات المصرية مثل هذا الموقف ؟! وما الذى يفعله (فاى) ومدرّبه (نسيم) ، لاستعادة (رفعت) ؟!
* اقرإ التفاصيل المثيرة ، وشارك بمشاعرك كلها مع البطل .. مع (فاى) .

العدد
القادم

زهـــرة ..

(خواطر)

منذ اللحظة الأولى ، التى وقعت فيها عيناى عليهـا ، أدركت أنها زهرة ..

زهرة برية ، بكل ما يحمله التصنيف من معان ..

فهى جميلة ، رقيقة ، بسيطة ، يفوح منها أجمل ما فى الطبيعة .

التلقائية ..

أنوثتها هادئة ، سحرها مدهش جذّاب ، وسنوات عمرها القليلة تمنحها مرحًا ناعمًا ، على الرغم من لمحة الخوف ،

التى تطلّ من عينيها طوال الوقت ، مع مزيج عجيب من القلق والتوتر ، تلمحهما العين المدقّقة ، ويضفيان عليها اللّمسة الأخيرة من لمسات الطبيعة ..

التفرُّد ..

نظرة واحدة إلى عينيها تفجّر فى أعماقك رغبة عارمة فى حمايتها ، والذود عنها ..

فى أن تحتويها بين ذراعيك ؛ لتقيها شرور الدنيا كلها ..

فى أن تصنع من رجولتك درعًا لأنوثتها ، تتلقّى عنها كل ضربات القدر ، وتقلّبات الدهر ..

إنها تستفز الفارس فى أعماقك ، وتستنفره ، ليهبَ لنجدتها ، من قبل حتى أن تستنجد أو تستغيث ..

شىء ما فيها ، يجعلك تتمنى القتال من أجلها ، حتى آخر قطرة فى دمك ..

وآخر لحظة فى عمرك ..

وكم أدهشنى أن أعلم بعدها ، أنها تحمل بالفعل اسم زهرة ..

زهرة برية ناعمة ، كنت ومازلت أتنشى برائحتها ، وأستعذب عطرها ، وأذوب عشقًا للونها الأبيض الهادئ الجميل ..

وعندما تقاربنا ، أدركت أنها تخفى فى أعماقها شيئًا ما ..

شيئًا يثب إلى عينيها بغتة ، كلما تطرّق الحديث إلى نقاط بعينها ..

ومن المؤكّد أن هذا الذى تخفيه ، أمر مهم للغاية ..

بالنسبة لها على الأقل ..

فهى لا تفصح عنه قط ..

ولا تخفيه فى أعماقها أبدًا ..

إنه دائمًا هناك ..

فى عينيها ..

وفى لمحة حائرة قلقة وسط نظراتها ..

ولم أحاول سؤالها عن سرها الخفى ..

لن أحاول ..

ربما لأننى لا أريد أن أفسد تلك اللحظات القليلة ، التى نقضيها معًا ..

أو لأننى أومن بأنه من حقها وحدها اختيار الزمان والظروف ، التى تفصح فيها عن مكنوناتها وأسرارها ..

ومن المؤكد أنها ستفعل هذا يومًا ..

شىء ما فى أعماقها ، وفى طبيعة شخصيتها ، يجعلنى واثقًا من أنها ستفعل ..

هذا لأن كل شىء فى حياتها تحكمه صفة مهمة .. التلقائية ..

نفس الصفة ، التى تجعلها أشبه بزهرة .. برية .

* * *

كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

المرأة مشكلة .... صنعها الرجل

(دراسة)

إلى الأمان يا (روميل) ..

فى أوائل الأربعينات من هذا القرن ، وعندما لاح للجميع أن الجيش النازى يحقق الانتصارات على طول الخط ، وأن القائد الألمانى (روميل) يكتسح الجيش البريطانى ، ويسحق مدرعاته فى الصحراء الليبية ، متجهًا نحو (مصر) ، تصوَّر بعض البسطاء أن وصول الألمان سيحقق حلمًا طال انتظاره ، بالخلاص من الاحتلال البريطانى ، لذا فقد تردَّدت فى المظاهرات ، وفى الشوارع ، وفى قلب المنازل أيضًا ، هتافات معادية للإنجليز ، ومؤيدة للألمان ..

وكان أشهرها هو ذلك الهتاف ، الذى يستحث (روميل) على مواصلة انتصاراته ، والمضى قدمًا إلى الأمام ، حتى يبلغ (مصر) .

ولكن (روميل) لم يستطع مواصلة انتصاراته ..

وانهزم فى الصحراء الليبية ، على يد القائد البريطانى الأشهر (مونتجومرى) ..

واستقرَّت أقدام البريطانيين فى (مصر) أكثر وأكثر ..

ومنذ بدء الخليقة ، أدركت المرأة أنها أقل قوة ـ بدنيًا ـ من الرجل ، وبدا لها أن الوسيلة الوحيدة للحصول على الأمان ، هو أن تظلّ فى كنفه ، وتحتمى بظله (الأفضل طبعًا من ظلّ الحائط ، كما تقول الأمثال الشعبية) ؛ لذا فقد ارتبطت به ، وأسلمته قيادها ، وقرَّرت أن تتبعه فى كل مكان يذهب إليه ، مطلقة شعارًا آخر ..

إلى الأمان يا رجل ..

والأمان أولاً ..

وقبل كل شىء ..

وعندما هبطت الأديان السماوية على البشر ، كانت كلها تستحثّ المرأة على طاعة الرجل والخضوع له ، وتطالبها بأن تكون له أطوع من بنانه ، كما تحتم عليه ـ فى المقابل ـ رعايتها ، والعناية بها ، وحسن معاشرتها ..

ولأن الانتماء والخضوع للأقوى جزء من طبيعة المرأة ، على الرغم من روح التمرُّد والعناد ، التى تطلّ برأسها كل حين وآخر (وبالذات عند قراءة هذه السطور) فلم تكن أمامها مشكلة كبيرة فى تنفيذ الأمر ..

لقد خضعت ، وأطاعت ، ولبَّت مطالب الرجل ومتطلباته ، فأعدَّت له طعامه ، ورتَّبت فراشه ، وغسلت ملابسه ، و .. ، و ..

ثم جلست تنتظر منه أن يقدِّم لها المقابل ..

الحنان ، والحب ، والرعاية ، والدفاع ...

ثم ـ وهو الأكثر أهمية ـ حسن المعاملة والمعاشرة ..

ولكن الرجل لم يؤد الأمانة ..

لقد استوعب من الرجولة ، ذلك الجزء الخاص بالقوة والسيطرة والتفوّق فحسب .

ونسى ، أوتناسى ، كل الأمور الأخرى ..

لم يحاول أن يقدِّم لها الحب والحنان ..

أو يحسن حتى معاملتها ..

لقد اعتبرها جنديًا فى جيش محدود ، هو قائده الوحيد ، فراح يأمر وينهى ، ويعاقب ، ويشكو ، ويغضب ، ويثور ..

وعلى أتفه الأسباب ..

ثم إنه ـ وهذا هو الجزء الأسوأ ـ افترض أنه صاحب كل ما يمكن أن يحصل عليه من دخل ، متناسيًا أن اللّه (سبحانه وتعالى) يرسل لزوجته وأولاده رزقهم عن طريقه ، وأن رزقهم هذا يمكن أن يفوق رزقه المنفرد بمرّات ومرّات ، وراح يتحكم فى وسائل إنفاق هذا الدخل ، ويستخدمه كوسيلة للسيطرة على زوجته ، وإثبات قوته وتفوّقه أمامها وفى مواجهتها ، إذا ما اقتضت الظروف ..

وهنا ، ومع كل العوامل السابقة ، فقدت المرأة ذلك الشعور بالأمان ، الذى كانت تسعى إليه ، عندما ارتبطت بالرجل ..

بل ، وعلى العكس تمامًا ، لقد سيطر عليها شعور مخيف بعدم الأمان ، مادامت واقعة تحت سيطرة الرجل ..

أى رجل ..

فخلال رحلة عمرها ، لم يحاول أى رجل منحها الشعور الحقيقى بالأمان ..

والدها عاملها دائمًا بصرامة ، حتى لا تشبّ عن الطوق ، وتخرج عن طاعته ، وتنحرف أخلاقيًا وجسديًا ، (ولست أدرى لماذا يقتصر هذا الحذر على البنات ، وليس على الأولاد ؟!)

وشقيقها أفرز أولى إحساساته بالرجولة ، فى بدايات فترة المراهقة ، على شكل سيل من التعليمات والانتقادات والأوامر إليها ..

ثم أتى زوجها ليجهز على ما تبقّى منها ، بتعنتات اجتماعية ، ومادية ، وأسرية ..

ولسنوات طويلة ..

طويلة للغاية ..

اضطرت المرأة للخضوع إلى هذا التعنت ، واستسلمت لمصيرها المظلم ، باعتبار أن هذا قدرها ، وأنه ليس بيدها تغييره ..

أو حتى الاعتراض عليه ..

ومع خضوعها واستسلامها المستمر ، تمادى الرجل فى غيه ، واختلّت عنده موازين الرجولة ، فتصوّر أنها الفوز بأفضل وأحسن الامتيازات ، والتفوّق على المرأة فى كل المجالات ، والسيطرة عليها فى كل الاتجاهات ..

وراح الرجل يخرج للعمل وحده (باستثناء البيئات الريفية والزراعية) ، فيكدّ ويكدح ، ثم يعود إلى منزله فى آخر اليوم ، منهكًا ، متذمرًا ، صارمًا ، قاسيًا ، يطالب المرأة بأن تفنى نفسها فى خدمته والعناية به ، وكأنها لم تكد وتكدح بدورها طيلة النهار ، حتى يجد الطعام والشراب والمنزل النظيف الهادئ ، عند عودته إليه ..

ورضيت المرأة ..

وتعبت ..

وتعذَّبت ..

ثم أتى العصر الحديث بغتة ، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ..

تغيَّر وجه العالم كثيرًا عن ذى قبل ، وحصلت المرأة على حريات أكثر ، وعلى الحقوق السياسية ، والاجتماعية ، و ...

وخرجت للعمل ..

وعند هذه النقطة الأخيرة بالتحديد ، تفجَّرت القضية ..

لقد بدأت تربح دخلها بكدّها وعرقها ..

تمامًا مثل الرجل ..

وهذا يعنى أنه لم يعد يتميَّز عنها ، فى هذا الشأن ..

فلماذا تسمح له بالتحكم فيها وإخضاعها إذن ؟!

وبدأ التمرُّد فى منتصف الخمسينات ، وراح يتصاعد ويتصاعد .

ومع تصاعده بدأ الرجل يشكو ..

وبدأ يعتبر المرأة مشكلة ..

إنه لم يعد يشعر بالارتياح والدفء فى منزله ..

لم يعد يجد فيه تلك الزوجة الهادئة الحنون ..

أو حتى الاستقرار المنشود ..

فزوجته أيضًا تذهب للعمل فى الصباح ، وتقضى فيه ساعات طويلة ، ثم يكون عليها ، بعد كل هذا ، أن تعود لترتيب المنزل ، وتنظيفه ، وإعداد الطعام ، ورعاية الأطفال ، وتنظيم الإنفاق ..

ثم ، وبعد كل هذا ، يأتى الرجل ليطالبها بالاهتمام به ورعايته !!

ومن الطبيعى ، بعد كل هذا ، أن تتعامل معه بعصبية زائدة ، وأن يتحوَّل العش الهادئ إلى ساحة قتال يومية ، يواجه كل طرف فيها الآخر بما يبذله من أجله ، ومن أجل الأسرة ، وتبدأ عملية حساب المجهود اليومى ؛ لمعرفة من بذل أكثر من الآخر .

وكرد فعل طبيعى ، يصبح الأطفال أيضًا عصبيين ، متوترين ، كثيرى الشجار مع بعضهم ، ومع زملاء النادى ، والمدرسة ، والشارع ..

وعندما يضيق صدر الرجل بكل هذا ، ولا يحتمل العودة إلى المنزل يوميًا ، لمواجهة كل هذا ، فإن ذهنه يتفتَّق عن فكرة ، تبدو له (بالتأكيد) منطقية وعملية للغاية ، فيجتمع مع زوجته يومًا ، ويطلب منها الاستقالة من عملها ، والتفرُّغ له وللمنزل والأولاد ، ثم يعرض عليها (بكرم حاتمى) أن يمنحها نفس الراتب ، الذى تحصل عليه من العمل ، متصوِّرًا أنه بهذا قد حسم الأمر ، وأنهى المشكلة ، وأعاد كل شىء إلى نصابه القانونى ..

ولكن جوابها دائمًا ما يدهشه ..

أو بمعنى أدق ، يصدمه (ولست أدرى لماذا) ..

فزوجته سترفض - وبمنتهى الشدة والحزم - مجرَّد مناقشة فكرة توقُّفها عن العمل ، بل وستؤكد له أنها متمسكة بعملها ،

وستظل فيه حتى النهاية ، ولو أدى الأمر إلى انفصالهما عن بعضهما ..

أو إلى الطلاق نفسه ..

وبالطبع يثور الزوج ، ويغضب ، ويشكو لطوب الأرض من تلك الزوجة الجاحدة المتعجرفة ، التى تفضّل عملها على زوجها وأولادها ، والتى تبيع استقرار الأسرة كلها ، من أجل حفنة جنيهات ، و .. و ..

وسيتعاطف معه ـ بالطبع ـ كل أصدقائه من الرجال ، الذين يعانون من المشكلة ذاتها ، دون أن يخطر ببال واحد منهم أن السبب فى كل تلك المشكلة ، التى صنعتها المرأة هو الرجل ..

والرجل وحده ..

فلو أنه نفّذ ما أمره به اللّه (سبحانه وتعالى) منذ البداية .

ولو أنه منحها الحب والدفء والحنان والرعاية ، وأدرك أن الرجولة الحقّة تحتم عليه أن يرعى شئونها ، ويعمل على راحتها ، قبل أن يحصل هو نفسه على الراحة والرعاية ..

ولو أنه أنفق عليها ، بما يرضى اللّه (عزّ وجلّ) ، ولم يتخذ المال وسيلة لإذلالها ، وتأديبها ، والسيطرة عليها ..

لو أنه فعل كل هذا منذ البداية ، لما كانت المشكلة ..

وعندما أكتب هذه الأسطر ، أكاد أسمع ـ مقدّمًا ـ أصوات المعارضين والمستنكرين ، الذين سيصرخون فى غضب واستهجان ، وسيؤكدون أن كل ما سلف مجرّد هراء ؛ لأن

مشاكل المرأة هى من صنع المرأة نفسها ، وليست نتاجًا لأخطاء الرجل ؛ لأن الرجل فى رأيهم لا يُخطئ أبدًا ..

فقط لأنه رجل ..

من الناحية التشريحية فقط ..

ولهؤلاء المعارضين والمستنكرين والمستهجنين ، دعونى ألقِ سؤالاً واحدًا ..

أنا واثق من أن كل رجل شرقى يحفظ ، عن ظهر قلب ، كل ما ورد فى الأديان ، عن حقوقه مع زوجته ، وواجباتها تجاهه .

ولكن كم منهم يعرف ما ذكرته الأديان عن حقوقها هى ، وعن واجباته تجاهها ؟!

كم منهم يهتمّ حتى بمنحها تلك الحقوق ، وتقديم كل الواجبات ؟!

المشكلة أيها السادة ، أن كل شىء فى الكون هو طريق ذو اتجاهين ..

فكما تأخذ تعطى ..

وكما تعطى تأخذ ..

والرجل يريد أن يحصل دائمًا على حقوقه مقدّمًا ، دون أن يلتزم بأية واجبات أو مسئوليات ، أو حدود ..

والمرأة ترفض أن تلعب دور المعطى دائمًا ، كما ظلّت تلعبه لقرون طويلة ..

لقد اتخذت قرارها بالانتقال من خانة العطاء إلى خانة الأخذ .

وبنفس التطرّف ..

وهذا أمر طبيعى ..

فقوانين الطبيعة علمتنا أن لكل فعل رد فعل ، مساوٍ له فى القوة ، ومضاد له فى الاتجاه ..

فما إن شعرت المرأة بالاستقلال الاقتصادى والمادى عن الرجل ، حتى تصوّرت أنه لم يعد له سلطان عليها ، فتمرّدت عليه فى عنف ، وهاجمته فى شدة ، واقتنعت بأن الهدف الوحيد من وجودها هو إثبات أنها أفضل منه ..

وفى الصحف والمجلات والكتب والدوريات ، راحت تطالعنا عشرات المقالات ، التى تحاول إثبات أن المرأة أكثر ذكاء ، وبراعة ، وإصرارًا ، و .. و ..

باختصار ، حاربت المرأة لتثبت أنها الأفضل فى كل شىء ..

واعتبرت الرجل هو الخصم ، والعدو اللدود فى هذه الحرب الضروس ..

وانقلبت الآية ..

أصبح الرجل هو المدافع ، بعد أن ظلّ طويلاً فى مركز الهجوم .

وفقد البيت استقراره بحق ..

وظهرت عبارات ، ومصطلحات ، وآراء جديدة ، توحى بأنه لا كيان للمرأة إلا فى العمل والاستقلال المادى ..

وكأنما الأمومة ليست عملاً ؟!

وليست كيانًا رائعًا للمرأة !!

وقبل أن أتحوّل إلى أحد أهداف الحرب ، وترمينى عشرات الخطابات بأننى أرفض عمل المرأة ، وأطالبها بالاكتفاء

بالأمومة ، دعونى أسألكم بالله عليكم ، هل كان التفكك الأسرى ظاهرة فيما مضى ، قبل أن تخرج المرأة للعمل ؟!

هل انتشرت المخدرات ، والعقاقير ، والتقاليع السخيفة بين الشباب ، كما يحدث الآن ؟!

هل كانت معدّلات الطلاق مرتفعة ، كما هى فى أيامنا هذه ؟!

أراهن على أن العديدين منكم سيشعرون بالارتباك ، وسيتساءلون : أى طرف أؤيّد فى هذا المقال ، الرجل أم المرأة ؟!

وأيهما (من وجهة نظرى) المسئول عما آل إليه الحال فى مجتمعنا ، فى هذه الأيام ؟!

ولكن ، لو أعدتم قراءة المقال ، فستجدون أن وجهة نظرى تختلف كثيرًا ..

فالوصول إلى الحالة السويّة ، يحتاج ـ كما سبق أن قلت ـ إلى اتجاهين متوازيين ..

وإلى حل المشكلة الأساسية ..

فلابد أن يعود الرجل إلى الرجولة الحقة ..

وأن تعود المرأة إلى الأنوثة الطبيعية ..

فعلى الرغم من كل ما حققته المرأة من تفوق ونجاح ، على الصعيد المالى والاقتصادى ، إلا أنها مازالت تفتقد إلى الشعور بالأمان ..

مازالت تشعر وكأنها تحارب الدنيا كلها ..

والخطأ الأكبر ، الذى وقعت فيه المرأة ، فى رحلة بحثها عن الأمان ، هو أنها تصورت أن الأمان يكمن فى المال وحده ..

لذا فقد سعت ، وجاهدت ، وقاتلت بكل قوتها ، بل وضحت بكل عزيز لديها ، حتى تظفر به ، وترقد فى دفئه ..

ولكنها ، وبعد كل هذا ، لم تشعر بالأمان ، الذى كانت تنشده .

فالأنثى ـ كل أنثى ـ لا يمكنها أن تشعر بالأمان إلا فى كنف رجل ، يمنحها الحب والحنان ، اللذين يحتاج إليهما توازنها النفسى والعاطفى ..

وهى تقضى عمرها كله فى البحث عنه ..

والخوف منه فى نفس الوقت ..

فعلى الرغم من احتياجها الشديد للرجل ، مازالت تخشى الارتباط به ، حتى لا ينتزع منها استقلالها المادى ، أو يفرض عليها إرادته وسطوته ..

مازالت تخشى أن تحب ، فتخضع ، وتستكين ..

وتعود إلى عبادة الرجل ..

لذا فالمشكلة تظل داخلها قائمة ..

تلك المشكلة ، التى صنعها الرجل ، والتى تضطرها للمضى قدمًا فى الحياة ، وهى تردد الهتاف نفسه ..

إلى الأمان ..

إلى الأمان ..... يا (روميل) .

د. نبيل فاروق

★ ★ ★

ذكريات كثيرة ينوء بها المرء ، لسنوات وسنوات ،
وتظل حبيسة عقله وصدره ، حتى يثقل بها رأسه ،
وتضيق معها أنفاسه ، فيتمنى ، أكثر مايتمنى ، أن
يطرحها عن نفسه ، ويرفع عبئها عن كاهله ..
ولكن بعض الذكريات ، لايمكن أبدا أن تطرح كاملة ..
ولأسباب عديدة ..
لذا ، فالمرء يتخفف من بعضها فحسب ، ويغزل فى
خياله مايربط خيوطها ببعضها البعض ..
ولعل فى هذا مايكفى ..
هذه المرة على الأقل .

د. نبيل فاروق

١ ـ البطـل ..

« ما الذى تفعله هنا بالضبط ؟! »

انطلقت تلك الصيحة الهادرة تخترق أذنىَّ ، وأنا مستغرق بكيانى كله فى قراءة أحد الملفات ، فانتفض جسدى فى عنف ، وقفزت من مقعدى بحركة آلية ، واستدرت أحدِّق فى رجل قوى البنية ، عريض المنكبين ، أصلع الرأس ، حازم الملامح والنظرات ، انقضَّ علىَّ بحركة حادة ، واختطف الملف من أمامى ، مستطردًا :

ـ أين تظن نفسك ؟! فى مكتبة عامة ؟!

أصابنى ارتباك حقيقى ، جعلنى ألوِّح بيدى ، متمتمًا فى خفوت :

ـ لقد .. حصلت على تصريح خاص ، و ...

قاطعنى فى استنكار غاضب :

ـ تصريح خاص ؟! أى تصريح هذا ؟! ماذا أصاب جهاز المخابرات ؟! هذه الملفات سرية للغاية !

كان يتحدَّث بصوت مرتفع ، وهو يلوِّح بالملف فى وجهى ، بأسلوب أقرب إلى التهديد والوعيد ، مما أصابنى بالمزيد من الارتباك والاضطراب ، وجعلنى أكرِّر :

ـ معى تصريح خاص .

سألنى فى حدة :

ـ ومن منحك مثل هذا التصريح ؟!

ازدردت لعابى فى صعوبة ، وهممت بالإجابة ، لولا أن لمحت وجهًا مألوفًا عند باب الحجرة ، وصاحبه يجيب بابتسامة هادئة :

ـ أنا !

انعقد حاجبا الأصلع فى شدة ، والتفت إلى صاحب الجواب بحركة عنيفة ، ثم لم يلبث أن اعتدل فى وقفته ، وهو يقول :

ـ السيِّد (أشرف) ؟! معذرة ، ولكننى لمحت وجهًا غير مألوف ، يطالع أحد ملفات المخابرات ، مما استفزَّ مشاعرى ، و ...

قاطعه السيِّد (أشرف) بنفس الابتسامة الهادئة ، وهو يربِّت على كتفه فى رفق :

ـ أعلم هذا .. أعلم هذا .. لو أننى فى مكانك لما اختلف رد فعلى كثيرًا .. وأشكرك كثيرًا على حماسك لتنفيذ الأوامر والتعليمات ، وغيرتك على أمن العمل وأسراره .

أومأ الرجل برأسه ، وغمغم :

ـ معذرة مرة أخرى يا سيِّد (أشرف) .

قالها ، واستدار إلىَّ بملامح هادئة ، تختلف تمامًا عن ملامحه الغاضبة الثائرة ، وأدهشتنى ابتسامته العذبة ، وهو يمدّ يده ليعيد إلىَّ الملف ، قائلاً :

ـ تقبَّل أسفى .

أجبته بسرعة ، وكأننى أخشى أن يتراجع :

ـ بالتأكيد .

أومأ برأسه فى هدوء ، وهو يمنحنى ابتسامة أخرى ، قبل أن يغادر الحجرة ، ويغلق بابها خلفه فى هدوء ..

ولثوان ، ظللت أحدِّق فى باب الحجرة ، حتى سمعت السيِّد (أشرف) يقول :

ـ هل أفزعك ما فعله ؟!

أجبته مع تنهيدة كبيرة :

ـ لقد جفت الدماء فى عروقى .

أطلق ضحكة هادئة ، وربَّت على ظهرى ؛ ليعيدنى إلى مقعدى ، وهو يلتقط مقعدًا ، ويجلس أمامى عبْر المائدة ، قائلاً :

ـ ضع نفسك فى موضعه ، وتخيَّل أنك تتعامل طوال عمرك ، باعتبار أن أية ورقة هنا تخضع لقواعد السرية المطلقة ، ثم فوجئت بشخص مجهول يطالع أحد ملفات العمليات السرية ، فكيف يكون رد فعلك ؟!

حاولت أن أبتسم ، مغمغمًا :

ـ كنت سأقتله .

أطلق ضحكة أخرى ، قبل أن يقول :

ـ هذا يعنى أنه كان رحيمًا بك .

شاركته ضحكته ، قائلاً :

ـ بالتأكيد .

استرخى فى مقعده ، ورمقنى بنظرة طويلة صامتة ، ثم سأل فى هدوء ، لا يخلو من اهتمام ملحوظ :

ـ هل قرأت الملف كله ؟!

أومأت برأسى إيجابًا ، وقلت :

ـ إنها عملية ممتازة ، ألقيتم القبض فيها على الجاسوس بمهارة واضحة ، وصفعتم المخابرات الإسرائيلية صفعة قوية ، تردَّد رنينها طويلاً .

ابتسم فى هدوء ، وشبَّك أصابع كفيه أمام وجهه ، متمتمًا :

ـ عظيم .

نطقها ، وهو يتطلَّع إلىَّ فى اهتمام واضح ، وكأنما ينتظر المزيد ، إلا أننى لذت بالصمت طويلاً ، واحترم هو صمتى هذا ، فلم ينطق بحرف واحد ؛ ليمنحنى زمام المبادرة ، وحاولت أنا أن أقول شيئًا ، إلا أن الكلمات تعثَّرت فى حلقى ، فأطلقت سعالاً محدودًا ، قبل أن أغمغم :

ـ معذرة .

أشار بيده فى هدوء ، وابتسم قائلاً :

ـ لا عليك .

عاد الصمت يغلفنا بعدها ، وهو يتطلَّع إلىَّ بنظرة فاحصة عميقة ، من بين أصابعه المتشابكة ، قبل أن يعتدل فى مجلسه بغتة ، ويسألنى :

ـ لماذا تقدَّمت بطلب نشر بعض أعمال جهاز المخابرات ؟!

كان سؤاله مباغتًا فى تلك اللحظة ، فحدَّقت فى وجهه لحظة ، قبل أن أقول :

ـ المفترض أننى أجبت هذا السؤال بالفعل ، قبل أن يتمّ منحى التصريح الخاص بمطالعة هذا الملف .

أجابنى ، وهو يتطلع إلى عينىَّ مباشرة :

ـ لقد قرأت جوابك ، الذى تقول فيه : إن هدفك من نشر أعمال المخابرات هو تحسين الصورة الذهنية للجهاز ، عند عامة الشعب ، وإعلان بطولاته ، حتى يطالعها الشباب ، ويدركون ما يبذله الوطن من أجلهم ، وأن لبلدهم جهازًا أمنيًا قويًا ، يمكنه التصدّى للأعداء بحزم وصرامة ، وتحقيق انتصارات مبهرة فى صراعه معهم أيضًا .. كل هذا جميل ومنمَّق وحماسى للغاية ، وربما كان السبب فى موافقة اللجنة على الفكرة ، ولكننى هنا أسألك عن السبب الحقيقى .

غمغمت ، وعيناه تبدوان لى أشبه ببحر عميق ، لا يمكنك خداعه ، أو الفرار منه قط :

ـ السبب الحقيقى ؟! أى سبب حقيقى ؟!

رفع أحد حاجبيه ، وخفضه مجيبًا :

ـ الشهرة .. الثراء .. التميُّز .. هناك أسباب عديدة ، تخالف كل ما ذكرته فى جوابك الرسمى .

ضايقنى قوله ، وبدا لى أشبه بالإهانة ، فطال صمتى ،

واكستبت نظرتى شيئًا من التحدّى والعناد ، وأنا أتطلّع إلى عينيه مباشرة ، ثم قلت :

ـ لماذا تلقى هذا السؤال ؟!

ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة ، وهو يتراجع ليسترخى فى مقعده ، ويقول فى هدوء استفزّ مشاعرى :

ـ لأننى واثق من أنك تبحث عن شىء غير تقليدى .

سألته فى شىء من العصبية :

ـ وما مصدر هذه الثقة ؟!

أشار إلى الملف الذى أحمله ، قائلاً :

ـ هذا .

انعقد حاجبىَّ فى دهشة بالغة ، وأنا أنقل بصرى إلى الملف ، قبل أن أهتف مندهشًا ومستنكرًا :

ـ وماذا فى هذا الملف ؟!

أجابنى بنفس الهدوء :

ـ العملية التى يحويها هذا الملف واحدة من أفضل عملياتنا على الإطلاق ، والجاسوس الذى ألقينا القبض عليه فيها ، أحد أكثر ضباط (الموساد) خطورة ، ولقد شاركت فى العملية بنفسى ، وأعلم مدى قوتها ، وعلى الرغم من هذا ، فحديثك وصوتك يخلوان من الحماس تمامًا ، مما يوحى بأنك لم تحصل على ما كنت تسعى إليه .

تطلّعت إليه فى دهشة أكبر ، وأنا أتساءل : كيف أمكنه أن

يغوص فى أعماقى ، ويسبر أغوارى على هذا النحو ؟!

كيف أمكنه أن يتسلّل إلى وجدانى ، ويكشف منه ما حرصت أشدّ الحرص على كتمانه ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

خُيِّل إلىَّ لحظتها أنه ليس مجرّد رجل مخابرات عادى ..

إنه ساحر ..

قارئ أفكار ، يمكنه قراءة كل ما يدور فى خلايا مخى الرمادية ..

أو خبير نفسى ، لا يشقّ له غبار ..

أى شىء ، إلا مجرّد رجل عادى ..

وبكل ما يعتمل فى أعماقى من دهشة ورهبة ، مع شىء من التوتر ، غمغمت :

ـ أنت على حق .

لمحت فى عينيه بريقًا ظافرًا ، استغرقت لحظة واحدة ، ثم تلاشى فى سرعة ، وهو يتطلّع إلىَّ فى صمت رصين ، يخفى اهتمامًا شغوفًا ، جعلنى أتابع :

ـ الواقع أننى ، عندما أتيت إلى هنا ، وتقدّمت بذلك المطلب ، لم أكن أسعى للحصول على عملية مبهرة ، من عمليات المخابرات العامة .. ليس هذا ماكنت أبحث عنه .

اعتدل فى مجلسه ، وهو يسألنى :

ـ ما الذى كنت تبحث عنه إذن ؟!

صمت ، وصمت ..

وتطلَّع كل منا إلى عينى الآخر طويلاً ..

طويلاً :

وربما أطول مما ينبغى ..

وأخيرًا أجبت ، بكل ما فى أعماقى من حزم وحسم :

ـ كنت أبحث عن بطل .

رفع أحد حاجبيه ، مردِّدًا فى دهشة ، لم يستطع إخفاءها :

ـ بطل ؟!

شملنى حماس مباغت ، وأنا أجيب :

ـ نعم .. بطل .. بطل مصرى ، يزيح كل الأبطال الأجانب الآخرين أمامه ، ويستقر وحده فى وجدان الشباب ، حاملاً قيمنا ، ومبادئنا ، وتقاليدنا الدينية والاجتماعية ، التى لن تتوافر قط فى بطل أجنبى ، مهما بلغت قوته وبطولته ، ومهما بهر عقول الشباب ، واستولى على قلوبهم ..

تطلَّع إلىَّ لحظة ، وعيناه تحملان تأثرًا واضحًا ، قبل أن يقول فى خفوت :

ـ وكنت تتوقَّع أن تجد هذا فى ملفات المخابرات :

تنهَّدت فى عمق ، ولوَّحت بيدى ، قائلاً :

ـ بل تمنيت هذا .

انعقد حاجباه فى شدة ، وخُيِّل إلىَّ أنه غارق فى تفكير

عميق ، جعلنى ألوذ بالصمت ، وأعتدل فى مجلسى ، وأتطلَّع إليه بلهفة واضحة ، وقلبى يخفق فى قوة ، وعقلى يهمس لى بأنه يحمل لى جوابًا مدهشًا ..

جوابًا يثلج صدرى ، ويمنحنى كل ما حلمت وأحلم به منذ صباى ..

البطل ..

البطل المصرى ..

العربى ..

البطل الذى يحمل كل ما تمنيته طوال عمرى ..

القوة ..

الوطنية ..

البراعة ..

الحماس ..

الشجاعة ..

البأس ..

والاسم ..

اسم (مصر) ..

ولدقيقة كاملة أو أكثر ، ظلَّ السيِّد (أشرف) غارقًا فى أفكاره وصمته ، ثم لم يلبث أن رفع عينيه إلىَّ ، وقال :

ـ هل انتهيت حقًا من مطالعة الملف ؟!

كان السؤال مباغتًا غير متوقَّع ، حتى أننى حدَّقت فى وجهه

لحظة ، قبل أن أجيب بصوت خافت :

ـ نعم .. لقد طالعته كله .

نهض يلتقط الملفَ من يدى ، قائلاً :

ـ عظيم .. حاول أن تتعايش مع أحداثه فى أعماقك ، ثم قدِّم لنا ملخصًا لما ستكتبه أولاً .

سألته متوترًا :

ـ ألا يمكننى الحصول على نسخة من الملف ؟!

ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة ، تحمل جوابًا بالنفى ، وربَت على كتفى ، قائلاً بلهجة لم يمكنى هضمها فى سهولة :

ـ أرنا كيف ستقدِّم هذا العمل للناس .

كان هذا آخر ما تبادلناه من حديث ، حول العمل وأحواله ، وبعدها انتقل حديثنا إلى أمور بسيطة معتادة ، وناقشنا حدثًا سياسيًا مهمًا ، كان يشغل أذهان الجميع فى تلك المرحلة ، وهو يسير إلى جوارى كالمعتاد ، حتى البوَّابة الرئيسية لجهاز المخابرات العامة ، ولوَّح بيده فى مودَّة ، مع ابتسامة أنيقة ، عندما انطلقت بسيارتى لمغادرة المكان .

وكانت كل خلية فى جسدى ترتجف ، فى ذلك الحين ، من فرط التوتَر والانفعال ، وقلبى يواصل خفقاته القوية ، التى تنتفض بها عروقى ، وعقلى يصرّ على أن الأيام القادمة ستحمل لى حلم صبابى وشبابى ونضجى ..

الحلم الذى اقتحمت من أجله عالم الأدب ، متخليًا عن

سنوات طويلة من الدراسة العلمية العملية الشاقة ..

حلم البطل ..

المصرى ..

★ ★ ★

مضى شهر كامل على هذا اللقاء ، وأنا أنتظر اتصال السيِّد (أشرف) فى لهفة ، جعلتنى أختطف سمَّاعة الهاتف ، فى كل مرة ينطلق فيها رنينه ، إلا أنه لم يجر اتصالاً واحدًا بى ، طوال تلك الفترة ، حتى إن ثقتى فى مشاعرى تراجعت ، وبدا لى أن ملامح التفكير العميق ، التى ارتسمت على وجهى ، فى تلك الليلة ، ونحن نجلس معًا داخل أحد مبانى جهاز المخابرات العامة ، لم تكن سوى لمحة من دهشته واستنكاره ؛ لأننى حاولت البحث عن بطل أسطورى ، بين ملفات المخابرات العامة المصرية ..

بطل يصلح كنموذج لأفلام السينما الأمريكية ، بأكثر مما يصلح كحقيقة واقعية ، شخص عاش وقاتل ، وربما مات أيضًا ، من أجل (مصر) ..

ولم يستطع الحلم الكامن فى أعماقى أن يحتمل كل هذا الانتظار ..

وتوتَّرت كل خلية فى كيانى ، مع مرور الوقت ، حتى لم يعد باستطاعتى كتابة حرف واحد ، فى ذلك الملخص ، الذى طلبه السيِّد (أشرف) ، للعملية التى طالعت ملفَّها ..

شعور عجيب هذا ، الذى ينتاب المرء ، عندما يلوح له أن حلم حياته صار قريب المنال ، ثم يباغت بأنه قد انطلق بعيدًا .. بعيدًا ..

أبعد حتى من أفاق البصر ..

ولم يكن من السهل أبدًا أن أهضم هذا الشعور ، أو أتجاهله .

كنت أشعر بغصة فى حلقى طوال الوقت ، وبفقدان للشهية تجاه كل شىء ..

وأى شىء ..

ولكن القدر كان يدّخر لى ما لم أتوقّعه قط ..

فذات يوم ، وبعد مرور ثلاثة وثلاثين يومًا بالتحديد ، على لقائى بالسيِّد (أشرف) ، انطلق رنين هاتف مكتبى ، ليفاجئنى صوته الهادئ الحازم ، وهو يقول :

ـ مساء الخير يا دكتور .

كدت أقفز من مقعدى ، وأنا أهتف بحماس منقطع النظير :

ـ صباح الخير يا سيِّد (أشرف) .. كيف حالك ؟! لقد اشتقت لسماع صوتك كثيرًا ، فمنذ ..

قاطعنى فى حزم :

ـ ألديك أية ارتباطات خاصة الليلة ؟!

باغتتنى مقاطعته ، وأدهشنى سؤاله ، وعلى الرغم من هذا فقد أجبت بسرعة :

ـ مطلقًا .. أنا رهن إشارتك .

قال فى اهتمام :

ـ عظيم .. سأنتظرك فى السادسة بالضبط .

قالها ، وأنهى المحادثة ، ودون أن يضيف حرفًا واحدًا ، وتركنى أرتجف من فرط الانفعال ، وأطرح على نفسى عشرات التساؤلات ..

ما الغرض من اتصاله هذا ؟!

إنه لم يسألنى حتى عما فعلته بشأن الملخَّص المطلوب ..

فما الذى يريده إذن ؟!

تُرى هل .....

لم أستطع .. أو لم أجرؤ على استكمال السؤال الأخير فى أعماقى ..

لقد انتفض جسدى فى عنف ، لمجرَّد التفكير فيه ..

ولم يتوقَّف انتفاض جسدى وارتجافه قط ..

لم يتوقَّفا ، حتى وصلت إلى جهاز المخابرات العامة ، قبيل السادسة بدقيقتين ..

وهناك ، استقبلنى السيِّد (أشرف) بملامح جادة رصينة ، وألقى نظرة على ساعته ، وهو يصافحنى ، قائلاً :

ـ أهلاً يا دكتور .. يروق لى كثيرًا التزامك بدقة المواعيد ، فهذا فى رأيى أحد أهم عوامل النجاح .

أردت أن أجيب عبارته بتحية رقيقة ، ولكننى وجدت نفسى أبذل جهدًا شاقًا ، لأنتزع من حلقى كلمة واحدة مختنقة :

ـ أشكرك .

ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة مشفقة ، وكأنما يدرك ما يعتمل فى أعماقى من انفعال ، وربّت على ظهرى فى رفق ، قائلاً :

ـ هيا بنا .

سألته فى انفعال أكثر :

ـ إلى أين ؟!

حملت شفتاه ابتسامة صامتة غامضة ، وهو يقودنى إلى سيارة صغيرة مصرية الصنع ، ويدعونى للجلوس على مقعدها الخلفى ، ثم يجلس إلى جوارى ، ويشير إلى السائق ، قائلاً فى هدوء عميق :

ـ هيا بنا ، على بركة اللّه .

انطلقت بنا السيارة ، التى غرقت فى صمت تام ، والسيّد (أشرف) مسترخ فى مقعده ، مسبل الجفنين ، وملامحه ما زالت جادة رصينة ، فى حين واصل جسدى ارتجافاته ، وأنا أتابع الطريق فى لهفة ، وأتساءل فى أعماقى : إلى أين يأخذنى هذه المرة ؟!

وأين سنذهب ؟!

أين ؟!

أين ؟!

وعندما تجاوزت السيارة مطار (القاهرة) ، وبدأت

انطلاقتها فى طريق (الإسماعيلية) الصحراوى ، لم أطق صبرًا على الصمت ، وسألته فى لهفة شديدة :

ـ إلى أين نذهب ؟!

صمت طويلاً ، حتى خُيِّل إلىَّ أنه لم يسمعنى ، ثم لم يلبث أن أجاب ، دون أن يفتح عينيه :

ـ لقد عرضت مطلبك على اللجنة المختصّة فى الجهاز ..

غمغمت فى توتّر :

ـ مطلبى ؟!

تابع ، وكأنه لم يسمعنى :

ـ لم يكن الأمر سهلاً ، ولكننى نجحت فى إقناعهم بأننا نحتاج بالفعل إلى بطل . بطل عربى مصرى ، يمكنه انتزاع إعجاب واحترام الشباب ، ويطرح كل الانتماءات الأجنبية جانبًا ، ليغرس فى أعماقهم قيمنا ، وتقاليدنا وانتماءنا الحقيقى .

هتفت ، وجسدى كله ينتفض بحق :

ـ هل تعنى أن ...

قاطعنى مواصلاً حديثه الهادئ العميق :

ـ ولقد قضينا شهرًا كاملاً فى مناقشة هذا الأمر ، ودراسته من كل الوجوه والجوانب ، قبل أن نطرحه على (ا. ص) بنفسه .

قلت مبهورًا :

ـ (ا . ص) ؟! ومن (ا . ص) هذا ؟!

صمت بضع لحظات ، قبل أن يفتح عينيه ، ويلتفت إلىَّ ، قائلاً بابتسامة هادئة :

ـ إنك تبحث عن بطل .. أليس كذلك ؟!

قفز قلبى من بين ضلوعى ، وكدت أطلق شهقة عنيفة ، وأنا أهتف :

ـ سيِّد (أشرف) .. هل تقصد أن ..

أومأ برأسه إيجابًا ، وابتسامته الهادئة تملأ وجهه ، فاتسعت عيناى عن آخرهما ، ورحت ألهث بأنفاس مبهورة ، من فرط الانفعال .

أخيرًا سألتقى بالبطل ..

بالحلم ..

وعلى الرغم من سعادتى الجارفة ، وانفعالى البالغ ، فى تلك اللحظات ، لم أكن أتخيَّل قط ما سيقود إليه هذا اللقاء ..

لم أتصوَّر لحظة واحدة ، أنه سيغيِّر حياتى كلها ، وسيربط اسمى إلى الأبد بـ (ا . ص) ..

رجل المخابرات المصرى ، الذى ظللت أحلم به منذ صباى .

بالحلم ..

حلم البطل ..

المصرى .

★ ★ ★

٢ ـ الأوراق ..

« إلى أين نذهب بالضبط ؟! »

منذ خرجت بنا السيارة من (القاهرة) ، وأنا أقاوم بشدة إلقاء هذا السؤال ؛ لأننى أعلم جيِّدًا أنه سيكون ، فى كل الأحوال ، بلا قيمة ..

فمنذ بدأ تعاونى مع جهاز المخابرات العامة ، أدركت أن أحدًا لن يخبرنى قط ، إلا بما يمكننى معرفته ، مهما كانت لهفتى وكان فضولى ..

كما أن كل شىء يأتى فى وقته بالضبط ..

فإما أن أعلم بأمر ما ، فى الوقت المحدود لمعرفة هذا ، أو لا أعلمه أبدًا ..

هكذا تقتضى قواعد العمل ..

وقواعد السرية ..

إلا أننى ، وبعد نصف ساعة تقريبًا من الصمت ، وجدت أننى لا أستطيع كتمان السؤال فى أعماقى ، التى تحترق شوقًا ولهفة ، فاندفعت ألقيه عن لسانى ، بغض النظر عن أى رد فعل ينشأ عنه ..

ولثوان ، خُيِّل إلىَّ أن السيِّد (أشرف) لم يسمع حرفًا واحدًا مما قلته ، فى حين تطلَّع إلىَّ السائق بنظرة سريعة ، عَبْر مرآة

السيارة الداخلية ، قبل أن يعيد عينيه إلى الطريق ، ويواصل الانطلاق فيه فى صمت رهيب ..

ثم فتح السيِّد (أشرف) عينيه فى بطء ، وتطلَّع إلىَّ لحظة فى صمت ، قبل أن يقول فى رصانة هادئة :

ـ اصبر .. إن الله (سبحانه وتعالى) مع الصابرين .

انقبضت أصابعى فى توتر ، وقلت فى عصبية واضحة :

ـ فليكن .. لم أكن أتصوَّر أن الأمر يحتاج إلى كل هذه السرية .

بدا وجهه أشبه بتمثال ، لا يمكنك قراءة ملامحه قط ، وهو يتطلَّع إلىَّ فى صمت تام ، ثم أشاح بوجهه عنى ، وتطلَّع عبر النافذة المجاورة له ، فلذت بالصمت بدورى ، وكل خلية فى جسدى تكاد تحترق ، من فرط اللهفة والتوتر والانفعال ..

« الأمر يستحق كل هذه السرية بالفعل .. » ..

نطق السيِّد (أشرف) بهذه العبارة ، وهو يواصل التطلُّع عبْر النافذة ، فالتفتَ إليه فى سرعة ، مغمغمًا فى انفعال :

ـ حقًّا ؟!

عاد إلى صمته لدقيقة كاملة ، وكأنَّه يفكِّر فى أمر ما ، أو يسعى لاتخاذ قرار ما ، ثم لم يلبث أن التفت إلىَّ ، واعتدل فى مقعده ، قائلاً :

ـ (ا . ص) لم يكن أبدًا مجرَّد رجل مخابرات عادى .. إنه ، ومنذ بداياته شخص فذّ للغاية ، ويمتلك مواهب غير طبيعية ،

أدهشتنا نحن ، قبل أن تدهش خصومنا ، حتى إن كلينا يعتبره أسطورة فى عالم المخابرات .. الإسرائيليون أنفسهم ألَّفوا عنه كتابًا بعنوان (البطل العدو) .. هل تتصوَّر هذا ؟! خصمك يطلق عليك لقب (البطل) .. أليس هذا دليلاً على أنهم قد انبهروا به ؟!

قلت فى حماس ، وقلبى يدقّ فى عنف :

ـ بالطبع .

ثم أضفت ، محاولاً أن أستحثَّ السيِّد (أشرف) على مواصلة الحديث :

ـ لابد أن شخصًا مثله كانت له حياة حافلة .

صمت لحظة ، ثم قال فى اقتضاب :

ـ أكثر مما تتصوَّر .

لم يكن هذا جوابًا شافيًا أو مشبعًا ، لشخص يكاد يحترق لهفة وفضولاً مثلى ؛ لذا فقد سألته فى توتر :

ـ كيف ؟!

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ماكرة ، وقال :

ـ دعه يخبرك بنفسه .

لم يكن من الممكن أبدًا أن أتراجع ، بعد أن بلغت هذا القدر ، فواصلت محاولاً إشباع فضولى ، الذى بلغ ذروته :

ـ إننى أحاول تكوين فكرة عن الرجل ، قبل أن ألتقى به .

صمت بضع لحظات أخرى ، ثم قال :

ـ كل ما أستطيع أن أخبرك به ، فى الوقت الحالى ، هو أنه كان وما زال ، فلتة فى عالم المخابرات ، وربما يعود جزء من الفضل فى هذا إلى والده (رحمه الله) ، الذى كان أحد رجال الرعيل الأوّل من جهاز المخابرات ، وجزء آخر إلى الموهبة الطبيعية ، التى يتمتّع بها هو شخصيًا ، والتى منحها إياه الله (سبحانه وتعالى) ، صاحب الفضل الأوّل والأخير ، و(ا . ص) شخص مدهش بحق ، فأثناء العمل يكون وحشًا كاسرًا ، لا شىء يمكن أن يقف فى طريقه ، أو يعترض سبيله ، أما خارج العمل ، فهو شخص مهذّب للغاية ، أنيق الملبس ، بسيط الأسلوب ، لبق ، حتى إنه يصلح كمدير علاقات عامة من الطراز الأوّل .

سألته ، ولهفتى تتصاعد فى كل لحظة :

ـ وماذا عن زوجته ، وأولاده ؟! هل يجيد الاعتناء بأسرته ؟!

هزّ رأسه نفيًا ، وقال :

ـ ليست لديه أسرة ليعتنى بها .. إنه يعيش وحيدًا .

قلت فى دهشة :

ـ أتعنى أن رجلاً كهذا لم يتزوّج قط ؟!

بدا عليه التردّد لحظة ، ثم قال :

ـ لقد تزوّج مرة واحدة .

سألته فى لهفة :

ـ ثم ؟!

زاد تردّده هذه المرة ، ثم لم يلبث أن قال فى حزم :

ـ الأفضل أن نترك له شخصيًا حق الإفصاح عن الجوانب الخاصة فى حياته .

انتبهت فى تلك اللحظة إلى أن السيارة تنحرف فى طريق جانبى ، فسألت السيّد (أشرف) فى لهفة :

ـ إنه طريق (فايد) .. أليس كذلك ؟!

ابتسم السيّد (أشرف) ، دون أن يجيب ، وعاد يسترخى فى مقعده ، فخشيت أن يقطع هذا ما اتصل بيننا من حديث ، وسألته فى سرعة :

ـ أما زال يعمل فى جهاز المخابرات ؟!

لم يجب السيّد (أشرف) على الفور ، وإنما لاذ بالصمت بضع لحضات ، وكأنما يبحث عن جواب مناسب للسؤال ، ثم لم يلبث أن قال :

ـ ليس من السهل أن تنقطع صلتك بجهاز المخابرات .

كان جوابًا ذكيًا ، جعلنى أتراجع فى مقعدى ، وأترك لخيالى العنان ..

نعم .. ليس من السهل أن تنقطع صلة المرء بجهاز مثل المخابرات العامة ، ما دام قد التحق به يومًا ..

وليس من السهل أيضًا أن تتخلّى المخابرات العامة عن شخص كهذا ..

ولكن ليس من الضرورة أن يواصل العمل بصفة رسمية ..

ربما أصبح مدربًا ..

أو مستشارًا ..

أو حتى أحد الخبراء القدامى ، الذين يستعين بهم الجهاز ، إذا ما واجهته مشكلة ما ..

ربما ..

ومن المحتمل أيضًا أن ...

ولم أستطع إكمال ذلك الاحتمال الأخير فى ذهنى ..

لم تطاوعنى خلايا مخى حتى على التفكير فيه ..

ولكن لسانى خاننى ، وألقاه فجأة ، على نحو أدهشنى شخصيًا :

ـ هل أقعدته إصابة ما ؟

التفت إلىَّ السيِّد (أشرف) بحركة عجيبة ، عندما ألقيت هذا السؤال ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة ، وهو يجيب :

ـ الإصابات التى عانى منها الرجل فى حياته ، كانت تكفى لاعتزال جيش كامل من المحترفين .

ثم مال نحوى ، وأضاف فى حزم :

ـ إلا هو .

قالها ، وتطلع إلى عينىَّ بضع لحظات ، قبل أن يتراجع مرة أخرى إلى مقعده ، فازدردت لعابى فى انفعال ، وقلت بصوت مبحوح :

ـ من الواضح أنك مبهور به .

أسبل جفنيه ، وغمغم :

ـ كلنا هذا الرجل .

ثم عاد إلى صمته ، الذى شاركته فيه هذه المرة ، والسيارة تنطلق بنا إلى مصيف (فايد) ، حتى بلغت الطريق الموازى لشاطئ القناة ، فانحرفت إلى اليسار ، وواصلت انطلاقها ، بمحاذاة الفيلات الصغيرة ، فالتفتّ إلى السيِّد (أشرف) ، وسألته :

ـ هل يقيم هنا ؟!

أجاب فى هدوء :

الرجل أذاق عدة أجهزة مخابرات هزائم مريرة ، هذا بالإضافة إلى بعض منظمات الجاسوسية ، والجريمة المنظَّمة ، ومن الطبيعى أن يحاط مكانه بالسرية .

قلت فى سرعة :

ـ وبحراسة مشدَّدة .

ابتسم ، قائلاً :

ـ إنه قادر على حماية نفسه بنفسه .

كان كل هذا الحديث عن الرجل وقدراته ، يملأ نفسى بلهفة لا حدود لها لرؤيته ، ويلهب مشاعرى فضولاً لمعرفة الكثير عنه ، مما جعلنى أعود إلى حالة الصمت ، وأتطلَّع إلى الطريق فى شوق ، متمنيًا أن نصل إلى مكانه بأقصى سرعة ممكنة ..

وأخيرًا بلغنا فيلا صغيرة ، أنيقة ، لها بوّابة بسيطة ، توقّف أمامها السائق ، وضغط نفير السيارة ثلاث مرات متتالية ، ثم أضاء مصابيحها وأطفأها مرتين ، فأسرع رجل طويل نحيل إلى البوّابة ، وفتحها ، وألقى نظرة علينا ، قبل أن يبتسم ، ويرفع يده إلى رأسه بتحية مصرية شعبية ، هاتفًا فى حرارة :

ـ أهلاً (أشرف) بك .

أجاب السيّد (أشرف) تحيته بابتسامة هادئة ، ولوّح بيده ، دون كلمة واحدة ، فى حين انطلق السائق بالسيارة إلى حديقة صغيرة ، وانحرف بها إلى اليمين ، ليوقفها إلى جوار سيارة (مرسيدس) رياضية بيضاء اللون ، تحمل لوحة أرقام قاهرية ، فغادرت السيارة مع السيّد (أشرف) ، وأنا أسأله :

ـ أهذه سيارته ؟!

ابتسم السيّد (أشرف) دون أن يجيب ، وربّت على ظهرى فى رفق ، وهو يقودنى إلى الفيلا الصغيرة ، وعيناى معلقتان بلوحة الأرقام ، التى مازلت أحفظها عن ظهر قلب ، إلى يومنا هذا ..

وعندما خطونا داخل الفيلا ، امتلأت نفسى بالرهبة والانبهار ..

كانت أمامنا ردهة واسعة ، أنيقة للغاية ، بلونها الأبيض ، وأثاثها الذى يجمع بين الفخامة والذوق فى آن واحد ، واللمسات الجمالية البسيطة ، التى توزّعت بأناقة مدهشة هنا وهناك ..

ولكن الشىء الوحيد ، الذى جذب انتباهى بشدة ، هو صورة .

صورة ضخمة ، يبلغ ارتفاعها مترًا ونصف المتر تقريبًا ، وعرضها حوالى المتر ، تحتل جدارًا بأكمله وحدها ، مع مصباحين أنيقين على جانبيها ..

صورة شابة مصرية جميلة ، تشفّ ابتسامتها العذبة عن طيبة محبّبة ، وروح بسيطة حلوة ..

لم تكن فاتنة ، أو مبهرة الجمال ..

ولكنها كانت جذّابة ..

ومصرية ..

وفى فضول شديد ، سألت السيّد (أشرف) :

ـ من هى ؟! زوجته السابقة ؟!

تطلّع السيّد (أشرف) طويلاً إلى الصورة ، وانفرجت شفتاه قليلاً ، وكأنما يهمّ بقول شىء ما ، وارتفع حاجباه لحظة فى تأثّر ، ثم لم يلبث أن أخفى كل انفعالاته هذه فى أعماقه ، وقال :

ـ دعه هو يجيب هذا السؤال .

زادنى الجواب لهفة وفضولاً ، فعدت أتطلّع إلى الصورة ، وإلى تلك الابتسامة العذبة على شفتى تلك الشابة ، وأنا أتساءل : ترى من هى ، إذا لم تكن زوجته السابقة ؟!

إنه يعيش وحده ، كما أخبرنى السيّد (أشرف) ، وهذا يعنى أنها ليست زوجة حالية .

من هى إذن ؟!

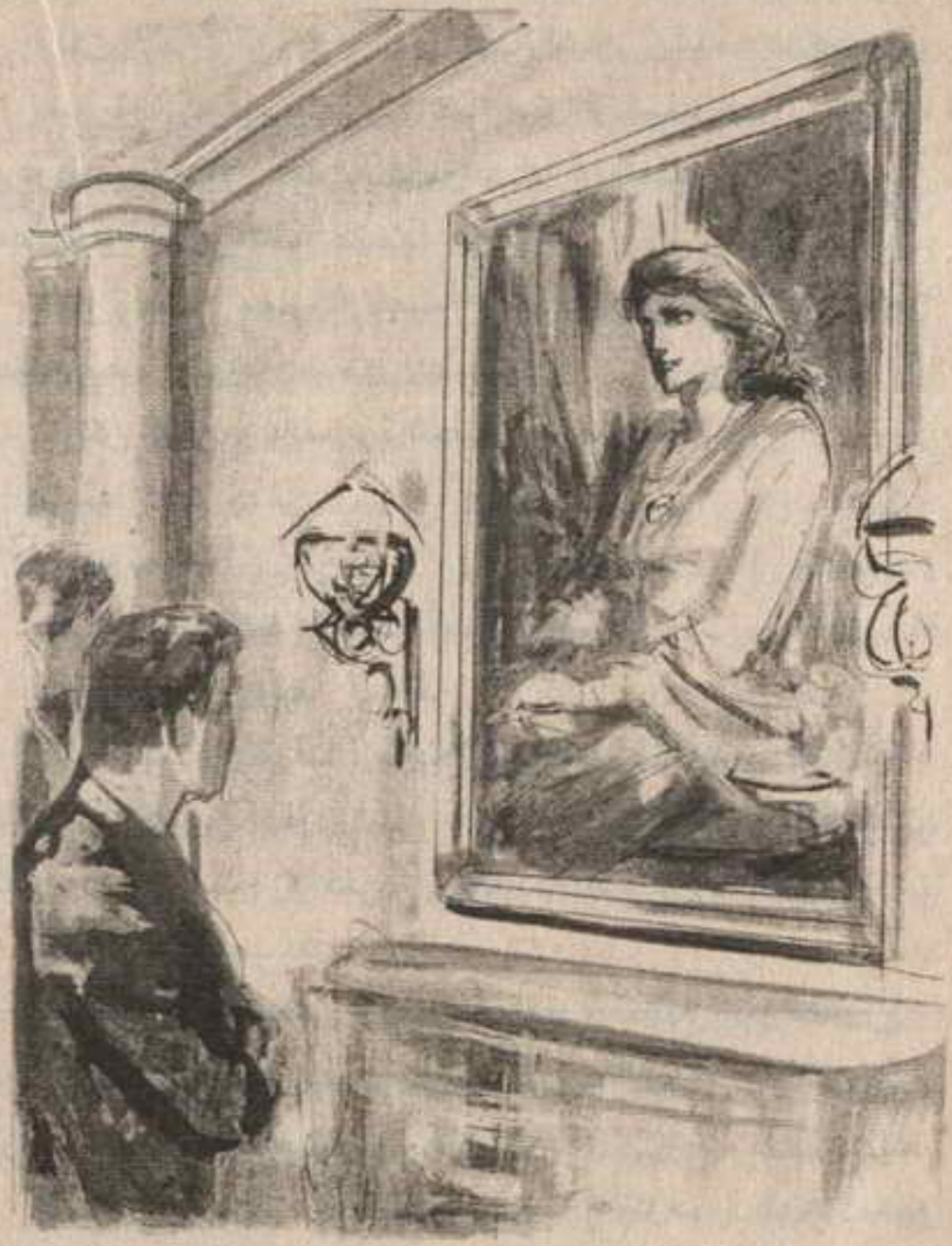

شقيقته ؟!

حبيبة قديمة ؟!

أم ..

« مرحبًا .. »

انتزعنى صوت هادئ رصين من أفكارى ، وهو يلقى كلمة التحية ، فاستدرت فى سرعة إلى صاحبه ، وقلبى يخفق فى قوة ولهفة ، و ...

ورأيته ..

لأوّل مرة فى حياتى ، وقع بصرى عليه ..

كان رجلاً فى النصف الثانى من الأربعينات ، أنيقًا وسيمًا للغاية ، له ملامح هادئة وشعر أسود ناعم ، وخط الشيب فوديه ، فمنحه مظهرًا وقورًا ، ورصانة أنيقة ، وهو يهبط فى درجات السلم من الطابق الثانى ، وابتسامته تملأ وجهه ، ومدّ يده يصافحنى ، قائلاً :

ـ أهلاً بك .. لقد أخبرونى الكثير عنك ، حتى تمنيت مقابلتك .

حدّقت فى وجهه ، هاتفًا :

ـ أنا ؟! أنت تمنيت مقابلتى أنا ؟!

ثم انتبهت إلى يده المدودة نحوى ، فأسرعت أصافحه ، قائلاً :

ـ أنا الذى تمنيت مقابلتك طيلة عمرى يا سيّدى .

اتسعت ابتسامته ، وربّت على كتفى فى مودّة ، ثم التفت إلى السيّد (أشرف) ، يصافحه ، قائلاً :

ـ كيف حالك يا (أشرف) .. لم أرك منذ فترة طويلة .. أنت تعلم أننى أحب دائمًا أن ألتقى بأصدقائى :

بدت السعادة على وجه (أشرف) ، وهو يقول :

ـ وأنا أشعر بالفخر ، لأنك تعتبرنى أحد أصدقائك يا سيِّدى .

ربَّت الرجل على كتفه أيضًا فى حرارة ، ثم أشار إلى الحجرة الوحيدة فى الطابق الأرضى ، قائلاً :

ـ تفضَّلا .. إننى أميل إلى الجلوس فى حجرة المكتب .. هل يناسبكما هذا ؟!

أجابه السيِّد (أشرف) بسرعة :

ـ بالتأكيد .

كانت حجرة المكتب واسعة ، أنيقة ، تحوى مكتبة ضخمة ، تحتلّ جدارين كاملين منها ، متخمة بالكتب ، من مختلف فروع العلم وصنوف الأدب ، وأمامها مكتب كبير ، من طراز عريق ، أما الجداران المقابلان ، فيحتضنان أريكة وثيرة وعددًا من المقاعد ، قادنا الرجل إليها ، وهو يسألنى :

ـ ما الذى ترغب فى تناوله ؟! أعتقد أن المؤلفين والكُتَّاب يميلون إلى القهوة .. أليس كذلك ؟!

هزَّرت رأسى نفيًا ، وأجبت :

ـ إننى لا أتناول القهوة على الإطلاق .. سأكتفى بقدح من الشاى بدون سكَّر .

لم يكن يعنينى ما سأتناوله ، حتى ولو كان حامضًا مركَّزًا ،

فمنذ وقع بصرى على الرجل ، أدركت أننى سأحصل منه على قصة ممتازة ..

وربما أفضل قصة فى حياتى كلها ..

ولكن الخادم أحضر أقداح الشاى ، ورحنا نرتشفها فى بطء ، ونحن نتحدَّث حول أمور عامة ، ونتبادل الآراء الاجتماعية والسياسية ، و ...

ولم أستطع الاحتمال طويلاً ..

كان الرجل يرتشف الشاى فى بطء وهدوء ، عندما سألته بغتة :

ـ مَنْ صاحبة الصورة الكبيرة فى الردهة ؟!

تجمَّدت يده الممسكة بالقدح فجأة ، قبل أن يبلغ شفتيه ، وانعقد حاجبا السيِّد (أشرف) فى شدة ، على نحو خُيِّل إلىَّ معه أننى قد أفسدت الأمر كله بلهفتى الزائدة هذه ، وأن (ا . ص) لن يواصل حديثه معى ، إلا أننى فوجئت به يبتسم فى هدوء ، ويقول :

ـ من الواضح أنك لا تتميَّز بفضيلة الصبر .

شعرت أنه يحاول التخفيف من الموقف ، فأسرعت أجيب فى توتُّر :

ـ أعترف بهذا يا سيِّدى ، فلقد قضيت عمرى كله بحثًا عن بطل مصرى ، يمكننى أن أقدِّمه لشبابنا ، فأمحو به تأثير كل الأبطال الأجانب ، فى قلوبهم وعقولهم ، ثم فجأة وجدته أمامى ، ومن الطبيعى ألا أطيق صبرًا على سماع قصته .

تطلَّع إلىَّ فى شىء من الدهشة ، مرددًا :

ـ بطل ؟!

ثم التفت إلى السيِّد (أشرف) ، يرمقه بنظرة عتاب ، وهو يتابع :

ـ يبدو أنهم بالغوا كثيرًا فى تقديمى لك .

ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتى السيِّد (أشرف) ، وهو يقول :

ـ حقًا ؟!

صمت (ا . ص) بضع لحظات ، ثم التفت إلىَّ مرة أخرى ، قائلاً :

ـ لقد أدَيت واجبى فحسب .

وجدت نفسى أهتف فجأة فى حماس :

ـ بالتأكيد ..

ارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة ، وكأنما أدهشه حماسى الزائد ، وتطلَّع إلىَّ طويلاً فى صمت ، قبل أن يقول :

ـ عندما طرحوا علىَّ الفكرة ، استنكرت الأمر فى البداية ، فما تعلمناه ، منذ التحقنا بالعمل فى المخابرات ، هو أن السرية هى اللبنة الأولى للتعامل ، وأنه ينبغى على المرء ألا يكشف ما لديه قط ، مهما كانت الأسباب ، إلا أن (أشرف) تحدَّث إلىَّ شخصيًا ، وشرح لى وجهة نظرك ، التى بدت لى منطقية ، ومقنعة ، و ...

صمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ ووطنية .

نطق الكلمة الأخيرة بصوت قوى ، ولهجة عاطفية ، جعلت قلبى يختلج فى صدرى ، فتطلَّعت إليه فى صمت مبهور ، جعله يسألنى مبتسمًا :

ـ ما الذى تريد معرفته عنى بالضبط ؟!

أجبت بسرعة مدهشة :

ـ كل شىء .

ارتفع حاجباه فى دهشة ، وهو يكرِّر :

ـ كل شىء ؟!

اعتدل السيِّد (أشرف) فى مقعده ، وقال فى توتر :

ـ أنت تعلم يا دكتور أنه لا يمكن نشر كل شىء ، عن ضابط مخابرات محترف .

قلت مسرعًا :

ـ كنت أقصد كل ما يمكن نشره .

تبادل الرجلان نظرة صامتة ، خُيِّل إلىَّ أنها نقلت بينهما حوارًا طويلاً ، لا تستوعبه صفحات الكتاب بأكمله ، قبل أن يسألنى (ا . ص) :

ـ ما الشكل الذى ستنشر به ما ستسمعه ؟!

تطلَّعت إليه بنظرة متسائلة ، فتابع :

ـ أعنى هل ستخرج فى شكل مقالات ، أم رواية ، أم كتاب ، أم ...

قاطعته فى اهتمام شديد :

ـ إننى أتمنى إصداره فى شكل سلسلة روايات .

عاد حاجباه يرتفعان فى دهشة ، وهو يقول :

ـ سلسلة روايات ؟!

أجبته فى حماس :

ـ بالطبع .. عندما كنا فى الطريق إلى هنا ، أخبرنى السيِّد (أشرف) أنك هزمت معظم أجهزة المخابرات المعروفة ، وبعض المنظمات الإجرامية الشهيرة ، ومنظمات التجسُّس ، ومن المؤكَّد أن كل مواجهة من هذه ، كانت تحوى من التفاصيل ما يصلح لكتابة رواية كاملة .

انفرجت شفتاه ، وكأنه يهمّ بقول شىء ما ، ثم لم يلبث أن أطبقهما ، ولاذ بالصمت لدقيقة كاملة ، انعقد خلالها حاجباه فى شدة ، قبل أن يسأل (أشرف) :

ـ أتعتقد أن هذا ممكن ؟!

أومأ السيِّد (أشرف) برأسه إيجابًا فى صمت ، فوافقه الرجل بإيماءة مماثلة ، وعاد يغرق فى صمته لدقيقة كاملة ، احترقت خلالها أعصابى فى شدة ، وأنا أتساءل قلقًا أهل سيمنحنى حقًا ما أريده ؟!

هل سيروى لى ذكريات المواجهة ، مع أجهزة المخابرات ، ومنظمات التجسُّس ، والمنظمات الإجرامية ؟!

هل سيقصّ علىَّ ذلك التاريخ ، الذى سيحسدنى عليه التاريخ نفسه ؟!

هل ؟!

« من أين نبدأ ؟! »

لم أكد أسمع سؤاله ، حتى كدت أقفز من مقعدى ، وأطلق صرخة فرح قوية ، إلا أننى بذلت جهدًا خرافيًا للسيطرة على انفعالى ، ولكن الكلمات انعقدت فى لسانى ، فلم أستطع نطق كلمة واحدة فى البداية ، مما جعل السيِّد (أشرف) يقول :

ـ أعتقد أن أفضل بداية هى التحاقك بالمخابرات .

انحلَّت عقدة لسانى فجأة ، عندما سمعت هذا القول ، ووجدت نفسى أهتف :

ـ كلاَّ .

التفت إلىَّ الاثنان فى تساؤل ، فالتقطت نفسًا عميقًا ، للسيطرة على مشاعرى ، قبل أن أقول :

ـ فى الطريق إلى هنا ، ذكر لى السيِّد (أشرف) أن والدك (رحمه الله) ، كان أحد رجال المخابرات أيضًا ، وإليه يرجع جزء من الفضل ، فيما وصلت إليه ، وهذا يعنى أن البداية الحقيقية تسبق التحاقك بجهاز المخابرات بكثير .

ارتسمت على شفتيه تلك الابتسامة الهادئة ، وهو يتطلع إلىَّ قائلاً :

ـ نعم .. أنت على حق .

ثم تنهَّد فى عمق ، واسترخى فى مقعده ، واستطرد :

ـ فليكن .. فلنبدأ بهذا التاريخ القديم .

اعتدلت فى مجلسى ، وأرهفت سمعى إليه جيدًا ، و ...
وبدأ هو يروى ..
من البداية ..
البداية الحقيقية .

* * *

٢ ـ التاريخ ..

ديسمبر ١٩٥٤م ..

مكان ما ، داخل إحدى الثكنات العسكرية ، فى منطقة (مصر الجديدة)(*) ..

كل شىء بدا هادئًا للغاية ، فى تلك المنطقة ، التى لم تكن يد العمران قد امتدَّت إليها بعد ، فى ذلك الحين ، حتى إن عبور تلك السيارة المدنية البيضاء فيها ، كان كفيلاً بإثارة عشرات من علامات التعجُّب والاستفهام ، التى لن تلبث أن تتضاعف إلى مئات المئات ، عندما تتوقَّف تلك السيارة أمام بوَّابة المعسكر ، فيؤدى حرَّاس البوَّابة التحية العسكرية فى احترام زائد لقائدها ، الذى أجاب تحيتهم فى سرعة ، ودخل إلى المكان بالسيارة ، وهو يشير إليهم بإغلاق البوَّابة فى سرعة ..

مظهر الحرَّاس أيضًا كان يثير الحيرة والتساؤل ..

فهم لا يرتدون الزىَّ التقليدى للجنود ..

ولا أى زى رسمى آخر معروف ..

بل كانوا يرتدون زيًّا بترولى اللون ، ويتمنطق كل منهم بحزام أبيض عريض ، يحمل على جانبيه مسدسين قويين ..

(*) فى تلك الفترة ، لم يكن مبنى المخابرات الحالى قد تم بناؤه بعد .

وكان من الطبيعى أن يتساءل كل من يقع بصره عليهم : إلى أى جهاز أمنى ينتمون ؟!

وكان من العسير ـ والعسير جدًا ـ إجابة هذا السؤال ، فى ذلك الحين ..

فالجهاز الذى ينتمون إليه ، كان جهازًا وليدًا ، لم تعرف (مصر) مثله من قبل ، فى تاريخها كله ، نشأ منذ أشهر قليلة ، تحت إشراف السيِّد (زكريا محيى الدين) ، وبتوصية من الرئيس (جمال عبد الناصر) شخصيًا ..

وكان هذا الجهاز يحمل اسم (المخابرات العامة المصرية) .

أما ذلك الذى دلف إلى المكان ، داخل السيارة البيضاء ، فكان المقدَّم (عبد المحسن) ، أحد ضباط الجهاز ، وواحد من قيادات الرعيل الأوَّل له ..

وعندما توقَّف المقدَّم (عبد المحسن) ، داخل الساحة المخصَّصة لانتظار السيارات ، داخل الثكنات ، هرع إليه أحد رجال الحراسة ، ليفتح باب السيارة ، ولكن (عبد المحسن) اندفع خارجها ، هاتفًا فى حدة ..

ـ ماذا دهاكم يا رجال ؟! تحية عسكرية قوية ، وبوَّابة تنفتح فور رؤيتى ، وتجاهل تام لكل ما تعلمتموه من قواعد الأمن ، التى تحتم اطلاعكم على أوراق أى زائر .. ما الذى ينقص إذن ، ليدرك أى مراقب أننى أحد ضباط الجهاز ؟!

ارتبك رجل الحراسة ، وقال :

ـ معذرة يا سيادة المقدَّم ، ولكننا لم نعتبرك زائرًا ، و ...

قاطعه (عبد المحسن) فى حدة ..

ـ خطأ يا رجل .. خطأ .. ما دمت أحضر إلى ثكنة عسكرية بثياب مدنية ، فلابد من معاملتى كأى زائر عادى ، حتى أدخل المكان .. هل تفهم ؟!

شدَّ الرجل قامته ، وقال ..

ـ أفهم يا سيادة المقدَّم ، وأعدك أن هذا الخطأ لن يتكرَّر ثانية أبدًا .

ظلَّت ملامح (عبد المحسن) على صرامتها لبعض الوقت ، ثم لم تلبث أن لانت ، وهو يربِّت على كتف الرجل ، قائلاً :

ـ فليكن .. هذه الأخطاء حتمية ، فى الشهور الأولى ، ولكن المهم أن يتم تداركها فيما بعد .

أومأ الرجل برأسه متفهمًا ، وقال ..

ـ بالتأكيد يا سيادة المقدَّم .

ربَّت (عبد المحسن) على كتفه ثانية ، ومنحه ابتسامة مشجِّعة ، ثم تابع طريقه نحو عدد من المبانى من طابق واحد ، فى نهاية المكان ، إلا أنه لم يلبث أن توقَّف بغتة ، واستدار إلى الرجل ، واستعاد حدته ، هاتفًا ..

ـ وبالمناسبة ، لا تخاطبنى قط بسيادة المقدَّم هذه .. هنا أنا السيِّد (عبد المحسن) فحسب .. الكل هنا يحمل لقب السيِّد فقط ، بغض النظر عن الرتب .

شدَّ الرجل قامته بسرعة ، وهتف ..

ـ كما تأمر يا سيـ .. احم .. أيها السيِّد (عبد المحسن) .

مطَّ (عبد المحسن) شفتيه ، واتجه إلى تلك المباني ، وامتدَّت يده إلى مقبض مكتبه الخاص ، إلا أنه سحبها بسرعة ، وطرق باب المكتب المجاور له ، ثم دفع الباب ، دون أن ينتظر دعوة بالدخول ، ودلف إلى الحجرة ، قائلاً :

ـ صباح الخير ..

كان داخل الحجرة رجل فى منتصف الثلاثينات من عمره ، وسيم الملامح ، أسود الشعر والعينين ، متين البنيان ، أنيق الملبس ، التفت فى بطء إلى (عبد المحسن) ، وتطلَّع إليه لحظة فى صمت وشرود ، قبل أن يشير بيده بلا حماس ، قائلاً :

ـ ادخل يا (عبد المحسن) .

أغلق (عبد المحسن) الباب خلفه ، وهو يتطلَّع إلى الرجل ، بنظرة تجمع بين القلق والإشفاق ، مع كثير من الاحترام ..

فهذا الرجل ، على الرغم من أنه يشاركه رتبته ، إلا أنه يعتبره استاذه ، منذ التحقا بالعمل معًا ، فى هذا الجهاز الجديد .

ولهذا أسبابه بالطبع ..

فعلى الرغم من أن كليهما كان طيارًا حربيًا ، قبل وأثناء ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م ، وأنهما شاركا معًا فى الثورة ، والتحقا بجهاز المخابرات العامة فى اليوم نفسه ، الذى صدر فيه قرار إنشائه ، إلا أن زميله هذا (الذى سنطلق عليه فى

هذه الأوراق اسم [صدقى]) ، بدا وكأنه لم يُخلق منذ الأزل ، إلا لهذا الهدف بالتحديد ..

لقد بدا موهوبًا ، عبقريًا بالفطرة ، فى هذا المجال ، فهو مثقَّف ، سريع البديهة ، ذكى ، هادئ الأعصاب ، سديد الرأى ، يميل إلى الصمت والكتمان ، حتى يخيَّل إليك أنه ليس باستطاعتك انتزاع أية معلومة منه ، حتى ولو سلخت جلده شبرًا شبرًا ، داخل وعاء من الزيت المغلى ..

وإلى جوار هذا ، فهو مهذَّب للغاية ، لبق الحديث ، مجامل .

باختصار ، كان أشبه بشخصية مثالية ، من تلك الشخصيات التى كانت تمتلئ بها الروايات المصوَّرة فى ذلك الحين ..

لذا فقد اكتسب المقدَّم (صدقى) هذا احترام الجميع وإعجابهم ، وصار مثلاً يحتذى ، فيما ينبغى أن يكون عليه رجل المخابرات ..

وعندما رآه (عبد المحسن) شاردًا هكذا ، فى ذلك الصباح ، لم يستطع منع نفسه من سؤاله فى حذر :

ـ أما زلت تحصر تفكيرك فى فشل عملية (باريس) ؟!

تنهَّد (صدقى) ، وقال :

ـ بالتأكيد .. العملية لم يكن لها أن تفشل أبدًا .. لقد أعددنا كل شىء جيدًا ، وكان من الضرورى أن نلقى القبض على ذلك الجاسوس فى النهاية ، إلا أنه نجح فى الفرار منا ، فى قلب (باريس) ، لأن المرشد الذى استعنا به ، خدعنا لحساب الخصوم .

تنهَّد (عبد المحسن) بدوره ، وجذب مقعدًا ، ليجلس إلى جواره ، وقال :

ـ أنا أشعر بالضيق مثلك لفشل العملية ، ولكن ما باليد حيلة .. كل ما نملكه هو أن نبذل قصارى جهدنا ، أما النجاح والفشل ، فهما بيد الله (سبحانه وتعالى) .

تطلَّع إليه (صدقى) بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يشير بسبَّابته ، قائلاً :

ـ يبدو أنك أخطأت فهمى يا صديقى ، إننى لا أشعر بالضيق ، تجاه ما حدث فى عملية (باريس) ، بقدر ما أتساءل عن أسباب فشلها ؛ فأنا أعلم أن البكاء على ما مضى ليس مجديًا ، ولن يؤدِّى إلا لمزيد من الخسارة ، ولكن المهم أن نتعلَّم من تجاربنا ، وندرس أخطاءنا ، حتى يمكننا تفاديها فى المستقبل .

شعر (عبد المحسن) بالانبهار من حديث زميله ، فقال فى حماس ..

ـ هذا صحيح .

ثم استطرد فى لهفة :

ـ وهل توصَّلت إلى الأخطاء فى العملية ؟!

تطلَّع إليه (صدقى) لحظة أخرى فى صمت ، وقال :

ـ بالطبع .

واعتدل فى مجلسه ، متابعًا فى اهتمام :

ـ المشكلة الرئيسية أن العملية اكتظَّت بالرجال ، فقد اشترك فيها عدد أكبر مما ينبغى ، ثم إننا استعنا بمرشد فرنسى ، لا يمكن أن نضمن ولاءه لنا .

قال (عبد المحسن) فى حيرة :

ـ ولكننا كنا مضطرين للاستعانة بذلك المرشد الفرنسى ؛ لنقص معلوماتنا عن تلك المنطقة من (باريس) ، كما أن كل رجل من رجالنا كانت له مهمة ، لا يمكن الاستغناء عنها .

أشار (صدقى) بسبَّابته مرة أخرى ، وقال ..

ـ هذا صحيح ، والخطأ لا يكمن فى استعاننا بالمرشد الفرنسى ، ولا باضطرارنا لدفع كل هذا العدد من الرجال إلى العملية ، ولكن الخطأ كل الخطأ فى أننا كنا مضطرين لكل هذا .

سأله (عبد المحسن) فى اهتمام :

ـ وكيف يمكن تلافى هذا ؟!

نهض (صدقى) من مقعده ، وراح يسير فى حجرة مكتبه الصغيرة فى انفعال ، مجيبًا :

ـ بأن تكون لنا مكاتب ثابتة ، فى معظم دول وعواصم العالم ، يتولَّى أمرها مصريون ، يحملون جنسية تلك الدول ، أو إقامة مؤقَّتة فيها على الأقل ، ويبذلون قصارى جهدهم لجمع كل المعلومات عنها ومنها ، بحيث يمكننا الاستعانة بهم وقت الحاجة ، بدلاً من أن نضطر للاستعانة بأجنبى ، لا يمكن شراء انتمائه قط .

وافقه (عبد المحسن) فى حماس ، قبل أن يسأل :

ـ وماذا عن الرجال ؟!

أجابه (صدقى) فى حزم :

ـ هذا هو الأمر الأكثر خطورة ، فمن أهم الأسباب ، التى أدّت إلى فشل العملية ، أن (حسن) لم يكن يجيد الفرنسية ، و (صالح) لم يحسن التصويب كما ينبغى ، أما (سليم) ، فلم يستطع الانطلاق بسيارته بالمهارة الكافية ؛ ليطارد سيارة الجاسوس ، فى شوارع (باريس) .. أضف إلى هذا أنه عندما بدأ الجاسوس هروبه ، كان (صالح) عند الطرف الآخر للشارع ، و (سليم) داخل سيارته ، أما (حسن) فحجمه لم يسمح له بالجرى خلفه بالسرعة المطلوبة .

تنهّد (عبد المحسن) ، وقال :

ـ أنت على حق يا رجل .. ينبغى أن نبذل جهدًا أكبر مع رجالنا ، حتى يكتسبوا الكفاءة اللازمة للعمل .

أجابه (صدقى) فى حزم :

ـ بل لابد أن نبذل قصارى جهدنا معهم ، لاكتساب أكبر قدر ممكن من المهارات ، فرجل المخابرات المثالى ، ينبغى أن يجيد الكثير ، والكثير جدًا .

سأله (عبد المحسن) فى اهتمام :

ـ مثل ماذا ؟!

عاد (صدقى) يسير فى الحجرة ، قائلاً فى حماس :

ـ اللغات مثلاً .. رجل المخابرات لابد أن يجيد ثلاث لغات على الأقل .. الإنجليزية ، والفرنسية ، والعبرية ، حتى يمكنه التعامل بها فى أى مجتمع ، ولو أنه قادر على استيعاب المزيد ، فللغته الروسية والإيطالية ، و ...

هتف (عبد المحسن) ضاحكًا :

ـ رويدك يا رجل .. لا تتمادَ إلى هذا الحد .. المترجمون أنفسهم لا يجيدون كل هذا القدر من اللغات .

أجابه (صدقى) :

ـ ولكن رجل المخابرات لابد أن يفعل .. من عرف لغة عدو اتقى شره .. ثم إن اللغات وحدها لا تكفى .. لابد أن يجيد إطلاق النار أيضًا ، ومعظم طرق القتال اليدوى ، وقيادة السيارات ، والطائرات ، وحتى الزوارق البخارية ، و ...

قاطعه (عبد المحسن) ، قائلاً :

ـ (صدقى) .. لا تتمادَ فى أحلامك ، فالحصول على مثل هذا الرجل مستحيل .. مستحيل تمامًا .

لوّح (صدقى) بكفيه ، هاتفًا :

ـ ولِمَ لا ؟! العالم يمتلئ بأولئك الذين يجيدون مهارات شتى .. السباحون ، وأبطال العدو ، ورياضيو ألعاب القوى .. حتى بهلوان السيرك يجيد عددًا لا بأس به من المهارات ، فلماذا يعجز عن هذا رجل المخابرات ؟!

مال (عبد المحسن) نحوه ، قائلاً :

ـ لسبب بسيط للغاية يـا رجل ، فكل هؤلاء ، الذين تتحدث عنهم ، يبدأ تدريبهم على تلك المهارات ، منذ نعومة أظفارهم ، حتى بهلوان السيرك ، يتعهدونـه بالتدريب والرعاية ، منذ أن يتعلم المشى على قدميه ، أما رجالنا ، فهم يلتحقون بالمخابرات بعد إتمام دراستهم ، أو بعد المرحلة الثانوية على أقل تقدير ، وحتى لو بدءوا فى محاولة اكتساب تلك المهارات ، فور التحاقهم بالعمل ، فسيبلغون الأربعين ، قبل أن يصلوا إلى المستوى الذى تنشده .

انعقد حاجبا (صدقى) ، وهو يقول :

ـ هناك وسيلة ما حتمًا .

تراجع (عبد المحسن) فى مقعده ، وتنهَّد فى عمق ، قائلاً :

ـ ابحث عنها يا صديقى .. ابذل قصارى جهدك للبحث عنها .

أجابه (صدقى) فى حزم :

ـ سأفعل .

قالها ، وفى أعماقه فكرة تولد ..

وتنمو ..

فى بطء ..

وقوة ..

* * *

مضى أسبوعان كاملان على هذا الحديث ، الذى انشغل (عبد المحسن) بالتفكير فيه ليومين أو ثلاثة ، ثم لم يلبث أن طرحه جانبًا ، مؤمنًا بأن الفكرة مستحيلة تمامًا ..

صحيح أنه من الممكن أن يتمّ اختيار العناصر الصالحة ، من بين طلاب المدارس الثانوية العسكرية ، وإعدادها منذ صباها على العمل فى المخابرات ، وتدريبها على كل ما يحلم (صدقى) بوجوده فى ضابط المخابرات الأسطورى هذا ، إلا أن عاملاً حيويًا آخر سيعترض الأمر ، ويفسد الفكرة كلها ..

عامل الزمن ..

والعمر ..

فاكتساب كل هذا القدر من المهارات والقدرات ، يحتاج إلى عشر سنوات على الأقل ، كما قدَّر الخبراء ، أما إجادتها إلى حد الإتقان ، فتحتاج إلى خمسة عشر عامًا إضافية ، على أقل تقدير ، وهذا يعنى أن رجل المخابرات المنتظر هذا سيبلغ الأربعين من العمر ، على الأقل ، عندما يصبح صالحًا للعمل ..

هذا بافتراض أنه سيبدأ تدريباته فى الخامسة عشرة من العمر .

وهذا فى رأيه مستحيل ..

للغاية ..

فالشاب ـ أى شاب ـ ينزع ، فى تلك الفترة من العمر ، إلى الحرية والانطلاق ، والتحرُّر من كل القيود ، فكيف يمكن إخضاعه لبرنامج تدريبى مستمر ، لإتقان الرماية ، والسباحة ، والجرى ، وألعاب القوى ، وقيادة السيارات ، والطائرات ، والزوارق الآلية ، بالإضافة إلى ثلاث لغات حية ، ورياضتين دفاعيتين على الأقل ..

إنه يلهث تعبًا ، لمجرَّد ذكر القدرات المطلوبة ..

فماذا عمَن يسعى لاكتسابها ؟!

وحتى بعد أن يكتسب شخص ما كل هذا ، كيف يمكن أن يصقل تدريباته هذه بمواجهات عملية ، تكسبه الخبرة اللازمة ، ورجاحة العقل المطلوبة ، لاتخاذ القرار المناسب فى الوقت المناسب ؟!

لا .. لا ..

الظفر برجل مثل هذا مستحيل !

مستحيل ألف مرة !

كان هذا آخر ما توصَّل إليه عقله ، فتوقَّف عن التفكير فى الأمر ، وافترض أن زميله (صدقى) لن يلبث أن يطرحه جانبًا بدوره ، ويلغى الفكرة من ذهنه وحياته ، ويندمج فى عملية جديدة ، خاصة وأنهما يسعيان الآن للبحث عن شاب مصرى ، يمكن زرعه فى (إسرائيل) ، بعد هوية يهودية ، وتاريخ محبوك .

ولكن (صدقى) لم ينس ..

ولم يطرح الفكرة قط ..

فذات يوم ، وبينما انهمك (عبد المحسن) فى دراسة ملف شاب مجهول ، تم إلقاء القبض عليه بالقرب من الحدود الليبية ، لاستخدامه جواز سفر بريطانيًا مزوَّرًا ، فى محاولة للفرار من (مصر) ، فوجئ بزميله (صدقى) يقتحم مكتبه ، حاملاً ملفًا ضخمًا ، وهو يقول فى حماس :

ـ وجدت الحل .

رفع (عبد المحسن) عينيه إليه ، فى دهشة وتساؤل ، قائلاً :

ـ وجدت ماذا ؟!

ربَّت (صدقى) على الملف فى حماس أكثر ، قائلاً :

ـ الحل يا صديقى .. الوسيلة المثلى للحصول على رجل المخابرات المثالى .

أعاد هذا القول إلى (عبد المحسن) ذكريات حديثهما السابق ، فاعتدل فى اهتمام ، وسأله ، وهو يتطلَّع إلى الملف :

ـ وما هى ؟!

جذب (صدقى) مقعدًا ، وجلس أمامه عبر المكتب ، وقلَّب صفحات الملف ، مجيبًا :

ـ إنها ليست بالوسيلة القديمة ، ولكنها لا تزال صالحة للاستخدام ؛ لأن أحدًا لم يعد يلجأ إليها ، منذ فترة طويلة .

ضاعفت تلك المقدِّمة فى فضول (عبد المحسن) واهتمامه ، فمال إلى الأمام ، وأسند مرفقه إلى سطح المكتب ، ليستند بذقنه على راحته ، وهو ينصت إلى (صدقى) ، الذى تابع :

ـ لقد استخدم السوفيت هذه الوسيلة ، فى عهد (ستالين)(*) ، فى محاولة منهم لصنع جيش من رجال

(*) (جوزيف فساريونفيتش ستالين) (١٨٧٩ ـ ١٩٥٣) : سياسى روسى ، خلف (لينين) فى زعامة (روسيا) عام ١٩٢٤ م ، ثم لم يلبث أن تخلص من منافسيه ، وانفرد بالسلطة ، وجعل نفسه رئيسًا للوزراء ، وقائدًا عامًا للجيش ، وظل يحكم بديكتاتورية مطلقة ، حتى وفاته ..

الاستطلاع ، الذين لايشق لهم غبار ، فراحوا ينتزعون الأطفال الصغار ، من الأسر التى تم اعتقال بعض رجالها ونسائها ، بتهمة معاداة الدولة ، ويجمعونهم فى معسكرات خاصة ، وكلهم دون السادسة من العمر ، وفى هذه المعسكرات ، تم تدريبهم على الحياة العسكرية الصرفة ، وتلقينهم كل قواعد المواجهة والقتال ، وعندما بلغوا العاشرة من العمر ، كان بإمكانهم أداء نفس التدريبات ، التى يؤديها رجال القوات الخاصة ، وفى الثامنة عشرة ، كان الواحد منهم بمثابة فرقة كاملة ، فى المواجهات العسكرية المباشرة(★) ، حتى إن البعض يعزو إليهم هزيمة القوات الألمانية ، فى الجبهة الروسية ، إبان الحرب العالمية الثانية .

ارتفع حاجبا (عبد المحسن) فى انبهار ، وقال :

ـ من أين حصلت على هذه المعلومات ؟!

ربّت (صدقى) على الملف ، قائلاً :

ـ من الأبحاث والقراءات يا صديقى .. لقد جمعت ملفًا كاملاً ، عن الأساليب القديمة غير التقليدية ، لأجهزة المخابرات الأخرى .. وصدقنى ، لم يكن هذا أبدًا بالأمر السهل أو البسيط .

وتنهَّد فى عمق ، مستطردًا :

ـ هل تعلم .. أعتقد أن أى جهاز مخابرات ، لابد أن يضمّ

(★) حقيقة .

مكتبة ضخمة ، للمراجعة والاطلاع(★) .. هذا أمر حيوى للغاية .

أشار (عبد المحسن) بيده ، قائلاً :

ـ دعنا من هذا الآن .. وأخبرنى .. إلى أين انتهت التجربة الروسية ؟!

تنهَّد (صدقى) مرة أخرى ، ومطَّ شفتيه ، مغمغمًا :

ـ إلى الفشل .

تراجع (عبد المحسن) فى حركة حادة ، وكأنما صفعه الجواب ، وهتف فى دهشة :

ـ الفشل ؟!

أجابه (صدقى) فى سرعة :

ـ لم يكن الفشل لخطأ فى التجربة نفسها ، ولا فى الفكرة التى استندت إليها ، وإنما يعود إلى عاملين آخرين .

أوّلهما : أن تلك القوة لم تكن تستند إلى انتماء حقيقى ، وإنما كان يشوبها شعور بالبغض والكراهية ؛ لأن الجميع تذكّروا أن آباءهم كانوا ثمن ما وصلوا إليه ، ولولا إلقاؤهم فى المعتقلات ، أو إعدامهم دون محاكمة أو إدانة ، لما أصبحوا هم فئران تجارب للجيش وخبرائه .

(★) عند إنشاء جهاز المخابرات العامة ، لم تكن به مكتبة رسمية ، ثم لم يلبث بعض أفراده أن كوّنوا نواة لمكتبة صغيرة ، تضمّ عددًا من الكتب المتخصصة فى علم المخابرات والجاسوسية ، وبعدها تحوّلت هذه النواة إلى مكتبة ضخمة ، تضمّ كتبًا فى مختلف التخصصات ، فى عهد (صلاح نصر) ، مدير الجهاز الأسبق .

وثانيهما : أن (ستالين) نفسه لم يسمح باستمرار تلك الفرقة الفذّة ، بعد انتصار السوفيت فى الحرب العالمية الثانية ، إذ كان يخشى أن يصاب أفرادها بالغرور ، أو يحاولوا التمرُّد على سياسته ، لذا فقد أعدم بعضهم دون محاكمة ، كما فعل بذويهم ، ونفى البعض الآخر إلى (سيبيريا) ، ليلقى مصرعه وسط الثلوج الرهيبة ، والمعاملة السيئة المهينة .

سأله (عبد المحسن) ، وقد فتر حماسه إلى الأمر بعض الشىء :

ـ وهل تعتقد أنه يمكن تطبيق مثل هذه التجربة هنا ؟

هتف (صدقى) فى حماس :

ـ ولِمَ لا ؟! لماذا لا نتعهَّد بعض الصبية بالرعاية والعناية ، منذ حداثتهم ، لنصنع منهم رجال مخابرات أفذاذًا فى المستقبل ؟!

هتف (عبد المحسن) :

ـ بعض الصبية ؟! ماذا دهاك يا رجل ؟! هل تعتقد أنه من السهل أن تذهب إلى أسرة ما ، وتقول فى بساطة : أعطونى طفلكم ؛ لأصنع منه رجل مخابرات فذًا فى المستقبل ، فيمنحونك إياه مع ابتسامة امتنان وعبارة شكر ؟!

انعقد حاجبا (صدقى) ، وهو يقول فى توتر :

ـ يمكننا أن نبدأ التجربة بصبية ملاجئ الأيتام ، و ...

قاطعه (عبد المحسن) فى حدة :

ـ كلاَّ يا (صدقى) .. لا يمكنك أن تتمادى إلى هذا الحد .. صبية ملاجئ الأيتام لهم أيضًا حق الاستمتاع بطفولتهم وصباهم ، ولا يمكننا أن نخضعهم لنظام عسكرى صارم وتدريبات قاسية مستمرة ، لمجرَّد أنهم فقدوا أحد أبويهم أو كليهما ، ولم يعد هناك من يذود عنهم ، أو يمنعك من فعل هذا .

ارتفع حاجبا (صدقى) فى دهشة بالغة ، وهو يقول :

ـ يا إلهى ! وهل تصوَّرتنى وحشًا قاسى القلب إلى هذا الحد ؟!

ارتبك (عبد المحسن) للموقف ، وأدرك كم أساء إلى زميله ، دون أن يدرى ، فتراجع مغمغمًا :

ـ معذرة يا رجل .. لم أقصد أن ..

قاطعه (صدقى) فى ضيق واضح ، وهو يواصل حديثه :

ـ هل نسيت أننى أب لطفلين ، يمكن أن يفقد كلاهما والده فى أية لحظة ؟!

وأننى أنا نفسى قد عانيت مرارة اليتم فى طفولتى وصباى ؟

تنهَّد (عبد المحسن) ، قائلاً فى ارتباك أكثر :

ـ حسن .. أنا أعتذر .

لوح (صدقى) بيده ، قائلاً :

ـ لا داعى للاعتذار يا رجل .. ليس هذا ما أنشده .. إننى لا أعاتبك ، وإنما أحاول توضيح الموقف فحسب .

ثم عاد إلى الملف الذى يحمله ، والتقط منه بضع ورقات ، متابعًا :

ـ فلو أنك طالعت البرنامج التدريبى ، الذى أعددته لهؤلاء الصبية ، لوجدت أنه ليس تدريبًا عسكريًا بالمعنى المفهوم ، وإنما هو أشبه بسلسلة من الألعاب المسلية المثيرة ، التى تجذب فى المعتاد انتباه مَنْ فى مثل عمرهم ، وعندما يزاولونها باستمرار ، فإنهم يكتسبون مهارات شتى ، مثل السباحة ، والعدو ، وإصابة الهدف ، والقتال اليدوى ، مع بعض المعارف الرياضية والفيزيائية والكيميائية ، التى تفيدهم فيما بعد ، فى الحياة العملية ، ثم إنه هناك أيضًا رحلات ترفيهية ، ومعسكرات نشاط فى دول أخرى ، بحيث يعتادون الترحال ، والعيش فى بيئات مختلفة ، ويستخدمون اللغات التى يتعلمونها ، فى مناخها الطبيعى .. إنه برنامج أشبه بحياة الكشّافة(★) ، وليس بمعسكرات التدريب العسكرية الخشنة .

سأله (عبد المحسن) فى اهتمام :

ـ وهل تعتقد أن الصبية ، فى مثل هذا العمر ، يمكن أن يكتسبوا مهارات عديدة ؟!

(★) الكشّافة : حركة رياضية ـ اجتماعية ، تربوية ، تقوم على تنظيم الناشئين فى فرق ، بإشراف قائد مدرّب ، يفرض عليهم الطاعة ، ويلاحظ سلوكهم ، ويعلمهم الاعتماد على النفس ، والتعاون مع الآخرين ، والتضحية فى سبيل المجموع ، ويكسبهم مهارات بيئية مختلفة ، وليس للحركة الكشفية أى طابع دينى أو مذهبى ، ولا يجوز لها الاشتغال بالسياسة .

أجابه (صدقى) ، فى سرعة وحماس :

ـ بل أعتقد أن هذه أفضل مرحلة سنية ، يمكن أن يكتسب فيها المرء كل المهارات الممكنة .

تطلّع إليه (عبد المحسن) طويلاً فى صمت ، ثم تراجع بمقعده ، وقد انعقد حاجباه ، وبدا كمن غرق فى تفكير عميق ، قبل أن يشير بسبّابته ، قائلاً :

ـ مازلت أعتقد أن الفكرة غير قابلة للتنفيذ ، فى مجتمعاتنا الشرقية على الأقل ، فما من أحد سيتقبّل فكرة إخضاع الأطفال أو الصبية لعملية الإعداد المبكرة هذه أبدًا .

وعاد يميل نحوه ، ويتطلّع إلى عينيه مباشرة ، مضيفًا ..

ـ أنت نفسك يمكن أن تستنكر هذا ، لو جاء أحدهم يعرض عليك التخلّى عن أحد ولديك أو كليهما ، ليخضع لبرنامج تدريبى مكثّف ، حتى يصبح فى النهاية رجل مخابرات من طراز جديد ومتفوّق .

وتنهّد ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ صدقنى يا رجل .. ربما كانت فكرتك عبقرية ، ولكنك لن تجد مسئولاً واحدًا يمكن أن يمنحك موافقة رسمية لتنفيذها .

التقى حاجبا (صدقى) مرة أخرى فى شدة ، وهو يلملم أوراقه ، ويعيدها إلى الملف ، قائلاً فى حزم :

ـ ربما ، ولكننى لن أتخلى عنها فى سهولة .

ثم نهض ليغادر مكتب (عبد المحسن) ، وتوقَّف لحظة ، بعد أن فتح بابه ، والتفت إليه ، قائلاً فى حزم أكثر :

ـ صدقنى يا رجل .. هذه الفكرة ممكنة التنفيذ .

قالها ، وغادر الحجرة ، وأغلق بابها خلفه فى هدوء كعادته ، وتعلَّقت عينا (عبد المحسن) بالباب بضع لحظات ، قبل أن يهزّ رأسه ، مغمغمًا :

ـ مستحيل يا (صدقى) .. مستحيل !

وعاد يطالع ملف ذلك الشاب ، الذى تم إلقاء القبض عليه عند الحدود الليبية ، وهو واثق من أن فكرة زميله لا يمكن أن تنجح عمليًا ..

أبدًا ..

ولكن المقدَّم (صدقى) لم يكن أبدًا من الطراز ، الذى يمكن أن يستسلم للفشل ..

أو يتراجع عن فكرة يؤمن بها ..

ولكنه ، وحتى تلك اللحظة ، التى غادر فيها مكتب زميله (عبد المحسن) ..

أو تلك التى قدَّم فيها فكرته رسميًا للمسئولين ..

وحتى عندما غرق فى محاولات شرحها وتوضيحها لأسابيع عديدة ، لم يكن يدرى أن القدر يدّخر له الكثير فى هذا الشأن .

والكثير جدًا ..

بل ولم يكن يتصوَّر أبدًا أن اسمه سيرتبط ارتباطًا وثيقًا برجل المخابرات الفذّ ، الذى يسعى لصنعه ..

وإلى الأبد .

★ ★ ★

٤ ـ البـــداية ..

« لقد رفضوا الفكرة تمامًا .. »

نطق (صدقى) العبارة فى أسى واضح ، وهو يجلس على مقعده المفضّل ، فى حديقة منزله الصغير فى (المعادى) ، فارتفع حاجبا زوجته فى تعاطف وجدانى ، وربّتت على كتفه فى حنان ، هامسة :

ـ ربما لم يستطيعوا استيعابها جيدًا .

تنهّد ، قائلاً فى مرارة :

ـ كانت لهم نفس وجهة نظر (عبد المحسن) .. أن هذه الفكرة لا تصلح للتطبيق فى مجتمعاتنا الشرقية ، ولست أدرى ما صلة شرقيتنا بأمر كهذا .. إننى أسعى لصنع رجل مخابرات مثالى ، يمكنه التصدّى لأى خصم ، ومواجهة أى موقف ، مهما بلغت صعوبته .. رجل يمتلك من المهارات والقدرات والخبرات ، ما يجعله وحده قوة ضاربة ، لا يشقّ لها غبار ، فى مواجهة أى عدو ، مهما بلغت قوته ..

تردّدت زوجته بضع لحظات ، قبل أن تسأله فى حذر :

ـ وهل تعتقد حقًا أن صنع مثل هذا الرجل ممكن ؟!

التفت إليها بحركة حادة ، قائلاً فى استنكار :

ـ ولِمَ لا ؟!

هزّت كتفيها ، قائلة :

ـ أعتقد أن للجسد البشرى طاقات محدودة ، مهما بلغ حجمها .

أجاب فى حزم :

ـ خطأ .. راجعى الأرقام القياسية للدورات الأوليمبية(*) ، فى السنوات العشر الأخيرة ، وستجدين أنه فى كل مرة يتم كسر الرقم القياسى ، الذى تم تحقيقه فى الدورة السابقة ، فى كل مجالات الرياضة تقريبًا .. فما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟! إنه يعنى أن قدرات الجسد البشرى لا محدودة ، وأنه من الممكن تنميتها إلى أى حد ، بالتدريب والمران .

قالت فى اهتمام :

ـ هذا صحيح إلى حد كبير ، وربما ينطبق على كل الرياضيين ، فى كل المجالات ، ولكننا لم نسمع أو نقرأ قط عن رياضى ، أمكنه التفوّق فى عدد من الرياضات المختلفة ، فى آن واحد !(**) .

(*) الألعاب الأوليمبية : بدأت الألعاب الأوليمبية فى (اليونان) القديمة ، عام ٧٧٦ ق . م ، واستمرّت تقام كل أربع سنوات ، حتى أوقفها الرومان فى القرن الرابع الميلادى ، ثم نجح الفرنسى (بيير دى كوبرتان) فى إعادتها عام ١٨٩٦م ، وهى تقام منذ ذلك الحين كل أربع سنوات ، فيما عدا عامى ١٩٤٠م ، و١٩٤٤م ، حيث تم إلغاؤها بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية .

(**) لم تكن لعبة (الخماسى الحديث) معروفة ، أو مشهورة ، فى ذلك الحين .

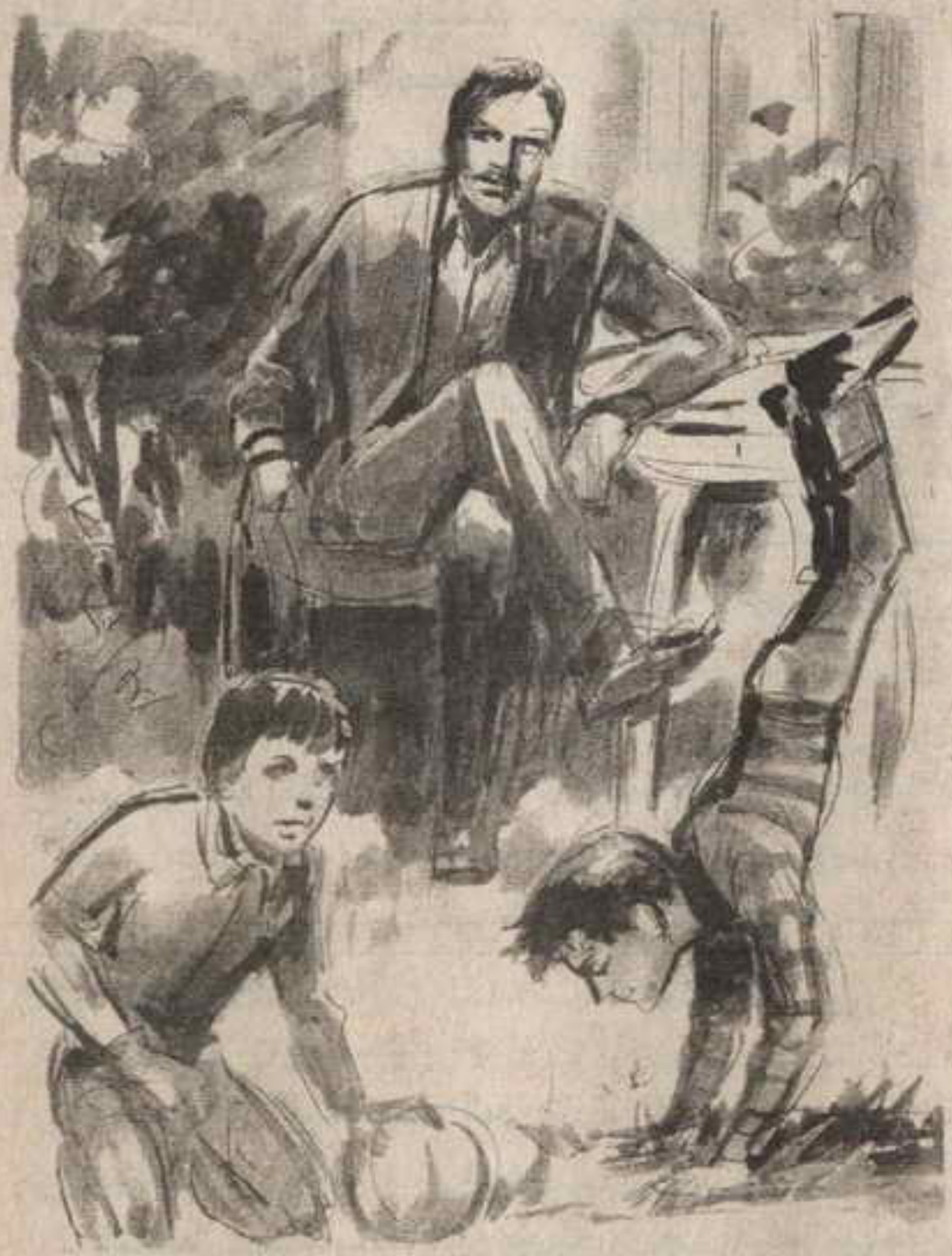

مطَّ شفتيه ، وهزَّ كتفيه ، قائلاً :

ـ ربما يحدث هذا فى المستقبل .

ابتسمت فى حنان ، وهى تتحسَّس شعره ، قائلة :

ـ من يدرى ؟! ربما ..

ثم تابعت ببصرها ولديها (أكرم) و (أحمد) [والأخير يحمل بالفعل هذا الاسم*، فى عالم الواقع] ، وهما يلهوان فى الحديقة الصغيرة ، بكل مرح وبراءة الطفولة ، قبل أن تهمس قائلة :

ـ هل تعلم ؟! إننى أعتقد أن لديهم بعض الحق ، فى وجهة نظرهم هذه .

التقى حاجباه ، وهو يتطلَّع إليها فى استنكار ، إلا أنها لم تنتبه إلى هذا ، وهى تواصل متابعة ولديها فى حنان ، مستطردة :

ـ إننى لا أتصوَّر أبدًا أن يتعرَّض أحد أبنائى لأمر كهذا ، حتى ولو كان هذا الأمر سيصنع منه أفضل وأقوى مقاتل فى الدنيا كلها .

ازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يدير عينيه إلى ولديه بدوره ، وارتسمت على ملامحه أمارات تفكير عميق ، مع متابعته للعبهما ولهوهما البرىء ، ثم لم يلبث أن قال فى خفوت :

ـ أريد قدحًا من القهوة .

كان من النادر أن يتناول أية مشروبات منبِّهة ، حتى إن

مطلبه أدهشها ، إلا أنها نهضت على الفور ، قائلة بذلك الحماس التقليدى للزوجة المصرية :

ـ من عينىّ .

وأسرعت لتعدّ له قدح القهوة ، فى حين واصل هو متابعة ولديه فى اهتمام ، وفكرة عجيبة تدور فى رأسه ، وتلهب كل ذرة من تفكيره وكيانه ، ثم لم يلبث أن نهض من مقعده ، واتجه إليهما ، فأسرعا يعانقانه كعادتهما ، وهتف (أكرم) فى حماس :

ـ أبى .. هل تعلم ؟! لقد أخفى (أحمد) الجاروف الصغير فى الحديقة ، ولكننى عثرت عليه ، عندما تتبّعت آثار قدميه ، كما علّمتنى .

ومطّ (أحمد) شفتيه الصغيرتين ، قائلاً فى اعتراض :

ـ لم أكن أتعمّد إخفاءه ، ولو فعلت لما أمكنك العثور عليه قط .

ابتسم (صدقى) ، وهو يضمّهما إليه فى حنان ، ويقول :

ـ دعكما الآن من هذه الألعاب القديمة ، فسنبدأ معًا سلسلة من الألعاب الجديدة المبتكرة .

هتف الصغيران فى سعادة :

ـ وهل ستشاركنا لعبنا هذه المرة يا أبى ؟!

التمعت عينا (صدقى) ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .. سأشارككما لعبة طويلة ، يعلم اللّه (سبحانه وتعالى) وحده ، متى وكيف تنتهى .

وعندما أحضرت زوجته قدح القهوة ، أدهشها كثيرًا انهماكه الشديد فى اللعب مع ولديه ، فى حالته هذه ..

وفى أعماقها ، شعرت أن ما يفعله زوجها مع الولدين ليس مجرّد مشاركة بسيطة برينة فى اللعب ..

إنه يخفى هدفًا آخر ..

هدفًا يخفق له قلبها فى قلق وعنف ..

وكانت كأى أم ..

على حق فى مشاعرها وأحاسيسها ..

تمامًا ..

★ ★ ★

احتقن وجه (عبد المحسن) ، واتسعت عيناه فى مزيج من الدهشة والاستنكار ، وهو يحدّق فى وجه زميله (صدقى) ، قبل أن يهتف فى حدة :

ـ هل جننت يا (صدقى) ؟! كيف تعرّض ولديك لتجربة رهيبة كهذه ؟!

ابتسم (صدقى) فى هدوء شديد ، وهو يجيب :

ـ إنها ليست كذلك بالنسبة لهما ، فهما يستمتعان كثيرًا بكل دقيقة منها ، ويشعران بسعادة بالغة ؛ لأننى أمنحهما الآن جزءًا كبيرًا من وقتى واهتمامى ، وأشاركهما ما يتصوراته لهوًا وعبثًا طفوليًا ، ولا يدركان قط أن كل هذا مجرّد جزء من البرنامج التدريبى ، الذى أعددته .

هتف (عبد المحسن) :

ـ ولداك يا (صدقى) ؟!

هزَّ (صدقى) كتفيه ، قائلاً :

ـ ولِمَ لا ؟! ما دام هناك أمل فى صنع رجل المخابرات المثالى ، ومادمت صاحب الفكرة الأساسية ، فلِمَ لا يحظى أحد أبنائى بهذا الشرف ؟!

قال (عبد المحسن) فى توتر ، لم تفارقه بعد لهجة الاستنكار :

ـ وهل سيسعدك أن يشبَ ولداك كرجلى مخابرات ؟

صمت (صدقى) بضع لحظات ، ثم مطَّ شفته السفلى ، قائلاً :

ـ لست أعتقد أن كليهما يصلح لهذا .. صحيح أنهما يمضيان فى الأمر بشغف كبير ، إلا أن (أكرم) يبدو لى موهوبًا فى هذا المجال ، ولديه استعداد كبير للتطوّر فيه ، وبالذات فى النواحى الحركية ، أما شقيقه (أحمد) ، فهو يميل أكثر للأمور العقلانية ، والتركيبات العلمية البحتة .

ثم تنهَّد فى عمق قبل أن يضيف :

ـ أعتقد أننى سأركز جهودى فى المستقبل على (أكرم) وحده .

قال (عبد المحسن) مستنكرًا :

ـ الطفل لم يتجاوز الثالثة من عمره بعد يا (صدقى) .

ابتسم (صدقى) ، قائلاً :

ـ وماذا فى هذا ؟! إنه يلعب ويلهو ، مثل كل الأطفال فى مثل عمره .. كل ما فى الأمر هو أننى أختار ما يناسبه من ألعاب فحسب .

ثم اتسعت ابتسامته ، وهو يستطرد :

ـ اطمئن يا صديقى .. لا يمكننى أن أوذى ولدى ، بأى حال من الأحوال .

هزَّ (عبد المحسن) رأسه ، بحركة تشفّ عن عدم الاقتناع ، وقال :

ـ ولكننى مازلت أصرّ على أن ...

قاطعه (صدقى) بغتة ، وهو يسأله فى اهتمام :

ـ ما الذى تمّ بشأن ذلك الشاب ، الذى تسعى لزرعه فى قلب (إسرائيل) .

كانت محاولة ذكية ؛ لإدارة دفة الحديث بعيدًا ، إلا أنها نجحت على نحو ملحوظ ، فقد أجاب (عبد المحسن) فى اهتمام وحماس :

ـ إنه مناسب تمامًا لما كنت أسعى إليه ، فهو يجيد عدة لغات ، ويمتلك ملامح يصعب تحديد جنسيتها أو انتمائها ، كما أنه محتال بطبعه .. باختصار ، إنه من الطراز الذى يمكن زرعه فى أى مجتمع ، فيتكيَّف معه فى سرعة ، ويغوص فيه ، ويتوغَّل فى خباياه ، ثم يمنحك كل ما تريده منه .

ابتسم (صدقى) ، وهو ينهض ، قائلاً :

ـ عظيم .. هيا .. واصل عملك يا رجل ، وأبلغنى بالتطورات .. إلى اللقاء .

أشار (عبد المحسن) بيده ، مجيبًا :

ـ إلى اللقاء يا صديقى .

ثم أضاف فى حزم ، قبل أن يبلغ (صدقى) الباب :

ـ ولكن إياك أن تتصورَ أنك نجحت فى إلهائى عن أمر تجربتك العجيبة هذه .. لقد تجاوزت الحديث بإرادتى .

أطلق (صدقى) ضحكة مرحة ، ثم غادر الحجرة ، وأغلق الباب خلفه كعادته ..

بكل هدوء ..

★ ★ ★

ديسمبر ١٩٥٥م ..

كان شتاءً قاسيًا بحق ..

واحد من أصعب فصول الشتاء ، التى شهدتها (مصر) ، منذ أكثر من عشر سنوات ..

وعلى الصعيد السياسى ، كانت الأمور كلها ملتهبة بشدة ..

الرئيس (جمال عبد الناصر) يواصل سياسته المناهضة للاستعمار ، بعد مؤتمر (باندونج)(★) ، و(أوروبا)

(★) (باندونج) : مدينة غرب (جاوه) فى (أندونيسيا) ، تعتبر مركزًا صناعيًا وسياحيًا كبيرًا عُقد فيها مؤتمر (باندونج) (إبريل ١٩٩٥م) ، الذى ضمّ ٢٩ دولة ، ممثلة فى رؤسائها ، وألقى فيه الرئيس (جمال عبد الناصر) ، واحدًا من أهم خطبه السياسية .

و(أمريكا) و (الاتحاد السوفيتى) تتابع خطواته فى قلق واهتمام ، وخاصة بعد سياسة عدم الانحياز ..

التغيرات الاجتماعية تواصل تقلباتها السريعة ؛ لصنع مجتمع جديد ..

الإسرائيليون يكثفون محاولاتهم لاختراق المجتمع المصرى ، وزرع شبكات جاسوسية جديدة فيه ، بعد سقوط مجموعة عملية (لافون)(★) ..

ومع كل هذا ، كان على رجلين مثل (صدقى) و(عبد المحسن) أن يعملا طوال الوقت تقريبًا ، وبلا توقُّف ، حتى إن أحدهما لم ير الآخر لشهر كامل ، على الرغم من أن مكتبيهما متجاوران ، داخل تلك الثكنات العسكرية ، فى منطقة (مصر الجديدة) ..

وذات صباح ، اختفت فيه الشمس خلف غيوم داكنة كثيفة ، تنذر بسقوط أمطار غزيرة ، وانخفضت درجات الحرارة على نحو يزيد على المعدّلات الطبيعية ، فى تلك الفترة من العام ، دقّ (عبد المحسن) باب حجرة (صدقى) ، ثم دلف إليها ، قائلاً بابتسامة كبيرة :

(★) مع بدايات الثورة ، قامت المخابرات الإسرائيلية بمحاولة لإفساد العلاقة بين (مصر) و(الولايات المتحدة الأمريكية) عن طريق تفجير عدد من المراكز الأمريكية ، فى (القاهرة) و(الإسكندرية) ، ولكن تم كشف العملية ، وإلقاء القبض على كل أفراد الشبكة ، فيما عرف ـ آنذاك ـ باسم (فضحية لافون) ، نسبة إلى (بنحاس لافون) ، الذى أصدر الأمر بإجراء العملية كلها .

ـ صباح الخير يا رجل .. كيف حالك .

منحه (صدقى) ابتسامة مماثلة ، قائلاً :

ـ بخير حال .. كيف حالك أنت ، وماذا فعلت فى عملية (٣١٣) هذه ؟!

ألقى (عبد المحسن) جسده المرهق ، على أوّل مقعد صادفه ، وهو يلوّح بيده ، قائلاً :

ـ (رفعت) فى (إسرائيل) بالفعل منذ ثلاثة أسابيع .

هتف (صدقى) فى فرحة حقيقية :

ـ حقًا ؟! هل تعنى أننا قد نجحنا فى خداع الإسرائيليين ، وزرعنا عميلنا فى قلبهم ، دون أن يدركوا هذا ؟!

هزّ (عبد المحسن) كتفيه ، وأجاب بابتسامة هادئة :

ـ لقد أجدنا اللعبة يا رجل ، وسار كل شىء كما خططنا له بالضبط ، فلقد منحناه اسمًا يهوديًا ، وهوية معروفة ، وعثرنا له على تاريخ منطقى .. وصحيح ، ثم تركناه يندمج فى المجتمع اليهودى ، ويسعى للهجرة إلى (إسرائيل) ، مثل أى شاب آخر .

ثم تحوّلت ابتسامته إلى ضحكة سريعة ، قبل أن يتابع :

ـ هل تعلم ؟ لقد تقدّم بطلب السفر ثلاث مرات ، وتم رفض الطلب فى كل مرة ، وكأننا نرفض ذهابه إلى (إسرائيل) ، حتى إنهم تحايلوا لتهريبه من (مصر) إلى (إيطاليا) ، حيث التقت به الوكالة اليهودية هناك ، وساعدته على السفر إلى (إسرائيل) .

ابتسم (صدقى) ، قائلاً :

ـ أهنئك يا رجل .. لقد أصبحت أستاذًا .

تنهّد (عبد المحسن) فى عمق وقال :

ـ أشكرك .

ثم سأله فى اهتمام :

ـ وماذا عن تجربتك ؟! أى مدى بلغته فيها ؟!

اعتدل (صدقى) فى مقعده ، وأجاب :

ـ لقد استبعدت (أحمد) من اللعبة تمامًا ، كما سبق أن أخبرتك ، وركّزت جهودى كلها على (أكرم) ، الذى يبدى استجابة واضحة ومبشّرة ، ولقد اكتسب بالفعل عددًا من المهارات المختلفة ، ويتحدّث الآن بعض الإنجليزية والفرنسية ، كما يمكنه تمييز الحروف العبرية ، على الرغم من أنه لم يلتحق بالمدرسة بعد .

ارتفع حاجبا (عبد المحسن) فى دهشة ، وقال :

ـ فى مثل هذا العمر ؟!

ثم مال نحو زميله ، يسأله فى قلق :

ـ أليس من المرهق لطفل فى عمره ، أن يتعلّم ثلاث لغات فى آن واحد ؟!

ابتسم (صدقى) ، وهزّ رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

ـ مطلقًا .. لو أنك ذهبت لزيارة أية منطقة سياحية ، مثل أهرامات (الجيزة) ، أو (نزلة السمّان) أو معابد (الأقصر)

و(أسوان) سيدهشك أن الذى يقوم بالترجمة وإرشاد السائحين ليس جامعيًا ، أو يحمل حتى شهادة الابتدائية ، وإنما هو مترجم فطرى ، يطلق عليه اسم (الترجمان) .. ربما لا يجيد القراءة أو الكتابة ، ولكنه يستطيع التحدث بأربع أو خمس لغات حية بطلاقة مدهشة ، كما لو أنه قضى عمره كله متجولاً بين دول العالم المختلفة ، على الرغم من أنه لم يغادر (مصر) قط .. بل ربما لم يغادر بلدته نفسها أبدًا .. أما الأطفال الصغار ، فى سن (أكرم) ، فستجدهم يتحدثون بكلمات وعبارات من مختلف اللغات المعروفة ، ويرددونها فى حديثهم مع السائحين الأجانب ، لمجرد أنهم حفظوها عن ظهر قلب .. وأعتقد أن ذكاء (أكرم) يجعله قادرًا على بلوغ ما بلغوه ، فى هذه المرحلة من العمر .

صمت (عبد المحسن) طويلاً ، وهو يتطلع إليه فى انبهار ، ثم تراجع مغمغمًا :

ـ كالمعتاد .. أنت دائمًا على حق .

ارتسمت على شفتى (صدقى) ابتسامة هادئة ، وقال :

ـ لم يثبت هذا بعد يا صديقى .. لم يثبت بعد .

ثم تراجع فى مقعده ، وشرد بصره فى سقف الحجرة ، وهو يتابع :

ـ مازال أمامنا زمن طويل .. طويل للغاية ..

وربما كان على حق ، فى قوله هذا ..

فـ (أكرم) الصغير مازال أمامه الكثير والكثير ليتعلمه ..

وهذا يحتاج إلى زمن طويل بالفعل :

ولكن الزمن يمضى حتمًا ..

وبأسرع مما يتصور ..

بكثير ..

* * *

« هل ترغب فى تناول قدح آخر من الشاى ؟! »

ألقى علىَّ (ا. ص) هذا السؤال فى اهتمام حقيقى ، انتزعنى فجأة من تركيزى ، فانتفض جسدى بحركة لاشعورية ، وهتفت :

ـ كلاَّ .. أشكرك .

سألنى مرة أخرى :

ـ وماذا عن عصير الليمون ؟!

ابتسم السيِّد (أشرف) ، وقال :

ـ هذا يناسبنى .

تنهَّد ، قائلاً :

ـ فليكن .

أشار إلى خادمه لإحضار عصير الليمون ، فسألته فى لهفة واهتمام :

ـ هل تعلم أن هذه حالة فريدة بالفعل ؟! أعتقد أنك الشخص الوحيد فى العالم ، الذى حظى بكل هذا التدريب ، فى

تلك الفترة من العمر .. أعنى بالنسبة لرجال المخابرات .

صمت لحظة ، قبل أن يهزّ كتفيه ، قائلاً فى هدوء :

ـ نعم .. أعتقد هذا .

سألته فى اهتمام :

ـ ولكن ألم يرهقك هذا ؟! أعنى ألم ينتزع سنوات طفولتك ، وبهجة صباك مثلاً ؟!

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ، تشفّ عن استعادته لذكريات ممتعة ، وهو يجيب :

ـ مطلقًا .. لقد كنت أستمتع بكل لحظة منها .. كل لعبة .. كل خبرة جديدة أكتسبها .. لقد أجاد أبى (رحمه الله) عمله ، حتى صرت شغوفًا بكل ما يلقننى إياه ، وأنتظر فى لهفة تلك الساعات ، التى نقضيها معًا ، والتى أغوص فيها فى ذلك العالم المثير من المعرفة .

سألته ، وأنا أشير بيدى :

ـ وماذا عن شقيقك ؟! ألم يشعر بشىء من الغيرة ؟! .

عاد يبتسم ، قائلاً :

ـ (أحمد) كانت له اهتمامات أخرى .. علمية على الأخص ، ولقد انشغل كثيرًا بطاقم من الأدوات المعملية والخامات الكيميائية ، أهداه إياه أبى ، فى ذلك الحين ، ولم يبال بما نفعله معًا .

سألته ، حتى نعود إلى قصته وذكرياته :

ـ وهل عمل والدك على إلحاقك بجهاز المخابرات فيما بعد ؟!

صمت لحظة ، ثم هزّ رأسه نفيًا ، وقال :

ـ لم تكن لأبى أية صلة مباشرة ، لالتحاقى بالمخابرات العامة ، فلهذا قصة أخرى .

اعتدلت فى مقعدى ، قائلاً :

ـ سيسعدنى سماعها .

لم أكد أتمّ عبارتى ، حتى ارتفع رنين الهاتف ، على نحو

يوحى بأنها مكالمة من خارج (مصر) كلها ، فاعتذر (ا. ص) بأسلوب مهذّب ، ونهض ليجيب الهاتف ، وعندما سمعت اللغة التى يتحدّث بها ، سألت السيّد (أشرف) فى اهتمام :

ـ هل يتحدَّث الإيطالية ؟!

هزَّ رأسه نفيًا ، وأجاب فى حزم مقتضب :

ـ بل الأسبانية .

خِلت لحظة أنه سيكتفى بهذا الجواب المقتضب ، إلا أنه تابع فى سرعة :

ـ لقد قضى فترة من حياته فى (أمريكا الجنوبية) ، ومازالت لديه بعض الاستثمارات هناك ، وفى (الولايات المتحدة الأمريكية) أيضًا ، وهو يسافر كثيرًا ، لمتابعة استثماراته هناك ، بين الحين والآخر ، ولكنه يفضِّل الاستقرار فى (مصر) .

وصمت لحظة ، ثم تابع فى خفوت :

ـ وكانت له زوجة هناك أيضًا .

سألته فى اهتمام :

ـ مصرية ؟!

تنهَّد ، وأجاب :

ـ بل إسرائيلية .

هبط علىَّ الجواب كالصاعقة ، فتراجعت فى مقعدى بعنف ، وهتفت :

ـ إسرائيلية ؟! كيف ؟!

انفرجت شفتا السيِّد (أشرف) ، وكأنه سيخبرنى بالجواب ، إلا أنه لم يلبث أن عقد حاجبيه ، وقال فى حزم صارم :

ـ فليخبرك هو بهذا الأمر إن أراد .

أحنقنى هذا ، والتهب فضولى أكثر وأكثر ، فنقلت عينىَّ إلى (ا. ص) ، الذى أنهى مكالمته الهاتفية ، ثم عاد إلينا ليعتذر مرة أخرى ، عن انشغاله بها ، وجلسنا نتناول عصير الليمون ، وأنا أسأله :

ـ وهل واصل والدك (رحمه الله) تجربته حتى النهاية ؟!

تنهَّد ، مجيبًا :

ـ أعتقد أنه أنجز الكثير منها ، ولكنه لم يقنع أبدًا بما بلغناه ، فى أية مرحلة ، وكان يطلب المزيد والمزيد ، ويؤكِّد لى أنه لا حدود لما ينبغى أن يكتسبه أو يتقنه رجل المخابرات ، ولقد اصطحبنى إلى أماكن ودول عديدة ، وكان يصرّ على ألا نتحدَّث سوى لغة الدولة ، التى نتواجد فيها ، مهما كانت الأسباب ، ويحثنى على الاختلاط بأهلها ، وإقامة علاقات صداقة معهم ، والتجوال فى شوارعها ، وطرقاتها ، وأتعلَّم عاداتها وتقاليدها ، ووسائل العيش والتعامل فيها .. وكنت أستمتع بهذا بشدة ، وأجيده تمامًا ، وكنا نخطِّط للقيام برحلات أكثر ، وأكثر ، ولكن ..

بتر عبارته عند تلك الكلمة ، وارتفع حاجباه فى تأثُّر واضح ، فسألته فى لهفة :

ـ ولكن ماذ ؟!

تبادل نظرة حزينة مع السيِّد (أشرف) ، قبل أن يجيب :

ـ ولكن القدر لم يمهله ليفعل .

قلت فى توتر :

ـ أتقصد أنه مات ؟!

هزّ رأسه فى حزم ، مجيبًا :

ـ بل قُتِلَ .. اغتيل على يد عميل إسرائيلى محترف .

اتسعت عيناه فى شىء من الارتياع ، وأنا أهتف :

ـ كيف ؟!

تنهّد ، قائلاً :

ـ لهذا قصة ..

وعاد يروى ما لديه ..

وأنا أنصت ..

وبكل حواسى .

* * *

٥ ـ الخيانة ..

خمسة عشر عامًا مضت ، منذ بدأ (صدقى) فى تطبيق فكرته الفذّة ..

خمسة عشر عامًا ، حدث خلالها الكثير ..

والكثير جدًا ..

اندلعت الحرب مرتين ، بين (مصر) و (إسرائيل) ، إحداهما فى عام ١٩٥٦ م ، عندما وقع العدوان الثلاثى على (مصر) ، من (انجلترا) و (فرنسا) و (إسرائيل) ، إثر تأميم الرئيس (جمال عبد الناصر) لقناة (السويس) ، والذى انتهى بانسحاب المعتدين ، وتراجعهم إلى خطوطهم الأولى ، بعد أن تلقّوا إنذارًا أمريكيًا سوفيتيًا ، بعدم المضى فى العدوان ، وإلا كان على ثلاثتهم مواجهة ما لا قبل لهم به .

وكانت الثانية فى عام ١٩٦٧ م ..

النكسة ..

والهزيمة ..

والمرارة ..

والألم ..

كان (أكرم) فى السادسة عشرة من عمره ، عندما حدث هذا ، وكان قد اكتسب مهارات شتى ، بهرت والده ، قبل أن تبهر رفاقه ..

فالفتى ، فى ذلك العمر ، كان يجيد التحدّث بخمس لغات حية ، إلى حد مدهش ، وبمعظم لهجاتها المحلية أيضًا ، بعد أن طاف العالم مع والده مرتين ، ويمكنه إطلاق النار ، باستخدام المسدسات والمدافع الآلية ، بدقة تنخفض معها احتمالات الخطأ إلى اثنين فى المائة ، كما أنه حصل على الحزام الأسود ، فى لعبتى الجودو والكاراتيه ، ويستطيع قيادة السيارات ، وطائرات التدريب ، والزوارق البخارية ، وحتى طائرات الهليوكوبتر بكل إجادة ..

ومن المؤكّد أن هذا يفوق بكثير جدًا ، ما يمكن أن يكتسبه أقرانه ، فى نفس العمر ..

ولم يكن هذا بفضل التدريب المتقن المدروس المستمر فحسب ، على يد واحد من أفضل رجال المخابرات المصرية على الإطلاق ..

وإنما كان أيضًا بفضل موهبة طبيعية ، حبا بها اللّه (سبحانه وتعالى) الفتى ، بحيث تتصوَّر طوال الوقت ، أنه لا يمكن أن يصلح ـ فى الحياة ـ إلا لعمل واحد ..

القتال ..

وفى تلك الفترة أيضًا ، كانت المخابرات العامة المصرية قد تطوَّرت كثيرًا ، وانتقلت إلى ذلك المبنى الشهير ، فى منطقة (كوبرى القبة) ، الذى ضمّ عددًا من الروّاد ، الذين أصبحوا أساتذة لا يشق لهم غبار ، فى مجالهم هذا ..

(صدقى) ، و (عبد المحسن) ، و(نسيم) ، و(رفعت) ، و(عزيز) ، و (حسن) .. وغيرهم ..

وعلى الرغم من الهزيمة المؤلمة ، فى ١٩٦٧ م ، إلا أننا لا نستطيع أن نلوم هؤلاء الرجال ، أو نتهمهم بالتقصير ..

فالواقع أنهم قاموا بعملهم خير قيام ، حتى إنهم نجحوا ، فى الأسبوع الأخير من مايو ، فى الحصول على الخطة الإسرائيلية للهجوم ، وسلموها إلى القيادة السياسية ، مما دفع الرئيس (جمال عبد الناصر) إلى الاجتماع بكل قادة الأفرع ، للقوات المسلحة ، وإعلانهم بما لديه ، إلا أن أولئك القادة تراخوا فى عملهم ، وأخطئوا بعدم الاهتمام بما قاله الرئيس ، أو وضعه فى الاعتبار ، لسبب أو لآخر(*) ..

ولهذا كانت الهزيمة ..

وبعدها ذلك الشعور المؤلم بالمرارة والعار ، الذى ملأ النفوس ، واستقرّ فى الوجدان ، ونشر إحساسًا عامًّا بالإحباط واليأس ، و ..

ولكن (صدقى) لم يستسلم لكل هذا ..

كان يشعر مثلهم بالألم والمرارة ، ألا أنه ـ كعادته ـ راح يدرس أسباب الهزيمة ، ويمحّصها ، ثم طلب فجأة عقد اجتماع مع رفاقه ، ولم تكد تضمّهم حجرة الاجتماعات ، فى مبنى الأمن القومى ، داخل نطاق المخابرات ، حتى قال فى حزم :

(*) حقيقة ..

ـ هيَّا يا رفـاق .. انفضوا عن أنفسكم مرارة الهزيمة ، ودعونا نفكر معًا ، كيف نحقق النصر ، فى المواجهة التالية .

كانت كلماته قوية حاسمة ، مما جعلهم يعتدلون فى مقاعدهم ، وينصتون إليه جيِّدًا ، وهو يشرح لهم خطة متكاملة ، لتحقيق التفوّق ، فى حرب المعلومات مع الإسرائيليين ، بحيث لا يكتفون بالحصول عليها من مصادرهم فحسب ، وإنما يسعون لغرس أذنهم فى قلب القيادة الإسرائيلية ، وفى أعمق أعماقها ..

والواقع أنها كانت خطة عبقرية مدهشة ، ومتقنة للغاية ، حتى إنه لم يتم التصريح بنشر تفاصيلها الكاملة ، حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

ولقد تم تنفيذها على أكمل وجه ..

وطوال عامين كاملين ..

فعندما حلّ شهر فبراير ، عام ١٩٦٩ م ، كان الإسرائيليون قد فقدوا ستة من أفضل جواسيسهم فى (القاهرة) ، وسقطت لهم أربع شبكات تجسُّس فى الدول العربية الأخرى ، بمعاونة المخابرات العامة المصرية ، فى نفس الوقت الذى تسرَّبت فيه الأسرار والمعلومات منهم ، كما لو أن خزان أسرارهم يعانى من ثقب ضخم فى قاعدته ..

وكان هذا يعنى ـ وبكل وضوح ـ أن المصريين يتقدّمون بسرعة مدهشة ، وأنهم قد استعادوا معظم قوتهم وكفاءتهم ،

وبدءوا ينتقلون فى تقدُّم واضح ، من بئر الهزيمة ، إلى إكليل النصر ..

وكان هذا التقدُّم يخيف الإسرائيليين ، ويثير قلقهم بشدة ..

فلو استمرّ الأمر على هذا المنوال ، سيبلغ الأمر مرحلة شديدة الخطورة ، وسيفقد الإسرائيليون كل ما يحلمون به من تفوّق ، على نظم الأمن العربية ..

لذا ، فقد اجتمع مدير المخابرات الإسرائيلى بكبار رجاله ومعاونيه ، فى أوائل مارس ، من عام ١٩٦٩ م ، فى مقرّهم الرئيسى فى (تل أبيب) ، لمناقشة هذا الأمر ، ودراسته من كل الوجوه ، وبدا الجميع شديدى التوتر والعصبية فى هذا الاجتماع ، وخاصة الضابط (موردخاى) ، الذى قال فى حدة :

ـ لا يمكننا أن نسمح باستمرار الأمر على ما هو عليه ، وإلا فستصبح أسرارنا أشبه بصفحة مفتوحة أمام المصريين ، يقرءون منها ما يشاءون ، وقتما يشاءون .. لقد بذلنا جهدًا خرافيًا ؛ للسيطرة على هذا الأمر ، ولكننا لم ننجح فى الإيقاع بأكثر من عميلين مصريين ، لقى أحدهما مصرعه فى أثناء استجوابه ، وقبل أن نحصل منه على أية معلومات ، أما الثانى ، فليس سوى مندوب اتصال داخلى ، لا يعرف سوى ما يبلغونه به ، ولقد أخطأ الزميل الذى ألقى القبض عليه ، عندما تسرَّع فى الإيقاع به ، قبل أن يلتقى بالجاسوس المصرى ، مما دفع هذا الأخير للفرار فخسرنا الهدف الرئيسى للعملية كلها ..

باختصار ، مواجهتنا مع المصريين ، فى الفترة الأخيرة ، لم تسفر إلا عن الهزيمة لنا .. كل الهزيمة ، ولابد من إيجاد حل لهذا الأمر ، وإلا ..

لم يتم عبارته ؛ لأن المعنى بدا له واضحًا للغاية ، ولم يكن بحاجة لكلمات أخرى ..

ولكن أحدًا من زملائه لم يعلّق على حديثه ..

لذا ، فقد ران على المكان صمت رهيب ، والجميع يتطلّعون إليه فى ضيق واضح ، حتى قال المدير بصوته الأجش :

ـ حديثك صحيح يا (موردخاى) ، على الرغم مما يثيره فى نفوسنا من مرارة وشجون ، فقد كان المفترض ، بعد ما فعلناه بالعرب عامة ، وبـ (مصر) على وجه الخصوص ، أن تنكسر شوكتهم للأبد ، وتمتلئ نفوسهم بالخوف منّا ، ويخشون مجرّد ذكر اسمنا ، ولكننى لا أستطيع أبدًا فهم هؤلاء العرب ، وبالذات المصريين منهم ، فبدلاً من أن يشعروا بالهزيمة والعار ، إذا بهم ينهضون من كبوتهم ، وينقضون على عملائنا كالنسور ، ويقلبون المنضدة على رءوسنا .. والمعلومات لدينا تؤكّد أنه هناك عدد من كبار ضباط المخابرات المصرية وراء هذا التخطيط والانتصار المتواصل .

ثم دفع أمام رجاله ملفًا كبيرًا ، مستطردًا :

ـ وستجدون فى هذا الملف كل ما أمكننا جمعه عنهم من معلومات .

طالع الرجال الملف فى اهتمام شديد ، قبل أن يقول أحدهم :

ـ ماذا لو دبرنا عددًا من عمليات الاغتيال ، للتخلّص من هؤلاء الضباط ، واحدًا بعد الآخر ؟!

انعقد حاجبا المدير ، وهو يقول فى صرامة :

ـ هل تعتقد أن اغتيال ضباط المخابرات المصريين أمر سهل أو بسيط ؟! لقد حصلنا على كل هذه المعلومات عنهم ، دون أن ننجح فى الحصول على صورة واحدة لأحدهم ، فكيف يمكنك اغتيال شخص تجهل هيئته ؟! ثم إن الوصول إلى قلب (القاهرة) لاغتيال شخص ما ، أيًّا كانت ماهيته ، ليس بالأمر اليسير ، فالمصريون وعوا الدرس جيّدًا ، بعد حرب الأيام الستة ، واتخذوا من أساليب الحيطة والحذر ، مع تطوير نظم الأمن ، ما يجعل المستحيل الظفر بهم مرة أخرى ، و...

اندفع (موردخاى) يقول بغتة :

ـ أعتقد أن لدى فكرة ما ..

بدا الضيق على وجه المدير ؛ لأن (موردخاى) قد قاطعه على هذا النحو ، والتفت إليه ، قائلاً فى صرامة :

ـ بخصوص ماذا ؟!

أطلّ بريق عجيب من عينى (موردخاى) ، وهو يجيب :

ـ بخصوص علاقتنا بالمصريين .

تطلّع إليه المدير مع الآخرين بنظرة متسائلة ، فتابع فى اهتمام :

ـ منذ شهر ونصف الشهر تقريبًا ، أوقع المصريون بواحد من أخطر عملائنا فى (القاهرة) ، وهم يستعدون الآن لمحاكمته ، بتهمة التخابر معنا ، وأعتقد أنه من الطبيعى أن نسعى للتفاوض معهم ، بشأن استعادة عميلنا هذا ، أو مبادلته مع بعض أسراهم لدينا .

بدت الحيرة على وجوه رفاقه ، فى حين قال المدير فى حدة :

ـ وما صلة هذا بما نناقشه الآن ؟! ألا تلاحظ أنك قد تجاوزت الموقف يا (موردخاى) ؟! ماذا دهاك يا رجل ؟! لقد كنت أظنك دائمًا أفضل رجالى ، والمرشح الوحيد لاحتلال مقعدى هذا يومًا ما !

ارتسمت ابتسامة ماكرة على شفتى (موردخاى) ، وهو يقول :

ـ لن يختلف ظنك هذا كثيرًا يا سيِّدى ؛ فأنا لم أتجاوز الموقف قط ، وإنما هناك علاقة قوية ، بين الأمرين .

سأله المدير فى شىء من العصبية :

ـ أية علاقة هذه ؟!

اعتدل (موردخاى) ، قائلاً :

ـ سأشرح لك يا سيِّدى ..

وعندما بدأ (موردخاى) فى شرح الأمر ، أدرك الجميع أنه يستحق بالفعل احتلال مقعد المدير يومًا ما ..

بل ويستحق الحصول على لقب الثعلب ..

وبكل جدارة ..

★ ★ ★

انعقدت حواجب (صدقى) و(حسين) و(عبد المحسن) ، وتبادلوا نظرة قلقة متوترة ، وهم يجلسون فى حجرة مدير المخابرات العامة المصرية ، قبل أن يقول (صدقى) فى اهتمام مشوب بشىء من العصبية :

ـ سيادة المدير .. هل يمكنك أن تشرح لنا الأمر مرة أخرى .. يلوح لى أننى لم أحسن استيعابه جيِّدًا ؟!

التقط المدير نفسًا عميقًا وقال :

ـ بالتأكيد يا سيِّد (صدقى) .. الإسرائيليون يطلبون عقد لقاء معنا ، للتفاوض بشأن عميلهم ، الذى ألقينا القبض عليه مؤخرًا ، ولقد بلغنا هذا العرض عن طريق جهاز الأمن الإيطالى ، الذى تتوسَّط بيننا وبينهم ، ويؤكِّد أنه سيؤمِّن عملية اللقاء ، ويحيطها بكل وسائل الأمن والحماية الممكنة ..

سأله (عبد المحسن) :

ـ ولماذا لم يقدِّموا عرضهم هذا بالطريق الرسمى ؟!

أجابه المدير :

ـ حجتهم فى هذا أن القنوات الشرعية لمثل هذه الاتصالات مغلقة ، بحكم حالة الحرب بيننا وبينهم ، ثم إنهم لم يعترفوا رسميًا بأنهم ما زالوا يحتفظون ببعض أسرانا ، حتى هذه اللحظة .

هزَّ (صدقى) رأسه ، وقال :

ـ ما زال هذا يبدو لى سببًا غير مقنع .

وافقه المدير بإيماءة من رأسه ، وقال :

ـ هذا صحيح ، ولكن يبدو أن ذلك العميل ، الذى ظفرنا به ، يمثل بالنسبة لهم الكثير ، وإلا ما لجئوا إلى أسلوب غير تقليدى كهذا ، ثم إن اللقاء سيتمّ بين جهازى المخابرات فحسب ، بحيث يمكن أن تتنصّل القيادة السياسية من الأمر كله ، إذا ما حاول الإسرائيليون استغلال هذا اللقاء ، للإيحاء بأننا نتفاوض معهم على شروط السلام .

انعقد حاجبا (صدقى) ، وغرق فى محاولة فهم الأمر واستيعابه كعادته ، فى حين سأل (حسن) فى اهتمام مشوب بالقلق :

ـ هل تم عرض هذا الأمر على سيادة الرئيس ؟

أجابه المدير على الفور :

ـ بالطبع .. الرئيس (جمال) هو صاحب القرار الوحيد ، فى رفض أو قبول هذا العرض الإسرائيلى ، ولقد أجرى اتصالاً شخصيًا بقيادة الأمن الإيطالية ، ووعده المسئولون فيها بأنهم سيمنحوننا كل الضمانات اللازمة ، بالنسبة لإجراءات الأمن ، والحماية وغيرها .

رفع (صدقى) عينيه إليه ، وقال فى حزم :

ـ لا يمكننا أن نثق بكلمة الإسرائيليين قط .

تردَّد المدير لحظة ، ثم قال :

ـ إنها كلمة الإيطاليين هذه المرة ، ولنا أن نقبلها أو نرفضها .

وتراجع فى مقعده ، ليدير عينيه فى وجوه ثلاثتهم ، مستطردًا :

ـ ما رأيكم ؟!

عاد الثلاثة يتبادلون نظرة قلق ، ثم قال (عبد المحسن) :

ـ إنه عرض عجيب بالفعل ، ويملأ النفس بعشرات الشكوك ، إلا أنه يتحدَّث عن فرصة حرية ، لعدد من أسرانا ، يمكننا أن نبلغ به المائة ، لو أحسنا التفاوض مع رجال المخابرات الإسرائيليين ، وليس باستطاعتنا أن نرفض هذا ، دون أن يكون للرفض مبررات قوية للغاية .

وتنهَّد (حسن) فى عمق ، قبل أن يرفع يده ، قائلاً :

ـ سأذهب إلى (روما) .

رمقه (عبد المحسن) بنظرة صامتة ، ثم قال :

ـ وأنا أيضًا .

استقرّ بصر المدير على (صدقى) ، الذى واصل استغراقه فى التفكير لبضع لحظات ، ثم رفع عينيه إليه ، قائلاً فى حزم :

ـ لن أتركهما يذهبان للقاء الإسرائيليين وحدهم .. سأصحبهم إلى هناك .

وتنهَّد بدوره ، مستطردًا :

ـ وليفعل اللّه (سبحانه وتعالى) ما فيه الخير ..

لم يكن باستطاعته بالفعل ألا يسافر لحضور مثل هذا اللقاء الذى لا مثيل له فى عوالم المخابرات ..

بل وفى تاريخها كله ..

ولكنه - والحق يقال - لم يكن يشعر بالارتياح لما سيحدث ..

لم يكن يشعر بالارتياح أبدًا ..

* * *

عجيبة هى تلك الرابطة ، التى تنشأ بين الأب وأبنائه ..

فعلى الرغم من أن (صدقى) لم يشرح لولديه قط سبب سفره إلى (روما) ..

ومن أنها لم تكن أوّل مرة يسافر فيها خارج البلاد ، فى الآونة الأخيرة ..

على الرغم من كل هذا ، كان (أكرم) و (أحمد) يشعران بقلق خفى ، وهما يودعان والدهما فى المطار قبل سفره ..

كان (أكرم) أيامها يستعد لأداء امتحان الثانوية العامة ، وشقيقه الأصغر (أحمد) فى الصف الثانى الثانوى ، ولكن أسلوب تربيتهما جعلهما ينضجان قبل الأوان ، حتى إن والدهما شعر أنه يتعامل مع زميلين فى المهنة ، وليس مع شابين لم يتمّ أكبرهما عامه الثامن عشر بعد ..

وسافر (صدقى) إلى (روما) ، مع زميليه (حسن) و(عبد المحسن) ..

وهناك استقبلهم مندوب خاص من جهاز الأمن الايطالى ،

ونقلهم بسيارة مصفّحة خاصة إلى فندق شهير ، يطلّ على ذلك الميدان ، الذى يرتفع فيه برج (بيزا) المائل ، أشهر أثر تاريخى فى (إيطاليا) كلها ، وأحاط جناحهم بحراسة مكثفة ، فى انتظار وصول الإسرائيليين ، ليبدأ اللقاء ..

وليبدأ التفاوض ..

ولم يشعر (صدقى) بالارتياح منذ البداية ..

منذ أصرّت السلطات الإيطالية على تفتيش حقائبهم وثيابهم ، للتأكّد من أنهم لا يحملون أية أسلحة ..

ولكن زميليه أقنعاه أنها إجراءات أمن عادية ، فى مثل هذه الظروف ، وأن الأمن الإيطالى لا يريد أن يتحوّل اللقاء إلى حمّام من الدم ، وأنه يخشى أن تلتهب الأعصاب فى أثناء التفاوض ، فيستلّ كل فرد سلاحه ، و ..

وتحدث مذبحة رهيبة ..

ومع مرور الوقت ، راح (صدقى) يستعيد قلقه وتوتره ..

فقد كان من المفترض ، طبقًا لما تم الاتفاق عليه ، أن يصل الإسرائيليون فى الخامسة ، ولكن عقارب الساعة بلغت الخامسة والربع بالفعل ، دون أن يصل أحد ..

وفى غضب ، هتف (صدقى) :

- ليس من حق الإسرائيليين ألا يحافظوا على موعدهم معنا .. لن يمكننا أن نقبل هذا الأسلوب قط .

هتف بها ، وهو يلتقط سمّاعة الهاتف ، للاتصال بمسئولى الفندق ..

ولكن الهاتف لم تكن به حرارة الاتصال المطلوبة ..
كان صامتًا تمامًا كقبور الموتى ، على نحو انعقد له حاجبا (صدقى) ، وقفز معه شكه وقلقه وتوتره إلى قمتهم ..
وبحركة سريعة ، ألقى سماعة الهاتف ، واندفع إلى الباب ، وفتحه ، وألقى نظرة على ممر الفندق ..
ومع تلك النظرة ، أدرك أن شكوكه كلها كانت فى محلها ..
لم يكن هناك رجل أمن إيطالى واحد فى المكان كله ..
كلهم غادروا مواقعهم ، ورحلوا من الطابق ..
وربما من الفندق كله ..
وكان هذا يعنى ، بالنسبة إليه ، أمرًا واحدًا ..
الخيانة ..
لقد خانهم الإيطاليون ، أو بعض رجال جهازهم الأمنى ، وسلموهم لقمة سائغة للإسرائيليين ..
اللقاء كله لم يكن سوى خدعة ، لجذب بعض رجال المخابرات العامة إلى (روما) ..
والتخلص منهم ..
وفى غضب ، تراجع (صدقى) إلى الجناح ، هاتفًا بزميليه :
ـ أسرعا .. سنغادر هذا المكان على الفور .
هتف به (حسن) فى توتر :
ـ ماذا حدث يا (صدقى) ؟
صاح به (صدقى) :

ـ إنه فخ .
لم يكد ينطق الكلمة ، حتى اندفع زميلاه معه خارج الجناح ، وانطلقا يعدوان نحو سلم الفندق ، و..
وفجأة ، ظهر فريق القتلة ..
خمسة من المحترفين بمدافعهم الآلية ، برزوا فجأة من المصعد ، متجهين نحو الجناح ، لاغتيال رجال المخابرات المصريين الثلاثة ..
وعندما غادر القتلة المصعد ، كان (حسن) و(عبد المحسن) قد بلغا بداية السلم ، فى حين كان (صدقى) فى منتصف الممر تقريبًا ..
لذا فقد وجد نفسه أمام القتلة الخمسة وجهًا لوجه ..
وكانت مفاجأة عنيفة للطرفين ..
ولكن (صدقى) استعاد رباط جأشه أولاً ..
وسبق القتلة الذين كانوا يتصورون أنهم سيباغتون المصريين الثلاثة فى جناحهم ..
ودون سابق إنذار ..
وبسرعة مدهشة ، وقبل أن يخرج القتلة من إطار المباغتة ، انقضَّ (صدقى) على أقربهم إليه ، وكال له لكمة كالقنبلة ، وهو ينتزع مدفعه الآلى من يده ..
ثم أطلق النار نحو الآخرين ..
وأطلقوا هم أيضًا نيرانهم بدورهم ..

وفى نفس اللحظة التى حصد فيها مدفعه اثنين منهم ، كانت رصاصات الآخرين تخترق صدره وذراعه وساقه ..

ولكنه لم يسقط ..

لقد واصل إطلاق النار ، للذود عن زميليه ، حتى أجبر القتلة الثلاثة المتبقين على العودة إلى المصعد ، فى حين اندفع (حسن) و(عبد المحسن) نحوه ، هاتفين :

ـ (صدقى) .. أأنت بخير ؟!

أمسك موضع إصابة صدره بيده ، وهو يهتف بهما :

ـ اتركانى هنا ، وأسرعا بالفرار .. الإسرائيليون لن يقنعوا بهذه الهزيمة السريعة ، وسيرسلون جيشًا للقضاء علينا ، فلا تمنحوهم الفرصة للنصر .

أجابه (عبد المحسن) فى حزم :

ـ لن نتركك خلفنا مهما حدث .

والتقط منه المدفع الآلى ، وألقاه إلى (حسن) ، مستطردًا :

ـ هيا .. احم ظهرينا .

وانحنى يحمل (صدقى) على كتفيه ، وانطلق الثلاثة يعدون هاربين من الفخ ..

وكان أحد أغرب الحوادث ، التى شهدتها (روما) ، فى تلك الفترة ..

لقد تبادل (حسن) إطلاق النيران مع القتلة الثلاثة ، فى بهو الفندق ، حتى نجح مع زميله فى الفرار منه ، واستولوا

على سيارة كبيرة ، انطلقوا بها مباشرة إلى السفارة المصرية ..

وعندما بلغوا المكان ، كان (صدقى) قد نزف الكثير من دمائه ..

وكانت حالته الصحية متدهورة ..

للغاية ..

* * *

ارتفع حاجبا (ا . ص) فى تأثُّر واضح ، عندما بلغ هذه المرحلة ، وران على حجرة المكتب صمت رهيب ثقيل ، استغرق دقيقة كاملة ، قبل أن يتنحنح السيِّد (أشرف) فى شىء من الحرج ، ويقول :

ـ احم .. عصير الليمون هذا رائع للغاية .

أدار (ا . ص) عينيه إليه ، وسأله فى اهتمام :

ـ هل ترغب فى تناول كوب آخر ؟

هزَّ السيِّد (أشرف) رأسه نفيًا ، وهو يغمغم :

ـ أشكرك .

التفت إلىَّ (ا . ص) ، قائلاً :

ـ وماذا عنك ؟!

لم أدر لماذا تجاهلت سؤاله تمامًا ، وكأننى لم أسمعه ، أو لم أعد أبالى بقواعد الذوق واللياقة ، وأنا أسأله فى لهفة واضحة :

ـ أهكذا لقى والدك مصرعه ؟!

التقى حاجبا (أشرف) فى توتر ، وكأنما يعلننى أننى لم أرع حدود اللياقة ، عندما ألقيت هذا السؤال ، فى تلك اللحظة بالذات ، مما ملأ نفسى بالحرج ، فى حين بدا التأثُّر لحظة على (ا . ص) ، ثم قال :

ـ كلاَّ .. إنه لم يلق مصرعه يومئذ .

كدت أقفز من مقعدى فى دهشة ، وأنا أهتف :

ـ عجبًا ! لقد تصوَّرت أن ..

رمقنى السيِّد (أشرف) بنظرة صارمة ، قبل أن أتمَّ سؤالى ، فتراجعت مغمغمًا :

ـ معذرة .. لم أكن أقصد هذا .

ارتسمت ابتسامة شاحبة على شفتى (ا . ص) ، وهو يقول :

ـ لا عليك .

ثم صمت لحظة ، وتابع :

ـ لقد نجا والدى (رحمه اللَّه) بأعجوبة ، فى ذلك الحين ، فقد كان هناك طبيب بارع فى السفارة ، نجح فى استخراج الرصاصات من جسده ، ونقل إليه لترًا ونصف اللتر من الدم ، الذى تبرَّع به العاملون بالسفارة ، ثم نقله السفير بنفسه ، فى سيارة خاصة ، محاطة بحراسة مكثَّفة ، إلى المطار ، حيث حملته طائرة خاصة بجهاز الأمن المصرى إلى (القاهرة) ..

وعاد إلى صمته لحظة أخرى ، ثم قال فى حزن :

ـ ولكنه لم يعد إليها أبدًا مثلما غادرها .. لقد عاد بساق

مصابة ، وصدر ضعيف ، وإصابات تحتاج إلى علاج طويل فعَّال .. ولكن كل هذا لم يؤلمه ، بقدر ما آلمه أنه لم يعد يصلح لمواصلة العمل فى جهاز المخابرات العامة بحالته هذه .

وتنهَّد فى عمق ، وهزَّ رأسه فى أسى ، قبل أن يستطرد :

ـ لقد حاولوا إسناد بعض الأعمال الإدارية إليه ، إلا أنأه رفض هذا بشدة ، مما دفع رئيس الجمهورية إلى تعيينه كملحق عسكرى ، لسفارة (مصر) فى (بريطانيا) .

ورفع رأسه ليتطلَّع إلى السقف فى شرود ، قبل أن يضيف بصوت خافت ، فى محاولة لإخفاء ذلك التأثُّر ، الذى أطلَّ واضحًا من ملامحه :

ـ وهناك لقى مصرعه .

كنت أتمنى ، أكثر ما أتمنى ، أن ألتزم بقواعد الذوق واللياقة ، فى مثل هذا الموقف ، إلا أننى وجدت نفسى أندفع دون أن أدرى ، لأسأله فى لهفة :

ـ كيف ؟!

أشاح السيِّد (أشرف) بوجهه ، ربما ليخفى حنقه وضيقه من أسلوبى ، ولكن (ا . ص) لم يبد عليه أى ضيق أو استنكار ، وهو يجيب :

ـ بعد ما حدث فى ذلك الفندق فى (روما) ، أدرك الإسرائيليون أن أبى واحد من أخطر رجال المخابرات المصرية على الإطلاق ، وقرَّروا اغتياله بأى ثمن ، واسندوا هذه المهمة

لضابطهم (موردخاى) شخصيًّا ، فسافر إلى (لندن) ، واستأجر ثلاثة من القتلة المحترفين ، و ...

بتر عبارته عند هذه النقطة ، وازدرد لعابه فى توتر ملحوظ ، وكأنما يضيق بالتوغُّل فى مثل هذه التفاصيل ، فسألته فى حذر :

ـ وماذا ؟!

تطلَّع إليه السيِّد (أشرف) لحظة ، ويبدو أنه أدرك مقدار تأثُّره بالأمر ، فقد التفت إلىَّ ، مجيبًا فى مزيج من الصرامة والحزم :

ـ لا أحد يدرى ماذا حدث فى ذلك اليوم ، ولا كيف كانت المواجهة ، ولكن من الواضح أن القتلة المحترفين الثلاثة هاجموا والده ، عندما كان يتريَّض كعادته ، فى الصباح الباكر ، محاولاً استعادة لياقته السابقة ، بعد إصاباته فى (روما) ، وأنه لم يسمح لهم بسلبه الروح بهذه البساطة ، فعلى الرغم من أنه لم يكن يحمل سلاحًا ، إلا أنه قاتل فى شراسة ، ونجح فى القضاء على القتلة الثلاثة كلهم ، بعد أن أصابوه برصاصاتهم ، فى أكثر من موضع ، ثم لقى مصرعه بعدها برصاصة غادرة .

سألته فى دهشة :

ـ ومن أطلقها ؟!

أجابنى (ا . ص) هذه المرة ، بلهجة تقطر غضبًا ، وتحمل مرارة الدنيا كلها :

ـ (موردخاى) نفسه .

تنهَّد السيِّد (أشرف) ، ومال يربِّت على كتف (ا . ص) ، فى محاولة لتهدئة انفعاله ، قبل أن يلتفت إلىَّ ، قائلاً :

ـ لم نكن نعرف هذا بالتحديد ، حتى فترة قريبة ، عندما نقل إلينا أحد عملائنا عددًا من الملفات السرية ، عبر جهاز (الفاكس) ، من قلب المركز الرئيسى لـ (الموساد) .. كل ما علمناه ، فى تلك الفترة ، أن الرجل تم اغتياله بتدبير إسرائيلى ، وأنه لقى مصرعه وهو يقاتل بنفس القوة والإصرار ، اللذين قاتل بهما طيلة عمره ..

وربَّت مرة أخرى على كتف (ا . ص) ، قبل أن يتابع بابتسامة باهتة :

ـ ولقد أمر الرئيس (جمال) بإحضار جثمان الرجل من (لندن) وأقيمت له جنازة رسمية ، ظهرت بعدها صورة (أكرم) و(أحمد) ، وهما يتصدران الجنازة ، مع مندوب رياسة الجمهورية ، وعدد من المسئولين ، على صفحات الجرائد ..

وتطلَّع إلى الرجل فى احترام شديد ، ثم أضاف :

ـ الشىء الوحيد المؤكَّد ، أن هذا الأمر قد غيَّر حياة (ا . ص) ومساره تمامًا .

سألت فى لهفة أكثر :

ـ كيف ؟!

تطلَّع السيِّد (أشرف) مرة أخرى إلى (ا . ص) ، الذى صمت لحظة ، ثم قال :

ـ كان هذا تحوُّلاً طبيعيًّا .

ثم عاد يروى القصة ، وقلبى يخفق بانفعال أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

★ ★ ★

٦ ـ المسار ..

لم يكن من السهل أبدًا أن يتجاوز (أكرم) و (أحمد) ما أصاب والدهما ..

وبالذات (أكرم) ..

فبالنسبة لـ (أحمد) ، كان قد فقد والدًا ، وصديقًا ، وشقيقًا أكبر ، فى آن واحد ..

أما (أكرم) ، فقدْ فَقَدَ الكثير ..

والكثير جدًا ..

فوالده لم يكن بالنسبة إليه صديقًا ورفيقًا وكاتم أسرار فحسب ..

بل كان أستاذًا ..

ومدربًا ..

ومثلاً أعلى فى الحياة كلها ..

هو الذى لقَّنه كل ما عرفه ، حتى تلك الأيام ..

هو الذى درَّبه على كل ما اكتسبه من مهارات وخبرات ..

بل هو الذى صنع منه فتى فذًا ، لا يمكن مقارنته بأى من أقرانه ..

ولا حتى بمن يفوقونه سنًا ..

ثم إنه الرجل الذى علَّمه كيف يحب ..

يحب وطنه ..

(مصر) ..

كيف يخفق قلبه لسماع اسمه ..

وكيف يقاتل .. ويموت فى سبيله ..

لذا فلم يكن من السهل عليه أبدًا أن يفقده ..

وبهذه الوسيلة العنيفة ..

القاسية ..

والخسيسة ..

ومنذ تلك اللحظة ، التى علم فيها ما حدث ، نما فى أعماق (أكرم) شعور قوى آخر ، إلى جوار حبه لوطنه ..

شعور بالكراهية للمخابرات الإسرائيلية ..

ولكل ما يحمل اسم (إسرائيل) ..

والعجيب أن ذلك الشعور لم يفارقه قط ، على الرغم من مضى كل تلك الأعوام ، ومن كل ما فعله بالإسرائيليين ، فى ملحمة حياته الطويلة ..

وفى تلك الفترة ، عندما لقى اللواء ـ آنذاك ـ (صدقى) مصرعه ، كان (أكرم) قد اجتاز ـ فى نفس الوقت ـ امتحان الثانوية العامة ، وحصل فيها على مجموع درجات كبير ، يؤهِّله لدخول كلية الهندسة ، التى كانت حلم الشباب فى ذلك الحين(★) ..

(★) فى تلك الفترة ، كان لمعركة بناء السد العالى ، وما صحبها من حماس ، أثر قوى فى نفوس الشباب ، بحيث صار منتهى أمل الواحد منهم أن يصبح أحد مهندسى السد العالى ، مما جعل كليات الهندسة على قمة الهرم الجامعى لفترة طويلة .

ولكنه اختار اتجاهًا آخر ..

لقد التحق بالكلية الحربية ، فى أواخر عام ١٩٦٩ م ..

والمراجع لسجلات الكلية ، فى ذلك الحين ، سيدرك كم بهر الشاب معلميه ومدربيه بقدراته المدهشة ، وكم أثار إعجاب ودهشة ، وربما حسد أقرانه أيضًا ، حتى إنه صار مثلاً يحتذى ، وذروة يسعى الكل لبلوغها ..

ولظروف خاصة ، ارتبطت بتلك المرحلة ، تخرَّج الشاب فى الكلية الحربية بعد عام واحد من التحاقه بها ، مع دفعة حظيت بذلك الامتياز ، لاحتياج القوات المسلَّحة الشديد ، فى ذلك الحين ، لضباط جدد ، لتغذية وحدات الجيش المختلفة ، التى خاضت مع العدو الإسرائيلى حرب استنزاف طويلة ، كبَّدته خسائر فادحة ، وجعلته يتراجع عن خطته الحقيرة لضرب المدنيين فى العمق ، كما فعل مع مصانع (أبو زعبل) ، ومدرسة (بحر البقر) الابتدائية ..

وفى نفس عام تخرّجه ، مات الرئيس (جمال عبد الناصر) ..

وكانت أكبر صدمة عرفتها الأمة العربية ، التى خرجت عن بكرة أبيها ، من المحيط إلى الخليج ، ترثى الزعيم وتودِّعه ..

وفى ظل هذا الحزن الشامل العميق ، أصبح (أكرم) واحدًا من ضباط الجيش المصرى ، فى فترة توترات شاملة مع العدو ، وإعداد لمرحلة قادمة ، ستحدث فيها حتمًا تلك المواجهة ، التى ينتظرها الجميع منذ زمن طويل ..

ومع أيامه الأولى ، أدرك الجميع قدراته المتطوِّرة ، فتم إلحاقه بالسلاح الوحيد ، الذى يصلح لاحتواء كل ما يمكنه منحه ..

القوات الخاصة ..

قوَّات الصاعقة ، التى يقال إن المقاتل الواحد منها ، يفوق مقاتلى فرقة كاملة من المشاة ..

وعلى الرغم من أن حرب الاستنزاف كانت قد توقَّفت رسميًا ، فى ذلك الحين ، إلا أن الشاب تم إسقاطه ثلاث مرات على الأقل ، خلف خطوط العدو ، مع عدد من رفاقه ، لتنفيذ مهام خاصة ، وتكبيد العدو خسائر فادحة ، ثم العودة إلى نقطة متفق عليها ، حيث يتمّ التقاطهم بوساطة الهليوكوبتر ، وإعادتهم إلى الوطن .

وفى المرة الثالثة بالتحديد ، أثبت الشاب أنه طاقة خاصة ، متفجِّرة ، لا يمكن إهمال وجودها قط ..

كان الهدف فى تلك المرة أحد مخازن الذخيرة ، التى يستمدّ منها خط (بارليف) ذخيرته ومؤنه ، والذى لابد من تدميره ؛ لإرباك العدو ، وتكبيده خسائر فادحة .

وفى قلب الليل ، حملت هليوكوبتر حربية الشاب واثنين من رفاقه ، من غرب القناة إلى شرقها ..

إلى صحراء (سيناء) ..

وعلى مسافة خمسة كيلومترات من الهدف ، قفز الثلاثة من الهليوكوبتر ، من ارتفاع عشرة أمتار ، دون مظلة ، وهبطوا

على رمال (سيناء) ، ثم انطلقوا على الفور لتنفيذ المهمة ..

لم يكن من السهل أبدًا أن يقطعوا تلك الكيلومترات الخمسة ، فى قلب الصحراء ، والعدو يحيط بهم من كل جانب ..

ولكنهم فعلوها ..

وبعد ساعة واحدة من المسير(*) ، بدا لهم الهدف واضحًا ، وهم يختبئون فوق تبة رملية ، على مسافة ثلاثين مترًا منه ..

وفى اهتمام ، قال أكبرهم رتبة :

ـ استعدا لتنفيذ المهمة ، عند ساعة الصفر .. سنزحف نحو الجدار الخلفى للمخزن ، وسنتخلّص من الحارسين هناك ، ونزرع قنابلنا الزمنية ، ثم نغادر المكان بأقصى سرعة ..

وستلتقطنا هليوكوبتر العودة من المنطقة (س) المتفق عليها ..

وتطلّع إلى ساعته لدقيقة وبضع ثوان ، قبل أن يشير بيده ، قائلاً :

ـ هيا .

انطلق الثلاثة يزحفون فى سرعة ، على رمال (سيناء) ، كما لو أنهم ثعابين ضخمة ، واقتربوا من الجدار الخلفى للمخزن ..

واقتربوا ..

واقتربوا ..

(★) سرعة الإنسان العادى : ستة كيلومترات فى الساعة .

ثم فجأة ، وقبل أن يبلغوا الهدف تمامًا ، برزت تلك الهليوكوبتر فى السماء..

هليوكوبتر تفتيش حربية إسرائيلية ، خرجت فى تفقُّد عشوائى لبعض المواقع العسكرية ، وقادها القدر إلى مخزن الذخيرة هذا ، فى هذه اللحظة بالذات ..

وعلى الضوء الساطع ، من المصباح الكبير أسفلها ، انكشف المقاتلون الثلاثة ..

وبكل الدهشة والذعر ، هتف قائدها :

ـ اللعنة !.. إنهم المصريون !!

ومع آخر حروف كلماته ، ضغط زر إطلاق النار ، وراح يمطرهم بالرصاصات .

وممّا يؤسف له ، أن رصاصاته الأولى أصابت أحد الثلاثة ، فلقى مصرعه فى الحال ، فى حين هبَّ قائدهم واقفًا ، وهو يهتف بـ (أكرم) :

ـ انتهى أمرنا .. لقد انكشفنا .

كان حرّاس المخزن كلهم قد تحرّكوا ، إثر رصاصات الهليوكوبتر ، ولم يكن القائد قد أتمّ عبارته بالضبط ، عندما رأى (أكرم) ينتزع إحدى القنابل اليدوية من حزامه ، ويلقيها بكل قوته نحو الهليوكوبتر ، التى دارت فى الهواء دورة كاملة ، وعادت تنقضّ عليهما وقائدها يستعد لحصدهما ، ليلحقا برفيقهما فى جنة الخلد ..

وأمام عينى القائد ، المتسعتين حتى آخرهما ، أصابت القنبلة اليدوية مروحة الهليوكوبتر ، عند مركزها مباشرة ، و ..

وانفجرت ..

ومع انفجارها ، ارتجَّت الهليوكوبتر فى عنف ، وانفصلت مروحتها الضخمة ، وطارت وحدها فى الهواء ، تاركة الهليوكوبتر تهوى ، لتنفجر على رمال (سيناء) ..

وفى نفس لحظة انفجارها ، هجم الحراس على (أكرم) وقائده ، وأحدهم يصرخ عبر اللاسلكى :

ـ المصريون !! إنه هجوم مصرى .. أرسلوا إمدادات بأقصى سرعة .

وبسرعة خرافية ، استدار (أكرم) يواجههم .

وانطلقت رصاصاته ..

ورصاصاتهم ..

وشعر الشاب برصاصة تخترق ذراعه ، وبأخرى تغوص فى فخذه ، ورأى النيران تصيب قائده ، وتلقى به ثلاثة أمتار إلى الخلف ..

إلا أنه لم يتوقَّف لحظة عن إطلاق النار ..

ولقدِ أطاعته رصاصاته على نحو عجيب ، فأصابت كلها أهدافها بلا استثناء ، وسحقت كل طاقم الحراسة فى ثوان معدودة ..

وبكل اللهفة ، أسرع (أكرم) يفحص قائده ، الذى هتف به ،

وهو يمسك صدره الذى ينزف بشدة .

ـ اهرب يا (أكرم) .. أسرع .. لقد طلبوا إمدادات عاجلة ، ولن تمضى دقائق ، حتى يكتظ المكان بالإسرائيليين ، حتى سيخيَّل إليك أن (إسرائيل) كلها قد انتقلت إلى هنا .. هيا .. اهرب قبل فوات الأوان .

كان من الواضح أن إصابات القائد شديدة ، وأن احتمالات بقائه على قيد الحياة قليلة للغاية ، وعلى الرغم من هذا ، فقد أجابه (أكرم) فى حزم :

ـ لن أرحل دونك .

ثم اعتدل مستطردًا بلهجة تحمل حسم الدنيا كله :

ـ بعد أن أنتهى من تنفيذ المهمة .

رآه القائد يهرع إلى المخزن ، فهتف به فى ضعف متوتر :

ـ لا وقت لتنفيذ المهمة يا (أكرم) .. لن يمكنك زرع كل القنابل الزمنية وحدك .. اهرب يا فتى .. اهرب قبل فوات الأوان .

ولكن (أكرم) لم يستمع إليه ..

كان يعلم أنه على حق تمامًا فى كل ما يقوله ، وأن الإسرائيليين سيملئون المكان بعد قليل ، إلا أنه لم يكن يستطيع العودة ، قبل أن ينفذ ما أتى من أجله ..

حتى ولو دفع حياته ثمنًا لهذا ..

وبكل سرعته وخبرته ومهارته ، راح يزرع القنابل الزمنية ،

فى الأماكن المحدودة لها ، فى سباق رهيب مع الزمن ..

ومع الموت ..

وعندما انتهى من إعدادها كلها للانفجار ، كانت أضواء مصابيح سيارات (الجيب) العسكرية الإسرائيلية تسطع من بعيد ..

وبكل الأسى ، هتف قائده :

ـ فات الأوان يا (أكرم) .. فات الأوان .

اندفع (أكرم) نحوه ، وحمله فى خفة ، وانطلق يعدو به نحو إحدى سيارات رجال الحراسة ، الذين لقوا مصرعهم برصاصاته ، وهو يقول :

ـ ما دمنا على قيد الحياة ، فالأوان لم يفت بعد .

تأوَّه القائد فى ألم ، عندما وضعه (أكرم) داخل السيارة ، وانطلق بها بأقصى سرعته ، على رمال (سيناء) ..

ومن خلفهما دوى الانفجار ..

انفجر مخزن الذخيرة الرئيسى بدوى هائل ، وخرجت منه كتلة رهيبة من اللهب والنيران ، شاهدها المراقبون فى وضوح ، من الضفة الغربية للقناة ، وهوت لها قلوب الإسرائيليين بين أقدامهم ..

ثم امتلأت نفوسهم بالغضب ..

وانطلقوا خلف (أكرم) وقائده ..

وخبر الإسرائيليون مهاراته المدهشة فى القيادة والمناورة ..

وانبهروا ..

انبهروا بحق ..

لقد كان ينطلق فوق الأرض الرملية غير الممهّدة ، بنفس السلاسة التى يمكن أن تنطلق بها سيارة رياضية أنيقة ، فوق طرق ممهدة ، فى نعومة الحرير ، ويحفظ توازن السيارة بقبضة فولاذية ، لا تسمح لعجلة القيادة بعصيان أوامره ، أو الانحراف عن المسار الذى حدّده لها ، مهما بلغت صعوبة السير وعسرة الأرض ..

وفى شحوب شديد ، غمغم القائد :

ـ لن يمكننا العودة إلى المنطقة (س) .. لقد انكشف الأمر ، وانطلقت الإمدادات الإسرائيلية ، وأصبح دخول طائرتنا أشبه بالانتحار .

أجابه (أكرم) فى حزم ، وهو ينحرف إلى اليسار :

ـ أعلم هذا .

انطلقت الرصاصات من خلفه كالمطر ، وأصاب بعضها جسم (الجيب) ، إلا أنه لم يتوقّف ..

وواصل انطلاقه ، نحو آخر مكان يمكنهم تخيّله .

نحو خط (بارليف) نفسه ..

ونحو منطقة بعينها منه ..

وعندما بدا الخط واضحًا ، أمام عينى القائد ، الذى فقد الكثير من دمه ، وأخذ يقاوم غيبوبة عنيدة فى إصرار ، هتف ذاهلاً :

ـ (أكرم) .. إنك تتجه مباشرة نحو خط (بارليف) ..

أجابه (أكرم) بنفس الحزم :

ـ أعلم هذا .

كان جنود خط (بارليف) قد انتبهوا إلى ما يحدث ، ورأوا سيارته تنطلق نحوهم ، وخلفها سيارات أخرى تطاردها ، وتفتح عليها وابل نيرانها ، فأطلقوا النار نحو سيارته بدورهم ، فى محاولة لمنعه من بلوغهم ..

وهكذا أصبح (أكرم) وقائده بين شقى الرحى ..

أو بين المطرقة والسندان ..

رصاصات تنهال عليهما من الأمام والخلف ، وتضرب جسم سيارتهما من كل صوب ، و ..

وانحنى (أكرم) ، ودفع رأس قائده إلى أسفل ، واندفع بين جنود خط (بارليف) ، وضغط دوّاسة وقود السيارة أكثر وأكثر ، فارتفعت نحو التبة الرملية ، التى انتقى موقعها بالتحديد ، عندما تذكّر من النموذج المجسّم ، أنها ذات ميل حاد ، أكثر من غيرها ، وترك السيارة تبلغ قمتها ، وهى تنطلق بأقصى سرعة ممكنة ، فوثبت عن القمة ، وطارت فى الهواء بضعة أمتار ، متجاوزة خط (بارليف) كله ، لتهوى فى النهاية فى قناة (السويس) ..

وانطلقت الرصاصات الغاضبة خلف السيارة ، التى ارتطمت بالمياه فى عنف ، وغاصت فى أعماقها بسرعة ..

ومع غوصها ، انتزع (أكرم) قائده منها ، وراح يسبح به في قوة ، نحو الشاطئ الغربى للقناة ..

ونجا (أكرم) ..

ونجا معه قائده ، الذى شاهده بعينيه يفعل كل هذا ..

وتحقق الهدف ..

وانفجر مخزن الذخيرة ..

وفى التقرير الذى قدّمه للقيادة ذكر القائد ما حدث ..

وبكل التفاصيل ..

وكان من الطبيعى أن يتم رفع التقرير لوزارة الحربية ، التى أرسلت نسخة منه إلى المخابرات الحربية ، وأخرى إلى المخابرات العامة ..

وارتفع حاجبا (عبد المحسن) فى تأثُّر ، عندما طالع ذلك التقرير ، وغمغم :

ـ حقًا .. هذا الشبل من ذاك الأسد ..

وافقه (حسن) بإيماءة من رأسه ، وقال :

ـ الواقع أن الفتى قد أدى المهمة بأفضل مما كان يفعله والده فى شبابه .

غمغم (عبد المحسن) ، وهو يفكر فى عمق :

ـ هذا صحيح .

ثم سأله فى اهتمام :

ـ ألا تعتقد أننا بحاجة إلى شاب مثله ، فى جهاز المخابرات ؟!

أجابه (حسن) على الفور :

ـ بالتأكيد ، ولكنه ما زال صغير السن ، بالنسبة للالتحاق بالعمل هنا رسميًا .

قال (عبد المحسن) مستنكرًا :

ـ صغير السن ؟! أى قول هذا يا رجل ؟! أنت تعلم مثلى أن (أكرم) بالذات استثناء من هذه القاعدة ، وأن (صدقى) (رحمه الله) ، قد تولّى أمره بنفسه ، وصنع منه معجزة حقيقية ، فى عالم المخابرات .

تنهّد (حسن) ، وقال :

ـ (صدقى) صنع من ابنه مقاتلاً من الطراز الأوّل ، ولكن عمل المخابرات لا يحتاج إلى القوة والعضلات ، بقدر ما يحتاج

إلى الذكاء والحكمة ورجاحة العقل .

التقى حاجبا (عبد المحسن) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ ومن قال إن الشاب يفتقر إلى الذكاء والحكمة ورجاحة العقل ؟!

نهض (حسن) من مقعده ، قائلاً :

ـ إنه ما زال صغير السن ، وهذه الأمور الثلاثة لا يمكن التدرُّب عليها ، أو اكتسابها بالمران .

هتف (عبد المحسن) معترضًا :

ـ من قال هذا ؟!

ابتسم (حسن) ، وهو يجيب :

ـ أنا ..

ثم أضاف ، قبل أن يغادر الحجرة :

ـ ولا تنس أننى رئيس لجنة اختيار المرشحين الجدد .

قالها ، وأغلق الباب خلفه ، تاركًا (عبد المحسن) وحده فى الحجرة ، يعاود قراءة التقرير الخاص بعملية مخزن الذخيرة ، وهو يتمتم فى أسف :

ـ يا للخسارة !

ولكنه ـ من الناحية الرسمية ـ لم يكن يملك ما يمكن أن يعاون به الشاب على الالتحاق بجهاز المخابرات العامة ..

لم يكن يملك هذا قط ..

★ ★ ★

من المؤكَّد أن هيئتى ، ونظرة الدهشة الكبيرة ، المطلَّة من عينىَّ ، كانت تعطيانى شكلاً مضحكًا ، فقد أطلق السيِّد (أشرف) ضحكة قصيرة رصينة ، قبل أن يشير إلىَّ ، قائلاً :

ـ ماذا دهاك ؟!

التفتّ إليه بحركة حادة ، وقلت :

ـ ماذا ؟! ماذا تقصد ؟!

ابتسم ، قائلاً :

ـ إنك تحدِّق فى الرجل بدهشة عجيبة .

جعلتنى كلماته أنتبه إلى الأمر ، فاعتدلت بحركة سريعة ، وقلت :

ـ معذرة ، ولكننى أشعر بدهشة لا حدود لها بالفعل .

سألنى (ا . ص) فى اهتمام :

ـ لماذا ؟!

أدهشنى سؤاله أكثر ، فلوَّحت بذراعى ، قائلاً :

ـ لماذا ؟! السبب واضح للغاية .. إننى أشعر بالدهشة ؛ لأنهم رفضوا انضمامك إلى المخابرات العامة ، على الرغم من صداقتهم السابقة لوالدك ، و..

قاطعنى فى حزم :

ـ وما شأن صداقتهم لوالدى بالأمر ؟!

ارتبكت ، قائلاً :

ـ لست أقصد شيئًا ، ولكن ..

أرتج علىَّ ، فلم أستطع إكمال عبارتى ، فتنهَّد هو ، قائلاً :

ـ عندما رفض الرجال التحاقى بالمخابرات العامة ، فى ذلك الحين ، كانوا يؤدُّون واجبهم بكل أمانة ، بغضِّ النظر عن أية اعتبارات أخرى ، فقد درسوا أمرى جيدًا ، ووجدوا أنه فى تلك المرحلة ، التى يتم فيها الاستعداد لمواجهة شاملة مع العدو الإسرائيلى ، كان وجودى فى صفوف القوات الخاصة فى الجيش ، أكثر فائدة وأهمية للجميع ، من التحاقى بالمخابرات .

وصمت لحظة ، قبل أن يتابع :

ـ وأعتقد أنهم كانوا على حق حينذاك .

سألته فى اهتمام :

ـ أيعنى هذا أنك لم تلتحق بجهاز المخابرات العامة ، إلا بعد حرب أكتوبر ؟!

صمت لفترة أطول هذه المرة ، ثم ابتسم ، قائلاً :

ـ نعم ولا .

قلت فى دهشة :

ـ أى جواب هذا ؟!

اتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

ـ هذا ما حدث فعليًا ، فصحيح أننى لم ألتحق بالمخابرات العامة ، رسميًا ، إلا بعد أن أديت واجبى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ م ، فى صفوف القوات الخاصة ، إلا أننى بدأت عملى مع الجهاز فعليًا ، قبل هذا التاريخ بعامين كاملين .. وبالتحديد فى يوليو ١٩٧١ م ..

سألته فى لهفة واضحة :

ـ وما الذى حدث فى هذا التاريخ ؟!

صمت لحظة ، شرد خلالها بصره ، وكأنما يستعيد تلك الذكريات البعيدة ، قبل أن يبتسم مرة أخرى ، مجيبًا :

ـ أمر غير متوقَّع .. أبدًا .

وعاد يروى ..

وأنا أنصت واستمع ..

وبكل الاهتمام ..

★ ★ ★

مع كل المهارات والخبرات ، التى اكتسبها (أكرم) ، كان من الطبيعى أن ينتقل بسرعة إلى مرحلة تدريب الآخرين ..

وكان من الطبيعى أيضًا أن يتفوَّق فى هذا المضمار ..

ولو أنك التقيت بأحد الجنود الذين تولَّى تدريبهم ، أو الذين شاركوه ملحمة النصر ، فى أكتوبر ١٩٧٣ م ، لأدركت الأثر المبهر ، الذى تركه فى نفوسهم ، والحماس العجيب الذى ينزرع فى قلوبهم ، وهم يتحدثون عنه ، ويصفونه بعبارات رنَّانة ، وكأنه أسطورة حية ، لم يصدِّقوا وجودها ، حتى وهم يرونها أمام أعينهم ..

فلقد بذل (أكرم) ، فى تلك الفترة ، جهدًا خرافيًا ؛ لينقل كل معلوماته وخبراته إلى جنوده ، وإلى زملائه الضباط ، فى القوات الخاصة وخارجها ..

ولم يدّخر ذرة واحدة من جهد ، أو وقت ، أو معرفة ، أو يضنّ بخبرة من خبراته العديدة ، فى محاولة لصنع فريق مدهش ، نجح فى الأيام الأولى من حرب أكتوبر ، فى منع طابور كامل من المدرعات ، من عبور ممر (متلا) ، لمدّ يد العون للمحاصرين فى خط (بارليف) ، وتصدّى لفرقتين من المظليين الإسرائيليين ، على نحو لم تشهد الحروب الحديثة مثله ، حتى فى أحلك الظروف ..

وفى ذلك اليوم ، من أيام يوليو ١٩٧١ م ، كان (أكرم) يدرّب جنوده على القفز بالمظلات ، من ارتفاع شاهق ، وكان أوّل من قفز من الطائرة ، التى حلّقت فوق مدن القناة ، والرجال يفارقونها واحدًا بعد الآخر ، فى ظلمة الليل ، ويصنعون فى سماء المنطقة سيمفونية مدهشة(*) ، خلبت لبّ الصديق ، وأثارت ذعر ورهبة العدو ..

وبينما كان يهبط بمظلته ، أدار (أكرم) عينيه فى السماء ، ليطمئن إلى أن كل رجاله قد هبطوا ..

وبسلام ..

ولكنه لم يكد يلمس الأرض بقدميه ، ويطوى مظلته ، حتى هرع إليه أحد الجنود ، وأدّى التحية العسكرية فى حزم ، ثم قال بصوت قوىّ :

(*) السيمفونية : تأليف آلى فى الموسيقى الأوروبية ، والأصل فيها فى افتتاحيات الأوبرات الغنائية الإيطالية ، فى القرن السابع عشر ، ثم تطوّر إلى تأليف مستقل ، تشترك فيه مجموعة الآلات (الأوركسترا) .

ـ القائد يطلبك فى مكتبه على الفور يا سيادة الملازم .

كان مطلبًا مباغتًا غير متوقّع ، وعلى الرغم من هذا ، فقد أجابه (أكرم) فى حسم :

ـ سأذهب على الفور .

أعاد مظلته إلى حقيبتها ، وهو يتجه فى خطوات سريعة نحو مقر القيادة ..

وعندما اقترب منه ، وقع بصره على سيارة عسكرية كبيرة ، تقف أمام المقر ، ففحصها ببصره فى سرعة ، وسجّل رقم لوحاتها المعدنية فى ذاكرته ، قبل أن يدقّ الباب ، قائلاً فى صوت حاسم :

ـ الملازم (أكرم) يا سيّدى القائد ..

أتاه صوت القائد من الداخل ، يهتف :

ـ أدخل يا (أكرم) .. إننا ننتظرك منذ فترة طويلة .

دفع (أكرم) الباب ، ودلف إلى مقر القيادة ، ولم يكد يفعل ، حتى سمع صوتًا مألوفًا ، يقول :

ـ ها نحن ذا نلتقى ثانية أيها الملازم .

استدار (أكرم) بسرعة إلى مصدر الصوت ، حيث وقف عدد من الرجال ، لم يكد بصره يقع عليهم ، حتى تفجّرت الدهشة فى أعماقه ..

وكانت دهشة قوية ..

وبلا حدود .

* * *

٧ ـ النيـــران ..

كانت دهشة (أكرم) عارمة بحق ، عندما وقع بصره على ضابط المخابرات (حسن) ، فى ذلك المكان بالذات ، فتهللت أساريره ، وكاد يهتف بعبارة ترحاب ، لولا أن تعلّق بصره بالرجال الآخرين فى الحجرة ، والذين يفوقه أصغرهم بثلاث رتب على الأقل ، فأدّى التحية العسكرية فى قوة واحترام ، وهو يقول لـ (حسن) :

ـ مرحبًا بك فى معسكرنا يا سيّدى .

اتجه إليه (حسن) ، وربّت على كتفه فى حرارة ، قائلاً :

ـ كم تسعدنى رؤيتك ثانية يا (أكرم) ، وفى معسكر قوات الصاعقة بالتحديد .

كان ضابط المخابرات العتيق يقاوم رغبة قوية ، انتقلت من بصره إلى كيانه كله ، ليضمّ الشاب إليه ، ويتبادل معه حديث الذكريات ، حول الأيام الخوالى ، عندما كان يقضى أمسياته فى حديقة فيلتهم ، مع (عبد المحسن) و (عزيز) ، و ..

ولم يكن باستطاعته هذا أبدًا ..

وخاصة فى مثل هذه الظروف ..

لذا فقد اكتفى بنظرة التأثّر ، التى أطلّت من عينيه ، ونفذت إلى كيان (أكرم) ، فاختلج لها قلبه فى شدة ، واستعاد معها نفس الذكريات القديمة ، التى كتمها كلاهما فى أعماقه

و(حسن) يشيح بوجهه ، فى محاولة لإخفاء انفعاله ، ويشير بيده ، قائلاً :

ـ هذا هو الشاب الذى حدّثتكم عنه أيها السادة ، والذى سنعتمد عليه ، بعد الله (سبحانه وتعالى) ، فى عملية (كأس النار) .

التقى حاجبا (أكرم) فى تساؤل ، وتسلّل إليه شىء من التوتّر ، مع نظرات الرجال ، التى تركّزت كلها عليه ، فى حين تابع (حسن) فى حماس ، وهو يقدّمهم إليه :

ـ هؤلاء السادة من المخابرات الحربية أيها الملازم ، فسيتم التعاون بيننا هذه المرة ، لإنجاز المهمة المطلوبة .

تساءل (أكرم) فى أعماقه عن تلك المهمة ، التى حملت اسمًا أقرب إلى الروايات الأسطورية ، يوحى بالعنف والقسوة واللهب ..

اسم (كأس النار)(*) ..

ولم يطل تساؤله ، فقد عقد (حسن) كفيه خلف ظهره ، وهو يقول :

ـ الواقع أن الأمر خطير بالفعل أيها الملازم ، فمنذ عدة سنوات ، نجحنا فى زرع عميل مصرى فى قلب (إسرائيل) ،

(*) ليس الاسم الحقيقى للعملية ، ولكنه يشترك معه فى المعنى والمضمون .

وساعدناه على توطيد صلاته بالمجتمع الإسرائيلى بكافة طوائفه ، وبالذات الشقّ العسكرى منه ، ولقد أثبت ذلك العميل كفاءة نادرة ، طوال فترة إقامته هناك ، حتى إنه أصبح صديقًا شخصيًا لعدد من كبار قادة وضباط الجيش الإسرائيلى ، و ..

وصمت لحظة ، ثم تابع فى حزم :

ـ ومن هنا استطاع أن ينقل إلينا معلومة بالغة الخطورة .

وانعقد حاجباه ، وهو يتطلّع إلى عينى الشاب مباشرة ، وقال بصوت قوى :

ـ الإسرائيليون أنشئوا خط أنابيب ، بطول قناة (السويس) ، لكى يتم ضخ مادة سريعة الاشتعال عَبْرها ، وإشعال النيران فى القناة ، إذا ما حدثت محاولة لعبورها ، أو لاقتحام خط (بارليف) .

بدا توتر ملحوظ على وجه الشاب ، والتقى حاجباه فى شدة ، وقد بدت له المعلومة رهيبة بالفعل ، حتى إنه اندفع يقول فى قلق :

ـ وهل يثق ذلك العميل بصحة المعلومة يا سيِّدى ؟!

ثم انتبه إلى اندفاعته هذه ، فعاد إلى وقفته العسكرية ، مستطردًا :

ـ معذرة أيها السادة ، ولكن البريطانيين أطلقوا شائعة مماثلة ، إبان الحرب العالمية الثانية .

تبادل العسكريون نظرة صامته ، فى حين تألّقت عينا (حسن) ، وهو يسأله :

ـ وما معلوماتك عن تلك الواقعة أيها الملازم ؟

أجابه (أكرم) فى اهتمام بالغ :

ـ فى صيف عام ١٩٤٠ م ، وعندما كان الميجور البريطانى (جون بيكر هوايت) يتفقّد النظم العسكرية ، والأسلحة التى تمتلكها (بريطانيا) ، فى خليج (سانت مارجريت) ، بالقرب من (دوفر) ، بصفته أحد ضباط المخابرات البريطانيين ، أثار قلقه أن الشاطئ كان فى حماية فصيلة من حملة البنادق ، ولديها مدفعان فحسب ، من طراز (بريـن) ، ومدفع آلى واحد ، من طراز (فيكرز) ، أما المدفعية المساعدة ، فكانت قليلة للغاية ، من طراز فرنسى عتيق ، من عيار (٧٥ مم) ، ولكل مدفع عشر قذائف فقط ، وكان هذا يعنى بالنسبة إليه أن أى هجوم يستهدف تلك المنطقة ، سينجح حتمًا فى غزو (انجلترا) .. ولكنه شاهد فى منطقة ما على الشاطئ خط أنابيب قديمًا ، يضخ زيت الوقود من ثقوب صغيرة ، أشبه برشّاشات الحدائق ، وقد اشتعلت فيه النيران ، فبدا كما لو أنه ألف تنين صغير ، ينفث اللهب .. وطوال طريق عودته إلى (لندن) ، لم يفارق مشهد النيران مخيِّلته قط ، حتى إنه لم يكد يصل إلى مقر قيادته ، حتى طرح الفكرة على عدد من الخبراء لدراستها ، وطلب منهم إعداد تقرير حول إمكانية مد خط من الأنابيب بامتداد الشاطئ ، لتضخ النيران على الجنود ، فى أية محاولة للغزو .. ولقد أفتى أولئك الخبراء بأن الفكرة ممكنة

التنفيذ ، ولكنها باهظة التكاليف .. وهنا حوّل (هوايت) الأمر من حقيقة إلى شائعة ، أطلقها فى كل الدول والأماكن ، التى زرع فيها الألمان نقاط تنصتهم ، حتى بلغت الشائعة جهاز مخابراتهم ، وأصابتهم بالذعر ، وخاصة عندما أجروا تجاربهم حول الأمر ، وثبت لهم إمكانية حدوثه .. وبناءً على هذه الشائعة وحدها ، ودون أن تعمل (بريطانيا) على بناء خط الأنابيب فعليًا ، ألغى الألمان خطة غزو (انجلترا) كلها ، خشية أن تلتهم النيران جنودهم على شواطئها(*) .

انتهى (أكرم) من حديثه ، وصمت ، فران على المكان كله صمت رهيب ، قطعه أكبر رجال المخابرات الحربية رتبة ، وهو يقول فى انبهار واضح :

ـ ما شاء الله ، ولا قوة إلا بالله (سبحانه وتعالى) .

وهنا لم يملك (حسن) نفسه ، فاندفع يحتوى الشاب بين ذراعيه ، هاتفًا :

ـ حماك الله ورعاك يا فتى .. لقد أحسن (صدقى) (رحمه الله) عمله حقًا .. إنك موسوعة فى تاريخ المخابرات .

وتبادل رجال المخابرات الحربية نظرة أخرى ، ثم قال أحدهم :

ـ إنه الشاب المناسب تمامًا .

(*) قصة حقيقية .

شدّ (أكرم) قامته مرة أخرى ، قائلاً :

ـ كلى فداء لـ (مصر) يا سيدى .

ربّت (حسن) على كتفه فى حرارة هذه المرة ، وقال فى حماس :

ـ أحسنت يا (أكرم) .. أحسنت يا ولدى .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، وكأنما يحاول السيطرة على مشاعره ، قبل أن يقول :

ـ كلنا نعرف تلك القصة البريطانية القديمة أيها الملازم ، ولكن الأمر ليس مجرّد شائعة .. لقد أنشأ الإسرائيليون خط أنابيب اللهب بالفعل ، ولقد أكّد لنا عميل آخر هذا ، وأخبرنا بالوسيلة التى سيطلقونها بها ، إذا ما حدث العبور ؛ فقد أعدّوا عددًا كبيرًا من الصهاريج الضخمة ، معبّأة بخليط من مادة سريعة الاشتعال ، ولها صمامات تتحكّم فيها مضخّات ماصة كابسة ، ويخرج منها خط من الأنابيب ، بقطر ست بوصات ، وتنتهى بفتحات تحت سطح الماء ، على مسافات متقاربة ، فى كل المواضع الصالحة للعبور(*) .. كل هذ تأكّدنا منه ، وتيقّنا من أمره ، ولكننا مازلنا بحاجة إلى معلومة شديدة الأهمية .. بل وربما كانت أكثر النقاط خطورة ، فى الأمر كله .

ثم مال نحوه ، مستطردًا فى صرامة :

(*) حقيقة .

ـ نحتاج إلى معرفة طبيعة المادة ، التى يستخدمها الإسرائيليون ، لإشعال النيران فى القناة .

وتنهَّد فى عمق ، قبل أن يتراجع ، متابعًا :

ـ لابد أن نجرى تجاربنا عليها ، ونختبرها ، ونرى بأعيننا التأثير الذى يُمكن أن تحدثه ، عندما يبدأ العبور الحقيقى .

وصمت لحظة ، ثم وضع يده على كتف (أكرم) ، قائلاً فى حزم :

ـ باختصار ، لو لم نحصل على تلك العينة ، فسيتأخَّر قرار العبور كثيرًا .. كثيرًا جدًّا .

انتفض جسد الشاب كله ، من فرط الحماس ، وهو يقول :

ـ سنحصل عليها يا سيِّدى .. سنحصل عليها بإذن اللّه ..

ابتسم (حسن) ، وقال :

ـ أنا واثق من هذا يا ولدى .. سنحصل عليها بإذن اللّه (سبحانه وتعالى) ، وسيتحقَّق لنا النصر .. كل النصر ..

أدَّى (أكرم) التحية العسكرية فى حزم وقوة ، وهو يقول :

ـ أنا رهن إشارتكم يا سيِّدى ، وعلى أتمّ الاستعداد للقيام بالمهمة فورًا .

تبادل (حسن) نظرة زهو مع العسكريين ، قبل أن يجيب :

ـ أعلم هذا يا ولدى .. أعلم هذا .. هيا .. اذهب لاستبدال زيك العسكرى هذا ، وارتد ثيابك المدنية ، فسنرحل عن هنا على الفور ، إذ ينتظرك الكثير ، قبل أن تبدأ مهمتك ..

أجابه (أكرم) فى حزم :

ـ دقائق وأصبح مستعدًا يا سيِّدى .

أدى التحية مرة أخرى لقائده والعسكريين ، واتجه فى خطوات قوية إلى الخارج ، ولكن (حسن) استوقفه ، قائلاً :

ـ (أكرم) .. انتظر ..

توقَّف الشاب ، ودار على عقبيه بأسلوب عسكرى صرف ، وتطلَّع إلى (حسن) فى اهتمام ، جعل هذا الأخير يبتسم ، قائلاً :

ـ هناك أمر هام ، من الضرورى أن تدركه ، قبل أن تبدأ عملك .

سأله (أكرم) فى شىء من الحذر :

ـ وما هو ؟!

اتسعت ابتسامة (حسن) قليلاً ، وهو يجيب :

ـ صحيح أن هذه العملية تتم تحت قيادة مشتركة ، من المخابرات العامة والحربية ، ولكنك ، عندما تتولَّى أمرها ، فستعمل باسمنا نحن .

خفق قلب الشاب فى قوة ، وهو يعقد حاجبيه قليلاً ، فتابع (حسن) فى حزم :

ـ باسم المخابرات العامة المصرية ..

وانتفض جسد الشاب كله فى عنف وانفعال ، وأدَّى التحية العسكرية فى قوة أكبر ، ثم عاد يدور حول نفسه ، بذلك الأسلوب العسكرى ، قبل أن يندفع معادرًا مقر القيادة ، تاركًا

قلبه خلفه ، يهتف بالاسم ، الذى تعلَّم أن يحبه ويموت فى سبيله ، منذ تنسَّم هواء الحياة ..

باسمها ..

اسم (مصر) ..

★ ★ ★

ومرة أخرى ، لعب القدر لعبته مع الشاب ..

(حسن) ، ضابط المخابرات الوحيد ، الذى كان يرفض وبشدة ، انضمامه إلى المخابرات العامة ، هو نفس الذى ذهب يدعوه إليها ، عندما استدعى الأمر هذا ..

و (إسرائيل) ، التى لم يبغض أكثر منها ، فى حياته كلها ، كانت أوَّل هدف يتجه إليه ، ويقاتل على أرضه ، فى أوَّل مهمة رسمية له ، لحساب المخابرات العامة المصرية ..

ولقد كانت المهمة مستحيلة بالفعل ، من كل الوجوه ، وبكل الحسابات ..

وكان الذهاب إلى قلب (إسرائيل) ، فى مثل تلك الفترة ، التى اشتعل فيها الموقف ، على كل الجبهات ، بمثابة إلقاء المرء نفسه فى فوهة بركان ثائر ..

ولكن (أكرم) فعلها ..

وسافر إلى قلب (إسرائيل) ..

ومن المؤكد أن كل قارئ يشعر بلهفة شديدة ، لمعرفة ما الذى فعله هناك ، وكيف نجح فى الحصول على عينة المادة سريعة الاشتعال ، وعاد بها سالمة إلى (القاهرة) ..

ومن المؤكّد أكثر أن الجميع ينتظرون ويتوقعون قراءة التفاصيل كاملة ، على الصفحات التالية ..

ولكن هذا ـ للأسف الشديد ـ ما زال يندرج تحت بند السرية المطلقة ، ولا يمكن نشر تفاصيله الكاملة حاليًا(*) ..

ومرة أخرى .. للأسف ..

كل ما يمكننا قوله هنا ـ الآن ـ هو أن (أكرم) قد دخل إلى (إسرائيل) بجواز سفر أوروبى ، دون أن يشكّ رجل أمن واحد فى أمره ، وأن الرجال فى (القاهرة) اتسعت عيونهم عن آخرها ، من فرط الدهشة والذهول والانبهار ، عندما وصلتهم منه معلومات بالغة الخطورة ، أرسلها من داخل المعامل الكيماوية الإسرائيلية ، التى تقوم بإنتاج تلك المادة السرية ..

ولا أحد يعلم كيف بلغ ذلك المكان ، الذى يحيطه الإسرائيليون بقدر هائل من السرية ، تعجز معه أية نملة صغيرة عن الدخول ، دون أن تخضع للتفتيش الدقيق ، ثلاث مرات على الأقل ، فى ثلاث مراحل مختلفة !!

ولا كيف حصل أخيرًا على عينة من المادة ، وعاد بها إلى (القاهرة) عبر (باريس) و (روما) !!

(★) ربما يتم قريبًا ، بإذن الله (سبحانه وتعالى) ، نشر تفاصيل العملية ، فى كتاب مستقل ، فى سلسلة (كتاب كوكتيل) .

ولكن العينة كانت بين يدى الرجال فى (القاهرة) ، فى أوائل ديسمبر عام ١٩٧١ م ..

وبدأت عملية اختبارها وفحصها ، ليتضح بعدها أنها عبارة عن مزيج من مادة (النابالم) الحارقة ، مع زيوت سريعة الاشتعال ، وكيروسين ..

وفى منطقة بعيدة عن العمران ، على مياه النيل ، تم إجراء تجربة عملية للعبور ، مع استخدام ذلك المزيج المشتعل ..

وكانت النتائج مخيفة للغاية ..

فلقد بلغت درجة حرارة سطح الماء ، بعد إشعال النيران ، حوالى سبعمائة درجة مئوية ، مما يعنى أنه لو تم استخدام تلك المضخات ، فى أثناء عملية العبور ، لأسفر هذا عن خسائر فادحة رهيبة ، ربما التهمت أكثر من تسعين فى المائة من موجة العبور الأولى ..

ومرة أخرى ، كان على (أكرم) أن يعود إلى (إسرائيل) ، فى مهمة أكثر سرية وخطورة ، ليحصل من الجنرال (شموئيل جونين) ، قائد جبهة (سيناء) ، فى ذلك الحين(*) ، على سر الأسرار ، فى ذلك الشأن ..

على خريطة أنابيب (النابالم) ، المختفية تحت مياه القناة .

وبفضل ما حصل عليه (أكرم) ، انطلقت مجموعتان من الرجال ، فى فجر السادس من أكتوبر ١٩٧٣ م ، لتنفيذ الشق الأخير من المهمة ..

(★) حقيقة .

المجموعة الأولى قامت بقطع خراطيم المضخات الماصة الكابسة ، المختفية تحت رمال (سيناء) ، فى حين تولت المجموعة الثانية ، من رجال الضفادع البشرية ، عملية سد فتحات الأنابيب بلدائن خاصة ، ذات قدرة على التصلب السريع .

وعندما اندلعت الحرب فعليًا ، بعد عدة ساعات ، وحاول الإسرائيليون تشغيل خط اللهب ، وإحراق قوة العبور الأولى ، فوجئوا بأن سلاحهم الأول صار فاسدًا ، أعجز من أن يطهو دجاجة صغيرة ..

وكان العبور ..

والنصر ..

وفى نفس الوقت ، الذى تمت فيه عملية قطع خط اللهب ، كان (أكرم) ينفذ مع مجموعة من رجال الصاعقة البواسل مهمة أخرى بنفس الخطورة ..

مهمة مازالت تندرج أيضًا ، تحت بند السرية المطلقة ..

ولكنها تركت فى الجميع أثرًا لم ولن يمحوه الزمن ، مهما طال المدى ..

وفى الوقت ، الذى احتفلت فيه (مصر) كلها بأول انتصار عسكرى حقيقى ، على العدو الإسرائيلى ..

وبينما كان الرئيس (أنور السادات) يلقى خطابًا حماسيًا قويًا ، فى مجلس الأمة (الشعب حاليًا) ، كان (أكرم صدقى) يقف أمام مدير المخابرات العامة الجديد ، ليؤدى القسم ، الذى

لم يتمكن والده (رحمه الله) فى حياته كلها ، أكثر من أن يسمعه على شفتيه ..

قسم الالتحاق بالمخابرات العامة المصرية ..

ولكن (أكرم) كان يشعر أن روح والده تحلق حوله ، وهو ينطق كل حرف من حروف القسم ، لذا ، فلم يكد يغادر مكتبه ، فى اليوم الأول لعمله ، حتى ذهب يلتقى بشقيقه (أحمد) ، الذى لم يكن قد تخرج بعد فى كلية الطب ، لينطلقا معًا إلى حيث يلتقيان بأحب إنسان إلى قلبيهما ..

والدهما ..

وأمام قبر (صدقى) ، ردد (أكرم) القسم مرة أخرى ؛ ليطمئن والده إلى أن ابنه ، الذى قضى فترة طويلة من عمره لتدريبه وتثقيفه ، وصقل مواهبه ، قد بلغ ما أراده له بالضبط ، وحقق آخر أحلامه فى الدنيا ..

ثم وضع يده على كتف شقيقه ، وانطلقا معًا يواصلان عملهما من أجل الوطن ..

من أجل (مصر) ..

* * *

« إنها الثانية والربع صباحًا .. »

انتزعنى السيد (أشرف) من تركيزى ، بعبارته هذه ، وهو يشير إلى ساعته ، فتراجعت فى مقعدى فى ضيق ، وأنا أقول :

ـ آه .. معذرة .. لم أنتبه لهذا ..

لم أكن قد انتبهت لمرور الوقت بالفعل ، إلا أن آخر ما كنت أتمناه ، فى تلك اللحظة ، هو الانصراف ..

كنت أتمنى من أعماق قلبى ، أن أواصل حديث الذكريات ، وتقليب أوراق البطل ، حتى ولو مرّ علينا ألف صباح وصباح ..

ولكن السيِّد (أشرف) نهض ، ومدّ يده يصافح (ا . ص) ، قائلاً :

ـ أشكرك يا سيِّدى ، على كل ما منحتنا إياه من وقت وجهد ، واعتذر لأننا قد أرهقناك إلى هذا الحد .

ابتسم (ا . ص) ، وربّت على كتفه ، قائلاً :

ـ أهلاً بكم فى أى وقت .. إنه منزلكم .

لم يكن أمامى سوى أن أنهض أيضًا ، وأصافحه بدورى ، وأقول فى توتّر ملحوظ :

ـ أسعدنى الحديث معك كثيرًا يا سيِّدى ، ولكننى للأسف ، لم أحصل على أجوبة بعض أسئلتى بعد .

سألنى فى اهتمام :

ـ مثل ماذا ؟!

أشرت بيدى ، قائلاً :

ـ مثل هوية تلك الفتاة ، التى تحتلّ صورتها جدار الردهة .

ابتسم (ا . ص) ، وأطلّت من عينيه نفس النظرة ، التى تجمع ما بين الشرود والتأثُّر ..

نظرة رجل يستعيد ذكريات قديمة ..

عاطفية ..

ومؤثِّرة ..

ثم تلاشت تلك النظرة فى سرعة ، واختفت فى أعماقه ، وهو يقول :

ـ إنها قصة أخرى طويلة .

وربّت على كتفى ، وهو يمنحنى ابتسامة تزخر بالمودّة والصداقة ، مستطردًا :

ـ ربما أقصّها عليك فى المرة القادمة بإذن اللّه .

كدت أقفز من مكانى فرحًا ، وأنا أسأله :

ـ أهناك مرة قادمة ؟!

ابتسم السيِّد (أشرف) ، وتبادل نظرة مع (ا . ص) ، قبل أن يقول :

ـ بل مرات .. السيِّد (ا . ص) لديه الكثير والكثير ليرويه ، عن حياته الحافلة ، ومغامراته العديدة .

واتسعت ابتسامته ، وهو يغمز بعينه ، مستطردًا :

ـ ثم إنك تسعى لكتابة سلسلة طويلة .. أليس كذلك ؟!

اختلج قلبى بين ضلوعى فى قوة ، من فرط سعادتى وارتياحى ..

ولم تتوقّف اختلاجاته لحظة واحدة ، ونحن نودِّع الرجل ، وننطلق عائدين إلى (القاهرة) ، مع وعد بلقاء آخر قريب ، تحوَّل فيما بعد إلى لقاءات منتظمة ، ملأت عشرات وعشرات من أوراق الذكريات ، التى تصفّحتها مع (ا . ص) ، عبْر سنوات خمس ..

وطوال طريق العودة ، لم نتبادل كلمة واحدة ، أنا والسيِّد (أشرف) ، فقد أسبل هو جفنيه ، واسترخى فى مقعده ، كما لو أنه قد غرق فى نوم عميق ..

أما أنا ، فلم يهدأ عقلى لحظة واحدة ، وأنا أسترجع كل حرف من حديثى مع الرجل ..

وفى أعماقى ، تصاعدت عشرات التساؤلات ، عما سيدور فى اللقاءات التالية ، ثم انزاح كل هذا ، ليفسح المجال أمام سؤال واحد ..

لو أننى بدأت بالفعل فى كتابة تلك السلسلة ، التى ستضمّ أوراقه وذكرياته ومغامراته ، فأى اسم يمكن أن أختاره لها ؟!

أى اسم هذا ، الذى يمكن أن يربط بين الرجل ، ومغامراته الفذَّة ، التى قهر بها المستحيل ؟!

ولكن عقلى المجهد ـ عندئذ ـ لم يتوصَّل إلى الاسم المناسب ، فطرحت التساؤل جانبًا ، ورحت أسترجع مرة أخرى تلك الذكريات ، التى ستصنع أفضل أوراق كتبتها ، فى حياتى كلها .

أوراق بطل ..

وأى بطل !

[تمت بحمد الله]

★ ★ ★

تصفح معنا صفحات جديدة من (أوراق بطل) فى الكتاب القادم من سلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠) الملحمة ـ وقصص أخرى

حلول اختبر معلوماتك

١ ـ النبوءة .
٢ ـ السادس عشر .
٣ ـ الإمبراطورة .
٤ ـ خلف أسوار العقل .
٥ ـ سيف العدالة .
٦ ـ كابتن غريق .
٧ ـ الثامنى .
٨ ـ التجربة الرهيبة .
٩ ـ الرابع عشر .
١٠ـ فاى .
١١ـ رشدى .
١٢ـ الثامن .
١٣ـ السبت ٢٦ ديسمبر .
١٤ـ ويمضى الزمن .
١٥ـ الفارس .
١٦ـ رفعت .
١٧ـ أحمس .
١٨ـ صانع اللعب .
١٩ـ الثالث والعشرون .
٢٠ـ المهمة .

★ ★ ★

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

فى هذا الكتاب

صفحة

اللص .. (قصة قصيرة) ـــــ ٥

اختبر معلوماتك ـــــ ١٠

الكواكب الأخرى .. (قصة قصيرة) ـــــ ١٦

أوراق زهور

(أسرار القلب) ـــــ ٢٣

أحلام زمان (خواطر) ـــــ ٥٣

هذه الكائنات العجيبة (دراسة) ـــــ ٦٠

فى (سلسلة جديدة)

عملية تل أبيب (الجزء الثالث والأخير) ـــــ ٧١

زهرة (خواطر) ـــــ ٢٠٢

المرأة مشكلة صنعها الرجل (دراسة) ـــــ ٢٠٥

قصة العدد

أوراق بطل ـــــ ٢١٧

عزيزى القارئ (١) ـــــ ٣٥٣

عزيزى القارئ (٢) ـــــ ٣٨٠

حلول اختبر معلوماتك ـــــ ٤١٨

فهرس ٢٥ عددًا من كوكتيل ٢٠٠٠ ـــــ ٤١٩

الثمن فى مصر ٣٠٠ ص
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

٢١١٧٨